القسم الثاني

عصور أوروبا الأقطاعيّة والأسلام التركي وآسيا المغوليّة

(منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

تحوّل أوروبا
(القرنان الحادي عشر والثاني عشر)

طالما نظر المؤرخون الى السنة ١٠٠٠ نظرتهم الى فترة رعب وظلمة وفتور واعتقدوا ان مسيحيي الغرب ، الذين اقتنعوا بدنو نهاية العالم ، قد عاشوا هذه الفترة منكمشين على ذعرهم عاجزين عن النهوض باي عمل . اجل ، كل ما هنالك يحمل على الاعتقاد بان ارتقاب نهاية الازمنة ، في طبقات عريضة من المجتمع ، قد غدا ، بفعل التأمل المتواصل في كتاب الرؤيا ، اشد انضاضاً في اواخر الالف الاول من العهد المسيحي ، ولكن مما لا شك فيه ايضاً ان كبار المسؤولين في الكنيسة قد حاربوا هذه الاعتقادات وان سواد المؤمنين قد تغلبوا على مخاوفهم واستمروا في مسيرتهم قدماً الى الامام . ولا تبدو السنة ١٠٠٠ في الواقع ، كشفق حسير بل كفجر لامع : ففي ذلك التاريخ توطدت نهضة اوروبا ، في كافة الحقول ، بعد مرحلة اعداد طويلة الامد . أبعد خطر الغزو الذي تثاقلت وطأته منذ قرون وزال نهائياً ، واقام انضمام الشعوب البولونية والتشيكية والمنغارية الى المسيحية سوراً دفاعياً منيعاً ، في وجه الشعوب الرحل من سكان الفيافي ؛ وبينما كانت آثار الغزوات الاخيرة في طريق الزوال ، برزت حركة توسعية لن تعرف الوهن طيلة مائة وخمسين سنة ونيف .

بيد ان هذا النمو ، حتى منتصف القرن الثاني عشر ، قد سار سيراً مطرداً دون ان يدخل على الانظمة السياسية والاجتماعية التي قامت في اواخر الانحطاط الكارولنجي اي تبدل يذكر . فالاقطاعية - وهي الاسم الذي اطلقه التقليد على هذه الانظمة — قد توطدت ثم استفادت من التقدم الشامل لمعالمت ، في آن واحد ، مزيداً من المرونة والاقدام .

١ — المجتمع الاقطاعي

لم يبق في اوروبا ، في القرن الحادي عشر ، من وجود لتلك السيطرات السياسية العظمى

obeikandi.com

التي يتوفق سيدها ، بواسطة وكلائه المحليين الامناء ، الى بسط النظام والامن على اقاليم واسعة الارجاء. فان آخر هذه الامبراطوريات ، تلك التي اسسها ملوك الدانمرك ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، على شواطىء بحر الشمال وبحر البلطيك ، لم تلبث ان تفسخت . وفي جرمانيـــا نفسها ، التي حرصت على الاحتفاظ بالتقاليد السياسية الكارولنجية ، وحيث تحالفت العظمة الامبراطورية مع الملكية ورفعت من شأنها ، نرى السلطة الملكية تتفتت بسرعة بعد ان انهكها اتساع مهامها المتنوعة وتنازعتها وتقاسمتها روما والولايات السلافية المتاخمة ؛ فمنذ السنة ١٠٧٥ ، نرى هنا ، كما في فرنسا او ايطاليا قبل ١٠٠ سنة ، ان السيادة اخذت بالتجزؤ . ففي كل مكان ، نرى المناصب العليا والملكيات تفقد ، دون ان تزول ، كل سلطة فعلية ، ولا تلبث ان تصبح مجرد اساطير . امـــا الملك ، وهو المكرّس ، فيحتفظ في اعين الجميع باولوية تتميز بطابع مخائق الطبيعة ، واحاطت مسيح الرب بهالة عجائبية بمجموعة من الاساطير تكونت وانتشرت انذاك : فالزيت الذي يمسح به يوم التكريس يأتي مباشرة من السماء ؛ وهو يستطيع ، بمجرد لمسة من يديه ، شفاء بعض الامراض ؛ ومن حيث هو نصف كاهن ، ويحتل مرتبة دونهـا مراتب كافة البشر ، لا يستطيع احد ان يعتدي عليه بالضرب ؛ وهو اخيراً تجسيد للنظام الالهي . ولكن على الرغم من رأي العالم الاقطاعي هذا في الوظيفة الملكية ، فان الملوك قـــد فقدوا في الواقع حقيقة سلطتهم . ولم تعد سلطتهم الفضلى ملكية بل اقطاعية او عقارية : فالملك الذي ليس تابعاً لاحد موضوع احترام عظماء المملكة ؛ وهو ، الى ذلك ، شأن الاسياد الاخرين ، سيد اراضيه العائلية واملاكه الوراثية وحامي الفلاحين المباشر فيها . ولكنها في اغلب الاحيان سلطة هزيلة جداً . ويكفي هنا ان نقدم مثل ملك فرنسا لويس السادس الذي عَنيد ، في اوائل القرن الثاني عشر ، بمعاونة بعض التبعة المنزليين ، في اخضاع بعض صغـــار حكام الحصون في « جزيرة ـ فرنسا » *Ile - de - France* ، ووضع حد لتجاوزاتهم . والمضادة بين واقع ضعف الملك وبين الرسالة السامية الملقاة على عاتقه هي بالضبط احد مواضيع الاعاني الايمائية الفرنسية وتلك التي تعبر بامانة عن مشاعر كبار الارستوقراطيين العلمانيين من امثال « عربة نيم » او « تتويج لويس » .

بيد ان الشيء المهم ، اذا غدت الملكيات مناصب روحية غير ذات فعالية ، ان تؤمن مهمة الهية هي مهمة الامن والعدالة الضرورية للمحافظة على المجتمع المسيحي . فقد امنتها في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، الكنيسة التي سارعت منذ العهد الكارولنجي الى الحلول محـل الملوك المستضعفين ؛ كما امنتها بعد ذلـــك ، تحت اشد الاشكال اليومية حقارة ، القوى المحلية الخاصة واسياد الحصون .

السلطات الجديدة

في السنتين ٩٨٩ و ٩٩٠ ، روّج المسؤولون الكنسيون في مجمعي شارو وبوي — وكلاهما من اعمال الأكيتين ، تلك المقاطعة المسيحية التي بدا فيها الانحلال السياسي أقوى منه في سواها — حركة سلام الرب التي ما لبثت ان انتشرت في مختلف أنحاء غاليا الجنوبية والشرقية وتسربت ، بموافقة الاسياد انفسهم ، الى مناطق شماليـــة ارسخ

تنظيماً كامارات متراصة . تستثنى من ذلك جرمانيا حيث ما زال الملـــك ينعم بقوة تسمح له بالدفاع عن السلام بنفسه – وفي هذا دلالة على حقيقة الغاية من هذه المحاولة : فالمقصود هو ان تستبدل ، حيث تصاب بالوهن ، جمعيات السلام المشكلة بصورة طبيعية بين الرجال الاحرار في اطار الممالك البربرية والموضوعة تحت اشراف الملوك ، بجمعية جديدة يكون الاحبـار رؤساءها وتكون وسائل العقوبة فيها العقوبات الكنسية ، أي الحرم والابسال . ويشترك في عضويتها كل الاسياد ، و « كل من أوتي سلطة من الله » ، وكل الاغنيـاء ، الذين تنحصر وظيفتهم في الحرب وقد يصبحون خير سجس وبلبلة ، ويعقدون جمعية قليمية احتفالية ويقسمون يميناً جماعية تجدد كل جيل . ويتعهد الجميع بالامتناع عن القيام بأعمال العنف حيال الاشخاص الكنسيين والممتلكات الكنسية اولاً ، والفقراء الذين ليس من يدافع عنهم ثانياً ، ويمتنعون بالاضافة الى ذلـــك ، في علائقهم المتبادلة ، عن اللجوء الى السلاح خلال شطر من كل اسبوع وخلال بعض ايام الروزنامة الطقسية ، أي ايام « الهدنة الالهية » ؛ ويتكتلون جميعهم اخيراً ضد من قـــد يخالف الميثاق المشترك . ان هذا التنظيم الذي ارتكز الى احدى أقوى العواطف الجماعيـة في طبقة المحاربين ، أعني بها احترام اليمين ، لم ينجح ، والحق يقال ، في الحؤول دون كل اضطراب ؛ بيد انه ، دونما ريب ، قد فاق الادارة الكارولنجية فاعلية ؛ وقـــد توصل طيلة قرن ونصف (لقد عقدت اجتماعات سلام الرب الاخيرة في فرنسا حوالي السنة ١١٥٠) ، بانتظار اعادة السلطة الملكية ، الى تأمين السلامة اللازمة . وبالفعل نفسه ، وسعت حركة السلام شقة الخلاف بـــين فئة رجال الحرب اعضاء الحلف السلمي ، وفئـة رجال الكنيسة الذين يؤلفون مجتمعاً خاصاً يخضع لنظام مستقل يصونه ، وبين جمهور الوضعاء من احرار وغيرهم . فقد فرضت على هؤلاء ، حيطة لما قد يقدمون عليه من اعمال عنف ، عقوبات أشدّ صرامة ؛ وبينما لم يتعرض الفلاحون الاحرار ، في الماضي ، وفي الظروف العادية ، الا للجزاء النقدي ، تعرضت جرائمهم ، في القرن الحادي عشر ، للعقوبات الجسدية ، وأسندت مجامع السلام تنفيذ هذا القانون الاستثنائي ، أعني به قضاء الدم ، الى ورثة قوة الملوك العسكرية ، أي حكام الحصون .

فان الحصن ، ذلك البرج المربع المؤلف من طبقتين او ثلاث ، الذي شُيّد في السابق بالاخشاب واخذ يشيد آنذاك بالحجارة ، والذي يعلو مرتفعاً طبيعياً او صنعياً تحيط به أسوار من أوتاد خشبية ، قد بقي ، بعد زوال السيادات الاقليمية ، رمزاً ومركزاً للسلطة الفعّالة ، أي «للحكم» اما هذه الابنية العسكرية ، وهي قليلة العدد نسبياً ، لأنها ، في أغلبيتها ، أبنية عامة قديمـــة (وعلى المغامر الذي تحدثه نفسه باقامة حصن جديد ان يحسب حساباً للصعوبات المادية ، ومقاومة الاهالي ، وغارات حكام الحصون المجاورة الذين يقفون صفاً واحداً في وجـــه الدخيل الذي يتطاول على حقوقهم) ، فهي في الدرجة الاولى ملاجىء يحتمى فيها ساعة الخطر ، ونقاط تتجمع فيها الفرق العسكرية المحليـــة . وان مهمة تأمين السلام – وبالفعل نفسه ، اصدار الاحكام الزجرية في القرى العشر او العشرين التي تحيط بالحصن وتقوم ، كما درج التعبير ، تحت حمايته ،

او تحت كابوسه ، او تحت سلطانه ، تعود بصورة طبيعية الى سيد الحصن ، أي الى ذاك الذي يبدو وكأنه السائد بالذات ، أعني به السيّد . ليس لهذا الاخير ، مبدئياً ، وفاقاً لتنظيم السلام الجديد ، أي حق على ما قد يوجد في اراضي الحصن من رجال الكنيسة وممتلكاتها ، فيتكون من ثم عدد مواز من الاقطاعات والحصانات الصغيرة . وينتظر هذا السيد ، من الاسياد المجاورين المساوين له ، ومن كافة العلمانيين الذين يتمتعون بقسط من الثروة يتيح لهم الاشتراك في الحرب على صهوة جيادهم والقيام خير قيام بوظيفتهم العسكرية ، احترام العهود التي قطعوها في جمعيات السلام على الاقل ، والصداقة وتأدية الخدمات الموعود بها ، مقابل مجاملات متبادلة ، حين تعميم الاحترام والدخول في طاعة السيد ، على الاكثر ؛ ولكنه لا يمارس حيالهم أية سلطة قسرية . اما كافة علمانيي الطبقات الدنيا المقيمين في نطاق الحصن فتحت سلطته المطلقة .

يتضح من ثم ان توزيع السلطات بعد انهيار السلطة الملكية قد فرض تنظيم المجتمع . توزع الناس في ذاك العهد ، وفاقاً لموقفهم من القوى الرادعة ، الى ثلاث « طبقات » . والمقصود بذلك فئات محدّدة ، ثابتة ، اوجدها الاله نفسه ، منذ الخليقة ، وباعتراف الجميع ، لتأمين انتظام العالم ، يقابل كل منها « حالة » خاصة او رسالة معينة . احد في الطبقة الاولى اولئك الذين يصلّون وتنحصر مهمتهم في التغني بمجد الرب وبالحصول على خلاص الجميع ؛ وجماعة بعدهم اولئك الذين يحاربون ، وقد اسند اليهم امر الدفاع عن الضعفاء ونشر السلام الالهي ؛ واخيراً ، تحت هاتين النخبتين ، العمال الذين يتوجب عليهم ، وفاقاً لأحكام العناية الالهية ، الاسهام بعملهم في اعالة اختصاصيي الصلاة والحرب . ذاك هو المخطط الموجز الذي رسخ في اذهان الجماهير حوالي السنة ١٠٠٠ ، وعبّر عنه منذئذ في كل مكان ، في الابحاث التعليمية او الماعظ وفي تنظيم الاحتفالات العادية ، وانتقل من جيل الى جيل ، فأصبح طيلة قرون عدة الهيكل الاساسي للمجتمع الغربي .

كانت اولى هذه الطبقات نفسها مؤلفة من فئتين : فئة الكهنة برئاسة الاساقفة ، وفئة الرهبان التي اعوزها التلاحم ، ولكن اصلاحات تدريجية ادخلت عليها مزيداً من الوحدة وجمعت عدداً من الاخويات الكبيرة في عدد مواز من « الجمعيات » الخاصة . وكانت هذه الطبقة قديمة العهد تؤلف وحدها جسماً حقيقياً له تقاليده واجهزته وقوانينه الخاصة . وتجدر الاشارة منذ الآن الى ان حركة تجديدية وتطهيرية بطيئة ، تنزع الى التمييز تمييزاً افضل بين الروحانيات والزمنيات ، كانت آخذة تدريجياً بطبعها بمزيد من الفردية وباحكام الفصل بين العلمانيين والاكليريكيين . ومن حيث ان هؤلاء الاخيرين مكرسون لخدمة الله ، فانهم يعتاشون من احسانات المؤمنين ، لا الاعشار التي تعود بمعظمها للاسياد العلمانيين الذين اسس اجدادهم الكنائس القروية ، بل التقادم الطقسية او الفصلية التي يستفيد منها خدام الخورنيات ، ولا سيما دخل الاراضي التي تقدم هبات تقوية للمؤسسات الدينية ؛ ولعل الاعتقاد بما للاحسانات من فعالية فدائية لم يكن يوماً اعمق منه في الفترة الممتدة من اواخر القرن العاشر حتى اوائل القرن الثاني عشر ، وقد ضمت خلال هذه المدة نسبة مرتفعة من ممتلكات

العلمانيين المقدمة للاله وخدامه الارضيين الى ممتلكات الكنيسة . والطبقة الكنسية طبقة غير مقفلة: فكل انسان سيد نفسه يستطيع الدخول اليها بعد ان يتخلى عن اسلحته اذا كان من طبقة المحاربين ؛ ويجب عليه في الظروف العادية ان يقدم مهراً « للمبسه » ، ويتوقف المركز الذي سيحتله في سلم الوظائف الروحية ، بصورة عامة، على اهمية هذه التقدمة الاولى. فهنالك تفاوت ظاهر في فئة « المصلين » ، والمسافة القائمة بين مجالس الكهنة القانونيين في الكاتدرائيات، وكلهم ابناء اسياد يعيشون في بحبوحة كاسياد من محاصيل دخلهم القانوني ، وبين الاكليريكيين الوضعاء القائمين بالخدمة الروحية في الارياف ، وكلهم ابناء فلاحين يستفيدون من دخل عارض ضئيل وغالباً ما يضطرون الى ان يدفعوا المحراث بانفسهم في اراضي الخورنيات الضيقة ، هي بالضبط تلك التي تفصل بين الاغنياء والفقراء، وبين فئة المحاربين المحترفين وفئة العمال. وان هذا التمييز الاجتماعي الاخير هو في الواقع اعمق تمييز لان له انعكاسه داخل الكنيسة العلمانية نفسها ، وحتى في الاخويات الرهبانية : فقد اخذوا في القرن الثاني عشر ، يفصلون فصلا واضحاً في اديرة البندكتيين ، بين رهبان الترتيل ، اخوة الفرسان ، وبين الرهبان المساعدين ، اخوة الفلاحين . ونحن هنا امام تمييز حديث العهد يسدل الستار تدريجيا على التمييز القديم بين الانسان الحر وبين العبد ، ولكنه تمييز واضح جداً يعين حداً لا يمكن تخطيه في الظروف الطبيعية .

الفروسية

جمع في هـــاتين الفئتين الرئيسيتين اولئك الذين تطلق عليهم النصوص اللاتينية المعاصرة اسم « الجنود » بينما تطلق عليهم اكثر اللغـــات الشعبية الغربية اسم « الفرسان ». وبالفعل بات مفهوما المحارب والفارس مترادفين خلال القرن العاشر ، حين امسى دور المشاة ثانويـــاً في المعارك وتوقف المسؤولون عن اللجوء بصورة منتظمة الى استدعاء بعض الرجال الاحرار ، الذين لا يستطيعون تأمين عدة الفارس الكاملة بسبب فقرهم المدقع . فكان على كل جندي ، في الواقع ، ان يتسلح وفاقاً لثروته ، ولذلك كانت هئة المحاربين المحترفين ، في الدرجة الاولى ، طبقة اقتصادية ، وقد توجب ، حوالى السنة ١٠٠٠ ، للانتساب اليها ، اقتناء حصان وشتى الاسلحة الهجومية والدفاعية اولا ، والقدرة ، بعد ذلك ، على التمرّن على مسايفة الفرسان الشاقة ، وتخصيص وقت كاف ، اخيراً ، لتلبية الدعوات الى الاجتماع والاشتراك في الحملات العسكرية . وكان لزاماً عليه بالتالي ان يكون لديه رأس مال هام (فقد كان ثمن الدرع وحده ، في القرن الحادي عشر ، يوازي ما يتطلبه مشروع استثمار زراعي على بعض الاهمية) ومتسع كاف من الوقت بنوع خـــاص . فامتهن الفروسية ، من ثم ، كبار الملاكين العقاريين ، اولئك الذين يحصّلون دخل املاك واسعة يحرثها خدام كثيرون ولا يحتـــاجون الى ادارة استثمارها بانفسهم ، والاتاوات المفروضة على عدد من الاراضي التابعة لهم قـــد يبلغ العشرين ـ وبكلمة واحدة ، اولئك الذين يخدمهم عدد هام من العمال .

بيد ان طبقة الفرسان ، التي كانت في البدء مفتوحة الابواب لكافة الاغنياء ، ما عتمت ان اقفلت وامست طبقة وراثية ، وجاء هذا التطور طبيعياً جداً في زمن انحطاط اقتصادي

كانت فيه جميع الثروات عقارية وندر فيه ان يتوصل احد الناس ، بمساعيه الفردية ، الى رفع او تخفيض قيمة ارثه بصورة محسوسة . وكان تطوراً سريع الخطى في فرنسا الوسطى حيث اكتمل في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، بينما كان بطيئاً في غير مكان وبقي ناقصاً هنا وهناك . وحين بلغ حدّه ، لم يعد للثروة اي شأن ، بل للنسب وحده . فورث ابناء الفرسان منذئذ – وحدهم ، باستثناء حديثي النعمة من المغامرين او الفلاحين المثرين – صفة الفروسية ؛ وحق لهم دون غيرهم ، عندما يبلغون اشدّهم ، الانخراط في فئة اختصاصيي الحرب، بعد حفلة اشراك عائلية وبسيطة جداً يتسلمون خلالها اسلحتهم ، بعد امتحان اهليتهم العسكرية ، من ايدي احد متقدّمي عائلتهم سناً. فكانت هذه الطبقة ،والحالة هذه ، قليلة العدد نسبياً : ويبدو ان هنالك عائلة فرسان في كل قرية على وجه التقريب .

وكان بين اعضائها تفـــاوت ملموس في الثروة ، فالبعض يمتلكون حصناً ، ويتمتعون من ثم بحق توزيع الاوامر على الفلاحين ومعاقبتهم واستثمارهم؛ ولكن هؤلاء الاسياد الكبار يؤلفون نخبة محدودة العدد . ويعيش معظم الفرسان ، في بيت ريفي ، حيـــاة نصف قروية ويشرفون بانفسهم على استثمار املاكهم الصغيرة حين لا يقومون بوظيفتهم الحربية ؛ وليس من النادر ان نرى فرساناً فقراء ، هم اخوة الابكار في بعض العائلات الكثيرة العدد ، يضيق بهم ارثهم ويتعذر عليهم تعهد اسلحتهم فيضطرون الى المغامرة وركوب الاخطار خوفاً من الانحـــدار الى طبقة الفلاحين. بيد ان الفرسان جميعهم ، سواء كانوا اغنياء ام فقراء، يشتركون، اقله في بعض المراحل، في معيشة واحدة هي معيشة المحاربين المحترفين، ويكتسبون العقلية الملازمة لهذه المعيشة: اعتبار خاص للقوة الجسدية ؛ ميل الى المآثر الرياضية ، في الحرب نفسها او في التمارين العنيفة التي تقوم مقامها وتعدّ لها ـ كقنص الوحوش المفترسة الذي نحف به المخاطر ؛ والمبارزات التي تكاد لا تتميز عن المعركة نفسها والتي لم تكن لمدة طويلة مبارزات فردية في حلبة مقفلة . بل تجابه فرقتين من الفرسان ، في ارض واسعة الاطراف ، يتعاقب فيه الكر والمطاردة والتقتيل والفدية – واخيراً تقاليد الشرف والايمان التي تستند الى قوانين الحرب . ويشكل هـــذا المجموع من العادات والشواعر التي تردّ الى التخصص العسكري في طبقة الفرسان ، اول عامل من عوامل الوحدة . اما العامل الثاني فامتياز يضاف الى الارث ويجعل من الفرسان ، منـــذ القرن الحادي عشر ، طبقة حقيقية من النبـــلاء ؛ فالفرسان جميعهم ، بسبب الخدمات المفروض عليهم ان يؤدوها للجماعة كلها ، يعفون من الفرائض والاعباء التي تنوء بثقلها على طبقة العمال ، ولا يؤدون واجباتهم التافهة ولا يعترفون بقاض يستطيع معاقبتهم ؛ ولا يتوجب عليهم سوى القيام ببعض الخدمات التي تعهدوا لسيد اقطاعتهم ، بملء ارادتهم ، القيام بها .

الاقطـــاع

ان طبقة الفرسان – وهذا ما يميزها ايضاً – محاطة كلها بالانظمة الاقطاعية . منذ نهاية العهد الكارولنجي ، اقدم معظم الرجال الاحرار المنتمون الى مرتبة عليا ، رغبة منهم في تأمين الحماية او فوائد اخرى مختلفة ، على تقدمة شخصهم الى وليّ نصير ؛

وهكذا فان الفرسان ، المقيمين في الاراضي التابعة للحصن والملزمين بالتجمع فيـــه عند اول طارىء ، قد غدوا اصحاب اخادات خاضعين لسيد الحصن ؛ ومنذ انهيار القوّة الملكية – اي منذ او خر القرن العاشر في غاليـــا ، ومنذ اوائل القرن الثاني عشر في جرمانيا – اصبحت هـذه الارتباطات الشخصية الروابط السياسية الوحيدة بين اعضاء الارستوقراطية . ولكن صفة هذا الخضوع ، في الوقت نفسه ، قـــد تبدلت بشكل محسوس ايضاً . فقد رسخ في كل مكان ، منذ السنة ١٠٠٠ ، ان خدمات التابع النبيل تستحق مكافأة قانونية ؛ فليس من واجب السيد، خلال الجمعيات التي تضم رجاله حواليه بصورة دورية ، ان يوزع عليهم الهدايا والاحصنة والاسلحة والنقود والحلي فحسب ؛ بل يجدر به ايضاً ، منـــذ تقديم خضوعهم له ، ان يكلفهم تعهد بعض الاراضي ، طيلة اخلاصهم له ، او يخصهم باي انعام آخر – سيادة كاملة على اقطاعة ، او جزء من الاعشار او الاتاوات ، او استثمار ارض بسيطة في اغلب الاحيان ، او ارض بتسلم الفلاحين – على ان يدر دخلاً منظماً يعوّض على الرجل شقاءه : وهذا الانعام هو الاقطاعة . في اوائل القرن الحادي عشر كان تسليم الاقطاعة يلي يمين الاخلاص مباشرة ، ثم درجت العادة على ان يدخل في احتفال تقديم الخضوع ؛ وقـــد اوجدت هذه الوحدة الوثيقة بين الاقطاعة والخضوع تحوّلا في الرابطة بين رجل ورجل . ومرد ذلك الى ان تعهد الارض ، وهو العنصر المادي الملموس المثمر ، قد غدا اعظم اهمية في نظر رجال الحرب هؤلاء الذين يكادون يعجزون عن التجريد ؛ وعكست اخيراً العلاقة الاصلية بين الهبة الاقطاعية والارتبـــاط الشخصي ، فاعتقدوا بان وفاء صاحب الاقطاعة وخدماته وحتى تقديم شخصه امر واجب بسبب الاقطاعة وان واجبات التابع تمثل بدل هذا الاستثمار . وقد تم هـــذا التحول في الاعتقاد في الربع الاخير من القرن الحادي عشر : فاصبح السيد وصاحب الاقطاعة مرتبطين بحقها المشترك على ارض واحدة اكثر من ارتباطها بوعد الصداقة . فما هو والحالة هذه موقف كل منهما ؟

ليس الفارس صاحب الاخاذة مطلق التصرف باقطاعته : فقد يفقدها اذا لم يحترم بنود عقد خضوعه ؛ ويحجز السيد الاستثمار حال ثبوت اخلال صاحب الاخاذة بواجبه امـام جمعية كافة اصحاب الاخادات . اما اذا برّ التابع النبيل بيمين ولائه فلا يمكن ان يكدره مكدر في تصرفه باقطاعته ؛ ويستطيع ان يتنازل عن بعض اجزائهـــا لاصحاب الاخادات التابعين له ؛ وينزع طبيعياً الى اعتبارها كاحد املاكه الخاصة التي لا شيء يميزها عنها في الظروف العادية؛ وقد اعترف له ، في اواخر القرن الحادي عشر، بصورة عامة ، بحق بيعها او نقلها الى ورثته . اجل ان هنالك بعض الاستثناءات : فالاقطاعة ، من حيث هي وراثية ، لا تقبل التجزئة ، ولا مناص بالتالي من موافقة السيّد وتدخله حتى يستطيع متسلم الاقطاعة الجديد التمتع بحق الاستثمار ؛ وكثيراً مـا يضطر هذا الاخير لدفع رسم الانتقال ويخضع لاحتفال تقديم شخصه . ولكن هذه الضمانات لحق السيادة لا تحول دون انتقال الاقطاعات من يد الى يد ، ولا دون قيام او زوال الولاء الذي تستلزمه . فادت سهولة الانتقال هذه الى تراخ اكيد في الروابط بين انسان وانسان . فلم ينتخب

السيد ، بعد ذلك ، اصحاب الاخاذات التابعين له ، بل غدت الوراثة والبيع يدخلان في خدمته اتباعاً جدداً غالباً ما لا يصلحون « لخدمة » اقطاعتهم بسبب صغر سنهم او عجزهم الصحي ، او يكونون مجهولين منه ان لم يكونوا معادين له ؛ ومن حقنا الشك في حقيقة قيمة ايمان تقسمها الشفاه وحدها خلال احتفال لم يعد سوى معاملة شكلية تخضع لها علاقة عقارية بحتة . اضف الى ذلك ان وراثة الاقطاعة وحق بيعها رفعا عدد الفرسان الذين باتوا ، بعد تسلّمهم اقطاعات مختلفة بشتى الطرق ، خاضعين لعدّة اسياد : وهم قد وعدوا كلاً من هؤلاء بالاخلاص والخدمة ؛ وجلي انه يصعب عليهم التفرغ كلياً لكل من اسيادهم في حال انهم ينزعون بالتفضيل الى التحجج بتعهداتهم الكثيرة حتى لا يقوموا باي منها . لذلك فان الارتباط الاقطاعي ، من حيث هو خاضع للاقطاعة ، ابعد من ان يكون ابداً ، شأنه في العهد الفرنجي ، خضوعاً كلياً من الانسان لحاميه لا يحل من موجباته سوى الموت .

يجب الا نعتقد مع هذا بان خضوع صاحب الاخاذة للسيد قد فقد كل قوته ؛ فهو قد بقي مرتكزا الى احد اخطر الافعال التي يمكن ان تصدر عن المسيحي ، اعني به القسم . ولكن قوته قد غدت اكثر تفاوتاً وتأثراً بالظروف . وهـــا نحن نورد هنا ما جاء في رسالة وجهها فولبير اسقف شارتر ، حوالي السنة ١٠٢٠ ، الى دوق « أكيتين » ، الذي استشاره في هذا الامر ، حول مفهوم العلائق بين السيد وصاحب الاخاذة انذاك . هناك في الدرجة الاولى الاخلاص المتبادل من حيث ان المتعاقدَين يحتلان مستوى واحداً تقريبا ؛ فـ « على السيد ، في كل الامور ، ان يعامل تابعه بالمثل ، وان لم يفعل صح اتهامه بسوء النية » . واذا ما رددنا هذا التعهد الى حقيقة جوهره ، بدا لنا انه وعد ذو طابع سلبي : فان كلا من الطرفين يمتنع عن القيام باي عمل قد يلحق الضرر بالآخر . وانما يستحسن ان تكون الصداقة اشد حرارة وان تظهر بخدمات ايجابية : « اذا كان من العدل ان يمتنع التابع عن الحاق الضرر بسيده ، فهو لا يستحق اقطاعته بهذه الطريقة ؛ ولا يكفي الامتناع عن فعل الشر ، بل يجب فعل الخير ايضا ؛ ويتوجب من ثم على صاحب الاخاذة ان يقدم لسيّده المشورة والمساعدة باخلاص ، اذا اراد ان يكون جديراً بالاقطاعة ومنسجماً مع يمين الاخلاص التي اقسمها . و « المساعدة » تعني تقديم العون بكل الوسائل الممكنة والوسائل التي تفرضها الظروف ، وذلـــك بتقديم المال ، واستخدام النفوذ ، في القضاء وغيره ، لدى خصوم « الصديق » ، وفي اغلب الاحيـــان بالقوة والاسلحة ، كما يليق ذلك في مجتمع عسكري . واتضحت تدريجياً خـــلال القرن الثاني عشر طبيعة ومدى المساعدة الاقطاعية ، وتحددت في الاعراف المحلية : وهكذا فقد بات من المعترف به في فرنسا ان من حق السيد ان يفرض على صاحب الاخاذة ، بالاضافة الى الدورات التدريبية في الحصن ، الخدمة العسكرية المجانية اربعين يوماً في السنة ؛ وان باستطاعته ايضاً مطالبة تابعه بمساهمة مالية ، حين يتوجب عليه دفع فدية او تسليح ابنه او مهر ابنته او حين يشترك في حملة صليبية . اما واجب المشورة فيجب ان ينظر اليه من زاوية عرف خاص بمجتمعات القرون الوسطى ، اعني به الشعور الراسخ بان رئيس الفرقة

لا يستطيع اتخاذ قرار خطير واصدار حكم والبت بمصير ممتلكاته ، دون عرض الامر على رجاله والاستئناس برأيهم ؛ فعلى صاحب الاخاذة ، والحالة هذه ، كلما طلب اليه ذلك ، التوجه الى سيده والاقامة في ديوانه ؛ وان هذا الاجتماع ، من جهة ثانية ، ظرف يتيح للرجلين اعادة الاتصال بينهما وتوثيق رابطة قد يكون ارخاها البعاد . وغالباً ما تضاف الى هذه الموجبات العامة خدمات متبادلة اكثر تلقائية واعمق انعكاسات ادبية : وهكذا فغالباً ما يحدث ان يرسل صاحب الاخاذة ابنه لتمضية حداثته وتعلّم مهنة الفروسية في كنف السيد وبرفقة اولاده ، لا سيما وانه سيدعى « لخدمتهم » فيرتبط بهم من ثم ارتباطاً اوثق . وليس من النادر اخيراً ان تكون العلاقة اشد وثوقاً ايضاً ، فلا يميز بين صاحب الاخاذة وبين اقرب اقربائه سيده ؛ اذ ان الرابطة الاقطاعية ، حين تنميها مجاورة جسدية وروحية ، تبرز بكل قوتها وتسمي ، كالرابطة الدموية ، ملزمة وموجبة .

الاخلاص ، والقسم ، والنسب

ان العقد الاقطاعي ، كما رأينا ، اطار مرن جداً ؛ فقد يحدث ان يقيم بين رجلين قرابة حقيقية ، اعني بها تلك الاخوة الممتازة التي تصفها اغان ايمائية كثيرة ؛ ولكنه قد يؤول ايضاً الى مجرد ضمانة ضد الاعتداءات الممكنة حين يقوم بين قوتين غريبتين او متعاديتين . ويبدو بصورة عامة ان قوة الاخلاص منوطة في جوهرها بقوة كل من التابع وسيده : فالفارس الصغير الفقير ، التابع لسيد عظيم ، مضطر لان يخدم ، بمزيد من الانقياد ، هذا السيد الذي يخشاه والذي يستطيع ان يقدم له مساعدة فعّالة . وهي تختلف باختلاف المقاطعات ايضاً : ففي المناطق المسيحية الجنوبية ، تبدو الموجبات الاقطاعية اكثر حصراً واقل وضوحاً . وقد تحوّرها اتفاقات خاصة ايضاً : فان بعض الوعود بالخضوع والطاعة ، لا سيما حين تقطع بين عظام الاسياد ، معاهدات حقيقية تنطوي على شروط غالباً ما تدون في وثيقة خطية وتوضع خلال مقابلة تجري في ولاية متاخمة وتحدّد بالتفصيل كيفيات المساعدة

غير ان سؤالاً يرتسم امامنا هنا : اذا كانت النظم الاقطاعية ، المتفاوتة الفعالية ، تؤلف الاطار السياسي الوحيد لطبقة الفرسان ، فهل باستطاعتها ان تحافظ على النظام داخل هذه الطبقة ؟ يمكننا الاعتقاد بانها تتوصل دائماً الى ايثاق ارتباط صغار الفرسان الريفيين بسيد الحصن المجاور ؛ فهي تجمع حوالى الحصن ، وهو المركز الرئيسي للنشاط العسكري ، جنود الجوار في وحدة متينة تزيد في تراصها اخوة السلاح وتجتمع دوريا ، اما في التمارين الحربية ، واما في البلاط الاقطاعي ، حول السيد المشترك ، الحكم الطبيعي للخلافات الداخلية . ومن الثابت من جهة ثانية ان شعور الخضوع ، في طبقات الفرسان العليا ، يشكّل حاجزاً فعالاً في وجه المشادات : فان اقل اصحاب الاخاذات اكتراثاً بوحي ضميرهم يتردد دائماً في مهاجمة سيده مهاجمة سافرة ، وقد اسهم هذا الاحجام في ايقاف كثير من المعارك ورفع الحصار عن كثير من الحصون . وعلى الرغم من ذلك لم يكن التنظيم الاقطاعي كافياً . فهو في الدرجة الاولى لم

يؤلف ، كما يسود الاعتقاد ، جهازاً متلاحماً يجمع في كتل متراصة ، حول كل ملك او كل امير عظيم ، كافة الموالين في الاقاليم ، بل تجزأ الى حمايات محلية كثيرة ، مستقلة عملياً بعضها عن بعض . ثم ان السيد ، وهذا هو الاهم ، ما كان ليستطيع مراقبة كافة تصرفات تابعه : فبامكانه ان يعاقبه بحجز اقطاعته اذا اساء الاخلاص المتوجب عليه ، ولكن حقوقه عليه تقف عند هذا الحد ؛ وباستطاعة صاحب الاخاذة ان يرتكب ابشع الجرائم ، اذا ادى لاسياده المختلفين خدمات المساعدة والمشورة ، دون ان يتمكن هؤلاء من اتخاذ اي اجراء بحقه . وقد برز بكل جلاء نقص النظم الاقطاعية في الاجراءات القضائية المطبقة في كافة انحاء الغرب في القرن الحادي عشر والنصف الاول من القرن الثاني عشر .

عندما يتجشم احد الفرسان ضرراً يلحقه به احد افراد حاشيته ، ليس من محاكم نظامية تستطيع قبول شكواه واتخاذ اجراء مباشر ضد المعتدي ، الا اذا كان الرجلان عضوين في جمعية اقطاعية واحدة . فيتوجب على الضحية والحالة هذه ان تحصل حقها بيدها ؛ فتقوم بمساعدة اصدقائها ، بعمل عسكري ضد الخصم وذويه ؛ وتبتدىء بذلك حرب قد تدوم زمناً طويلاً جداً وقد تتسع تدريجياً بحسب المحالفات ، وهذا هو الثأر الخاص . فكل خلاف وكل نزاع حول الارض وكل اهانة وكل بادرة في غير محلها قد تفضي من ثم الى نزاع مسلح يولد بدوره احقاداً اخرى وانتقامات اخرى . بيد ان الفريقين المتعاديين يقبلان عموماً ، بوساطة الاصدقاء المشتركين ، وبعد مساومات طويلة ، بان يفصل في خلافهم مجلس مؤلف بالتساوي من انصار كل منهما . تعرض الضحية شكواها ، تدعمها في موقفها ايمان اقربائها واسيادها واتباعها ، ثم يتناقشون ويلتمسون غالباً حكم الاله اما بدعوة ابطال الفريقين الى المبارزة ، واما باخضاع المدعى عليه لامتحانات الماء والنار الطقسية ؛ ويضعون في النهاية تسوية تقرر بالتخلي عن بعض الحقوق . واذا كان موضوع النزاع مالاً ، تقرر قسمته بصورة عامة ؛ اما اذا كان جريمة او ضرراً جسدياً ، فيحدد « ثمن الدم » الذي يتوجب على المعتدي دفعه لجميع من الحق بهم ضرراً . وانما يتوجب على المتخاصمين ان يقبلوا كلهم بشروط الصلح ؛ فالقضاة ليسوا في الحقيقة سوى مصلحين ولا يأخذون على انفسهم فرض حكمهم بالقوة . فنحن من ثم امام قضاء بطيء وناقص وباهظ الاكلاف (بسبب الدفع للوسطاء والقضاة والشهود والابطال) وبالنتيجة غير ذي فعالية لانه لا يعيد الى الضحية حقها كاملاً ويشجع على اللجوء الى العنف . وما كان التنظيم الاقطاعي بمفرده ، من ثم ، ليكفي للحفاظ على النظام والسلم ، لو لم يكتمل اطار طبقة الفرسان بوسيلتين : الاكثار من ايمان الضمانة المتبادلة ، وتوثيق الروابط العائلية .

تقسم اليمين بوضع اليد على الذخائر المقدسة او على كتاب الاناجيل ، وتعني رهن النفس رهناً احتفاليا ؛ فليس من عمل آخر اكثر الزاماً لانسان يهتم بخلاصه الابدي ويخشى بالاضافة الى ذلك ، في امور الزمنية ، نتائج الغضب الالهي . ويلفت النظر ان فارس القرن الحادي عشر محمول على اقسام ايمان كثيرة يمتنع بموجبها عن استعمال القوة والحاق الاذى بالغير . فهنالك اليمين العامة

المقسمة جماعياً في جمعيات سلم الرب ، وايمان الخضوع التي تعددت بعد تزايد المشاركات الزراعية والايمان الخاصة اخيراً التي تفرض في ظروف عديدة فتصدّق كل اتفاق وصفقة ، ويقسمها ليس كل متعاقد فحسب، بل كل الاصدقاء الذين يرافقونه ايضاً والذين يصبحون ، بعهدهم هذا، شركاء له في عمله ويتعهدون بالحفاظ على السلم . فيدخل الفارس بهذه الطريقة في شبكة من الوعود التي تربطه نهائياً بكافة جيرانه تقريباً ، اي باولئك الذين يتاح له ظروف كثيرة يقابلهم فيها؛ فيضطر بالتالي الى كبح نزواته والزكون الى الهدوء .

بالاضافة الى ذلك ينتسب الفارس الى وحدة ضيقة ، تحميه وتراقب اعماله ، اعني بها نسبه . فقد غدت العائلة ، بعد اختلال حبل الامن الذي عقب انهيار الملكيات ، الخلية الاساسية لمجتمع الفرسان. فامست في آن واحد اشدّ تلاحماً (ودرج استعمال اسم العائلة المشترك بين جميع الاعضاء، وهو رمز هذا التجمع ، في الطبقة الارستوقراطية منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر). واعظم الساعاً : فاحتفظت روابط الدم بكل قوتها طيلة اجيال عديدة جامعة ، حول الاكبر سناً ، الحفدة وابناء الاخوة وأبناء الاعمام . ولا يحدث البتة ان يعمل النبيل آنذاك مستقلا عن اقربائـــه ؛ وهو في الحرب واثناء المرافعة امام القضاء يحاط ابدا بـ « اصدقائه بالجسد » الذين يقدمون له المساعدة والذين يتوجب عليه مساعدتهم بالتفضيل على اعز اسياده ؛ وهو ، اذا حرم كل ثروة فردية ، حتى ولو كان متزوجـاً ولم يرزق اولاداً ، يشترك معهم في تملك ارث الجدود الذي ينظم رئيس الجماعة استثماره بمشورة الجميع. وهذا التضامن الاقتصادي الذي يلزم بالتعاون الدائم هو العامل الملزم الاول بين عوامل الوحدة العائلية . وجدير بالذكر ان قوّة الموجبات النسبية تسهم اسهاماً كبيراً في الحفاظ على النظام . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان الفارس غالباً ما يثليه انسباؤه عن تنفيذ نواياه الحربية خشية منهم من ان يجروا جرّاً الى عمل لا يوافقون عليه ؛ وفي الدرجة الثانية الى ان تأكدّ المعتدين من ان يناصبهم العداء كافة اقرباء ضحاياهم غالباً ما يحملهم على التراجع عند اعتداءاتهم المحتملة . ولذلك فان طبقة المحاربين، التي هي تجمّع ليس قوامه الافراد المنعزلين بل عدداً كبيراً من الجماعات المتشابكة نسباً وانتساباً اقطاعياً ، هي طبقة سجسة وعنيفة لعمري ، ولكنها ليست خارجة كليا على النظام .

الفلاحون

تختلف الظروف الاقتصادية في الطبقة الاخيرة من المجتمع اختلافهـــا في الطبقتين الاوليين . فبين العماليين الذين لا ينتسبون الى نخبة الفرسان ، وبين العمال الذين يحصّلون من الارض بعرق جبينهم ما يلزم لاودهم واود غيرهم ، من لا يملكون شيئا ويستعطون خبزهم على ابواب الاديرة وينطلقون الى كل جهة سعيا وراء اي عمل ممكن ويتعنون ويشقون في املاك الاسياد الواسعة تحت امرة الخـــدام المنزليين . ولكن سواد هذه الطبقة من الفلاحين الاحرار في ان يستثمروا اراضيهم العائلية على هواهم ؛ انمـا يجب ان نميز ، في عداد متعاطي اعمال الزراعة هؤلاء، بين العمال الذين يستخدمون المحراث واولئك الذين يركشون ارضهم بالمعول.

وهناك اخيراً فئة من غير النبلاء الذين لهم شركاؤهم الخصوصيون، الخدّام، والذين يعيشون حياة بطالة ؛ فهؤلاء فلاحون ورثوا ارضا أحسن استثمارها ، او عملاء الاسياد وو كلاؤهم في ادارة خدمة منزلية او ادارة قطعة ارض نائية كوفئوا بنصيب من الواردات التي يكلفون جمعها ؛ وهم من جهة ثانية على جانب كبير من اليسار ، يمتطون الجياد ويمتلكون الاقطاعـــات في غالب الاحيان وتتجاوز مواردهم موارد فرسان كثيرين، على انهم نادراً ما يدخلون (اقله في فرنسا) في طبقة النبلاء المقفلة اقفالا محكما في وجه حديثي النعمة .

بيد ان هؤلاء العمال ، بصرف النظر عن مقدار ثروتهم – وهذا ما يميز وضعهم – قد خضعوا خضوعا تاما لسيد لم يختاروه ، يحميهم ويقودهم ويعاقبهم ؛ والنظام المفروض عليهم نظام شديد يطبقه رئيس يتمتع بحق نفيهم . وينتسب عدد كبير منهم ، ممن دعوا بالفداديين في القرن الحادي عشر، وبالحرس الخاص في القرن الثاني عشر، الى رجال آخرين يزعمون ان لهم عليهم كل سلطة ؛ ويخضع الباقون منهم لسيطرة سيد الحصن في الارض التي يقيمون فيها . وسواء كانوا عمالاً في القرية او اتباعا شخصيين – وهم يتساوون في سوء المعاملة – فانهم مرغمون تجاه سيدهم بتأدية خدمات مختلفة يطلق عليها اسم « العادات » – لان مداها يحدّده العرف – او « الهدايا » احياناً ، لانهم اعتبروها تقادم تلقائية من الاتباع المحميين الى حامي السلام . فهنالك الالزامات العسكرية اولا : على الرعايا ان يؤمنوا حراسة القصر ، ويقيموا في التحصينات عند حدوث اي طارىء ، ويسيروا مشيا على الاقدام وراء الفرسان كي يؤدوا لهم بعض الخدمات ؛ وعليهم بنوع خاص الاسهام في بعض الاعمال التسخيرية كالترميم والنقل وتقديم القرطمان او الاغذية في سبيل تعهد الحصن وحمايته . وهنالك الخضوع القضائي ثانيا : فهم تابعون لسلطة محكمة السيد التي تجازيهم ، في حال الجرم ، بالاضافة الى التعويض على المعتدى عليه ، بغرامة مالية تتراوح بين ثلاث (٣) وستين (٦٠) لحاسة ، والتي ترفع قضيتهم الى السيّد نفسه اذا ارتكبوا زنى او سرقة خطيرة او جريمة قتل مقصودة . وهناك الخدمة المختلفة اخيراً : فجامعو واردات السيد الحاكم يستوفون الرسوم على الصفقات وانتقال المواد الغذائية واستخدام طاحون السيد وفرنه ومعصرته ؛ والعمال القرويون ملزمون في بعض الظروف باضافة السيد ورجاله او تقديم كمية من المواد الغذائية توازي ما تكلفه هذه الضيافة : وهذا ما يعرف بحق المأوى ؛ وهم ملزمون اخيراً « بمساعدة » حاميهم الذي يدعي لنفسه بحق مصادرة المال او المحاصيل الزراعية او كل ما ينقصه وما يريده ايضا في الغالب من منازلهم : وهذا ما يعرف بحق الاقتطاع .

ان هذه الحقوق السيدية ، المختلفة بين سيادة واخرى ، التي تنوء بثقلهـــا على كافة الرعايا بالتساوي ، سواء كانوا مالكين او مستثمرين ، وسواء كانوا احرار التصرف بشخصهم او غير احرار ، تمثل في القرن الثاني عشر ، بالنسبة للسيد ، دخلا اجـــل فائدة من كافة واردات الاملاك ؛ فاستغلال حق القيادة انما هو مـا وفر لحكام الحصون وللجمعيات الرهبانية الكبرى اهم الموارد ورفعهم الى مرتبة دونهـــا مرتبة الفرسان العاديين الذين لم يستفيدوا الا من كراء

اراضيهم . وتشكل هذه الموجبات كذلك ، بالنسبة لمن تفرض عليهم ، عبئاً دونه الفرائض العقارية ، وينطوي بعضها على المزيد من الازعاج ، لا سيما فريضة الاقتطاع التي نظر اليهـا الكثيرون نظرتهم الى السرقة ، والتي ارغمت على التظاهر بالفقر وقضت على روح التوفير انما يجب الا ننسى ان هذه « العادات » هي ثمن الضمانة والسلامة ؛ فبفضل السيد يسود النظام داخل الجماعة ؛ كما ان كل تعكير للامن يقمع بصرامة يزيد في شدّتهـا ان السيد ، وهو الحريص على احقاق الحق ، لا ينتظر شكاوى الضحايا كي يطلب تدخل عملائه . فلهذا السبب ، ولان الفلاح الخاضع للسيد الحاكم غير مرغم على تأمين الدفاع عن نفسه ، كانت الروابط العائلية في الطبقات الدنيا اقل منها وثوقاً في طبقة الاشراف . بيد ان التجمع هنا ايضاً امر مرغوب فيه لانه يتيح دفاعاً افضل ضد المطالب السيدية : فقد وقف الفلاحون تدريجياً ضـد استخدام حق النفي ، خلال القرن الحادي عشر ، في اطـار القرية ، حول المعبد ومقبرته ، وهما مكانان يحميهما سلم الرب بصورة خاصة ، وباستطاعة الفلاحين ان ينجوا فيهما من اشد اعمال العنف والمصادرات ازعاجاً — وحول الاخوية التي هي جمعية صلاة وتعـاون متبادل . وهكذا تكونت الخلية الاساسية في المجتمع الريفي ، اعني بها الجماعة القروية ، اي جمعية عمل يتمتع اعضاؤها بممتلكات وحقوق عرفية جماعية ويتفقون على تنظيم استثمار الارض وعلى جمع القطيع المشترك في الاراضي البائرة وعلى تنظيم الدورات الزراعية — وجمعية دفاع ايضاً تحافظ على « العادة » ، وتعارض استحداثات السيد ، وتتوصل احياناً ، في القرن الثاني عشر ، الى حمل هـذا الاخير على تخفيف نظام النفي .

هذا هو ، بخطوطه الكبرى ، نظام المجتمع الاقطاعي . اجل ، ان هذه اللوحة الاجمالية ، التي تنطبق على مملكة فرنسا ، قد لا تنطبق جملة على كل مجتمع اقطاعي ، لان اوروبا متنوعـة المناطق والسكان . فالانظمة الاقطاعية ، في المناطق الجنوبية مثلاً ، اقل رسوخاً الى حد بعيد ؛ وفي المانيا ، ابقى استمرار السلطة الملكية ، الى جانب نظـام الاقطاع « *Lehnrecht* » الذي ينظم العلائق الناجمة عن الاقطاعة ، على القانون البلدي العقاري « *Landrecht* » ، الذي يمكن تطبيقه على كافة الرجال الاحرار ، نبلاء كانوا ام فلاحين ؛ وقد جهلت بعض المناطق الاخرى ، كمنطقة الفريز ، مثلاً ، حكم السيد والاقطاع ؛ اضف الى ذلك اخيراً ان قيام العلائق السياسية والاجتماعية في البلدان الشمالية التي دخلتهـا النصرانية ، اي الجزر البريطانية وسكندينافيا والساكس ، لم يتحقق الا بتأخر زمني محسوس : وهكذا فقـد تألفت معظم فرق الفرسان الانكلو نورمندية ، حتى السنة ١١٠٠ ، من مغامرين فقراء لا يملكون فتراً من الارض ، دخلوا الخدمة جنوداً منزليين يعيشون على طاولة اسيادهم ، ولم تصبح ارستوقراطية اقطاعية الا ببطء وبعد مرور زمن طويل .

وعلى الرغم من ذلك فقد ارتكز التنظيم الاجتماعي ، بصورة عامة ، الى تحديد النشاطات : فهنالك نخبتان ، اسندت الى احداهما الوظائف الروحية والى الاخرى المهـام العسكرية ،

بتعهدها عمل جمهور الفلاحين . لذلك كان مستوى حياة رجال الكنيسة والفرسان رهن انتاج العمل الريفي ؛ وما زال هذا الاخير ، في منتصف القرن العاشر ، انتاجاً هزيلاً يكاد لا يكفي لاعالة رجال الاكليروس والنبلاء ؛ فاذا مـــا ارتفع ، وزادت المحاصيل الزراعية ، استطاع المخصصون للصلاة والحرب الحصول على نصيب اوفر من الثروة والتصرف به لرفاهيتهم والنفقات البذخية ومشاريع الفتوحات النائية والابحـــاث الفنية والفكرية . ويلفت النظر ان يقظة النشاطات الريفية تبرز بالضبط حوالي السنة ١٠٠٠ التي كانت منطلقاً للحضارة الغربية .

٢ ـ النمو الاقتصادي

ان استئناف النشاط الاقتصادي الذي لاحت دلائله منذ العهد الكارولنجي قد برز بصورة حاسمة ، في اوروبا ، حوالي السنة ٩٥٠ ، بعد ان حالت دونه ، طيلة قرن ونيف ، الغزوات النورمندية والاسلامية والهنغارية . في هذه الفترة ، كما يبدو ، اي في العقود القليلة التي سبقت السنة ١٠٠٠ ، انتشرت بسرعة في الارياف المسيحية ، التي اعيد تعميرها ، عدّة اكتشافـــات تقنية ذات نتائج عظيمة جداً . اجل كانت هذه الاكتشافات قديمة العهد ، ولكن تطبيقها في الغرب قد بقي محدوداً حتى ذاك التاريخ . يتعذر في الحقيقة تتبع هذا الانتشار لان الادلة المباشرة ، واعني بها آثار الادوات او رسومها ، نادرة جداً ويصعب تحديد تواريخها ، ولان النصوص لا تنطوي الا على القليل القليل من المعلومات . ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بان الانطلاقة الكبرى في الغرب ترتبط آنذاك ارتباطاً وثيقاً بتبدل اساسي في الطرائق الزراعية ، اي بثورة حقيقية بطيئة اتاحت انتاج مزيد من المواد الغذائية بجهد اقل منه في السابق ، فقلبت ظروف الحياة الاقتصادية رأساً على عقب .

التحسينات التقنية

ان هذا التبدّل على جانب كبير من التعقيد ويتناول شتى عناصر الطرائق الزراعية ؛ بيد انه يجدر بنا ، في سبيل توضيحه ، ان نعزل التحسينات المختلفة التي تترابط في الواقع ترابطاً وثيقاً وتتداخل تداخلا مستغلقاً . يقوم التحسين الاول في استخدام قوّة المياه الجارية استخداماً افضل : فيبدو ثابتاً ، منذ القرن العاشر ، ان مجاري المياه قد نظمت وحولت مياهها الى اقنية وخزانات وشلالات معدّة لتحريك مطاحن الحبوب ومعاصر الزيوت . فاغنت المطاحن المـائية عن الهاوين والمطاحن اليدوية ، ورفعت عن اليد العاملة المنزلية عبء تحضير الحبوب الذي كان عملا شاقاً جداً ، واتاحت لهـــا الانصراف الى مهام اخرى اعظم انتاجاً . وفي الوقت الذي استخدم فيه الناس الطاقة المائية توصلوا الى استخدام قوة الجرّ الحيوانية استخداماً افضل ايضاً : فقد ظهر وانتشر في الوقت نفسه تحسين عظيم في اساليب قرن الحيوانات ؛ فاستعيض بالطوق الصلب عن لبّب الحصان الرهل الذي كان يخنق الحيوان وينقص قوته انقاصاً

محسوساً ؛ اما نير الثور الذي احكم صنعه وفاقاً لقوى الحيوان الفاعلة ، فقد نقل من الكاثبة الى القرون. ويرتبط بهذه التقدمات الاولى تحسّن في الادوات : فقد استعيض، في المذراة والمجرفة، عن الخشب بالحديد ، فغدت الاداة اعظم فائدة ؛ واخذ الناس يستخدمون المسلفة ؛ واستطاعوا بصورة خاصة ربط آلات زراعية اعظم طاقة الى دواب مقرونة ازدادت قوتها . فقد انتشر آنذاك في كافة مناطق اوروبا الشمالية،وفي كافة الاراضي المخصبة التي لا يخشى ان تتضرر بالحراثة العميقة ، استخدام المحراث الكبير الثقيل ذي العجلات والمقلب ؛ اما المحراث الخشبي القديم ، الذي لا يقلب الا وجه الارض ، فقد خصص تدريجياً بالاراضي الخضاضة الجافة .

قلبت الارض قلباً افضل وهوّيت تهوية احسن ، واستفادت ايضاً من تقدم طرق اخصابها ، واصلاحها بالسجّيل، وهي طريقة انتشرت في غربي فرنسا، وربّيها الذي اعتمد على نطاق واسع في لومبارديا منذ اوائل القرن الثاني عشر ؛ فتحسن من ثم انتاج العمل الزراعي وحدثت اخيراً ثورة في تحديد مواعيد زرع الحبوب المختلفة ، فحلّت تدريجياً محل نظام الدورة الرومانية التي تتجدّد كل سنتين ، ومحل طرائق بدائية اقل انتاجاً ، كالزراعة المتنقلة او المؤقتة ، او زراعة الارض المحرقة ، الدورة التي تتجدد كل ثلاث سنوات ؛ اجل لقد جرى هذا التبدّل بكل بطء (اذ ان الطرائق الجديدة قد ادخلت ، كما يبدو ، في العهد الكارولنجي وفي الاراضي الملكية والرهبانية الواسعة) ولن يكون الا جزئياً ، ولكنه بشكل تقدماً حاسماً . فقد سمحت هذه التقنية بزراعة الارض سنتين من اصل ثلاث بدلاً من سنة من اصل سنتين وحققت زيادة في انتاج المواد الغذائية تعادل نصف الانتاج السابق على الاقل ، وانتشر مع الدورة الجديدة استعمال القرطمان الذي آثره الفلاحون على الشعير . فقد استخدم في اغلب الاحيان حساء لتغذية الانسان ؛ كما استخدم لتغذية الماشية جزئياً ايضاً فاسهم في رفع عددها وتحسين نوعها. وانتشرت بصورة خاصة تربية الخيول ؛ وكان لهذه الظاهرة الرئيسية ، التي غدت اساس تبدل كلي في اساليب الحرب ، ووجهت من ثم تطور الارستوقراطية الغربية ، صداها البعيد في الاقتصاد الريفي : فمنذ اواخر القرن الحادي عشر اخذ الحصان يقوم مقام ثور الفلاحة لانه يفوقه سرعة في الحركة ويساعد ، بحراثة الارض مراراً متعددة ، على زيادة الانتاج ، مع ان تعهده اعظم اكلافاً . تلك هي الاستحداثات التقنية الهامة . ولنشر ايضاً الى انها استخدمت ببطء ايضاً ، في اهم المشاريع الزراعية اولاً ، وان مركز انتشارها كان ، على ما يبدو ، السهول الغرينية الكبرى في المقاطعات الفرنجية القديمة بين نهري اللوار والرين ، وانها لم تدخل فعلاً ، خلال القرون الوسطى ، سوى ارياف جنوبي انكلترا وفرنسا والمانيا الشمالية ؛ اما جنوبي فرنسا فقد حافظ، لاسباب مناخية بحتة ، على العادات القديمة ، اي على المحراث القديم وزراعة الارض دورياً كل سنتين .

الانتاج والسكان

احدثت هذه الثورة التقنية تجدداً كلّياً في الحياة الريفية . فجاءت الحصائد ، في كافة المشاريع الزراعية ، وبالجهود نفسه ، اهم منها في

السابق الى حد بعيد . ولم يعد للسيد من حاجة ، بغية زراعة القطع الكبرى الصالحة للحراثة في اراضيه الاحتياطية ، لذاك الجيش اللجب من المسخرين : اذ ان بعض الافراد يكفون للقيام باعمالهم . فهو بالتالي لا يستدعي الآخرين بل يتفق معهم على ان يدفعوا له ، عوضاً عن هـــذه الخدمة ، بعض المال او محصولات زراعية . وهكذا زالت تدريجياً معظم اعمـــال التسخير التي فرضت في املاك الاسياد خـــلال العهد الكارولنجي . ففي السنة ١١١٧ مثلاً ، ابدلت بزمم نقدي ايام العمل الثلاثة المفروضة اسبوعياً للسيد على بعض مزارعي دير « مار موتيه » الالزاسي. الا ان هذا الطراز نفسه من الاعمال التسخيرية قد استمر حتى منتصف القرن الثالث عشر في بعض املاك الاسياد من المنطقة الباريسية . ومع ذلك فقـد توقف شيئاً فشيئاً اسهام المشاريع الزراعية التابعة للسيد في استثمار الاراضي الاحتياطية ، باستثناء بعض الايام التي تحددهـــا روزنامة الفلاح والتي توافق نبت المزروعات ، وخلال مرحلة الحراثة بنوع خاص . ثم ان ابدال الخدمات القديمة بالاتاوات ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن التقنيات ، قـــد درّ على سيد الارض موارد اضافية : اتاوات عينية تؤمن له تموين بيته وتتيح له انقاص مساحة اراضيه الاحتياطية وتأجير قسم منهـــا وزيادة عدد المزارعين ومن ثم زيادة الارباح ، واتاوات نقدية تتيح له شراء مزيد من الاراضي . ففدا السيد ، والحالة هذه ، اقل ارتباطاً بارضه ؛ واحتل الدخل الدائم في ايراداته مكاناً متزايد الاهمية ؛ واخذت مشاريع الاعمال الزراعية ، في امـلاك السيد ، تنفتح شيئاً فشيئاً على الخارج .

اما في الاراضي التي يستثمرها الفلاحون ، فقد اتاح تزايد انتاج ادوات العمـــل وتناقص اعمال التسخير التي استأثرت دوريا في الماضي بقسم من اليد العاملة المنزلية ، الحصول من الارض على حصائد اوفر . اجل ، لقد توجب عليهم تسليم او بيع بعض هذه الحصائد لتسديد الاتاوات التي تقوم مقام الخدمات القديمة او لتلبية مطالب السيد الجديدة . بيـــد انهم يحتفظون بفائض كاف لتأمين تغذية أفضل لعائلاتهم التي تنعم ببعض اليسار في ارض زاد جنيها دون ان تزيد مساحتها : فكان هذا دواء ناجعاً لمعالجة سوء التغذية المزمن ، الذي ثقلت وطأته منذ قرون على العالم الريفي ، ورفع نسبة الوفيات بين الاطفال وحال دون ازدياد عدد السكان. ففقدت المجاعات نادرة بعد السنة ١٠٠٠ وانتهت الى الزوال ، بينما اخذ عدد سكان البلدان الغربية يزداد باطراد. يتعذر لعمري تحديد اهمية هـــذه الظاهرة بسبب افتقارنا الى الاحصاءات الدقيقة ، ولكننا نستطيع ، على الرغم من ذلك ، ملاحظة مداها الهام : فبحسب احد التقديرات المقبولة النادرة جداً ، ارتفع عـــدد سكان انكلترا من ١١٠٠٠٠٠ في السنة ١٠٨٦ الى ٣٧٠٠٠٠٠ في السنة ١٣٤٨ ؛ واذا ما اعتبرنا ان ارتفاع عدد السكان قد سبق العقود الاخيرة من القرن الحادي عشر بزمن بعيد ، جاز لنا القول بان عدد سكان اوروبا الغربية قد ازداد ، خلال القرون الثلاثة التي عقبت السنة ١٠٠٠ ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كان عليه قبل هذه السنة .

يتميز هذا الارتفاع ، في بدايته ، بارتفاع كثافة السكان في الاراضي الزراعية القديمة اولاً :

فالمساحة نفسها من هذه الاراضي قد تؤمن الغذاء ، دون جهد يذكر ، لعدد اكبر من الناس ؛ كما ان نصف او ربع الارض العائلية القديمة يكفي اليوم لتغذية عائلة من المزارعين ، لذلك فقد تقسمت الاراضي التي يستثمرها الفلاحون جزأين او اربعة اجزاء ، فارتفع ، بالفعل نفسه ، عدد المساكن والسكان في القرية . ولكن ارتفاع كثافة السكان قد رافقه بسرعة توسع الاراضي المزروعة على حساب المساحات المهملة ، لانها كانت ، بسبب وضع التقنية ، اما قليلة الانتاج واما صعبة المعاملة . وهناك ثلاثة وقائع متوافقة كانت منطلقاً لنهضة احياء الارض الكبرى التي ابتدأت ، وفاقاً لمناطق النصرانية ، ما بين السنتين ٩٥٠ و ١١٠٠ : استخدام وسائل جرّ وادوات حراثة اقوى من ذي قبل قادرة على استئصال الارومات العميقة وقلب الاراضي الكثيرة الاتربة التي برهن المحراث القديم حتى اليوم عن عدم جدواه فيها ، وفائض اليد العاملة التي حررها اعتماد الطرق الزراعية الفعالة ، وارتفاع عدد الولادات التي يقابلها نقصان الوفيات بين الاطفال .

احياء الاراضي

اسهم الفلاحون والاسياد العقاريون في هذه المشاريع المعدّة لتحويل الاحراج والمستنقعات ، شيئاً فشيئاً ، الى اراض منتجة . وغالبا ما سبق الفلاحون الاسياد الى النهوض بهذا العمل ، لان استثمار الاراضي القديمة الصالحة للزراعة يتطلب جهداً اقل منه في السابق : فبعد ان ينهي رب العائلة اعمال الحراثة يبقى امامه متسع من الوقت لاصلاح الاراضي البائرة المتاخمة لحقوله ، فيتاح له بذلك توسيع املاكه تدريجياً ، فيقوم في فصل الشتاء باحراق الاشجار الصغيرة وقطع الاشجار الكبيرة واستئصال الجذور ، وتصبح هذه الارض في الربيع مرجاً اخضر يمكن في السنة التالية حراثته وبذره ، وبعد ذلك غرس جفون الكرمة فيه ؛ واذا كانت الارض تعود لسيد يقظ ، فانه يفرض اتاوة على من اصلحها ، والا طالب الفلاح بضمها الى ارضه الوراثية . وهكذا ، بفضل هذا التقدم البطيء الذي أحرز على كافة تخوم المقاطعة ، اتسعت الارض المزروعة سنة بعد سنة . وما لبثت الحقول الجديدة ان باتت نائية عن القرية ، فاقام الذين اصلحوها مساكنهم فيها ، وهكذا برزت عند حدود المقاطعة مساكن متناثرة ، وغالبا ما وجد مصلحو الاراضي انفسهم وجهاً لوجه امام غيرهم ممن اتى من القرى المجاورة ، فغدت الاراضي البائرة ، التي كانت ، فيما مضى ، تعزل القرى عزلاً تاماً ، رقعاً متشتتة مجدبة جداً . اضف الى ذلك ان ابناء الفلاحين ، حين يبلغون اشدّهم ، لا يتوفقون جميعهم الى العمل في املاك آبائهم ، فيضطر بعضهم الى البحث عن الثروة في غير مكان ، ويتوجه من لا يذهب منهم نحو المدن ، او من لا ينضم الى جمهور الاخوة المساعدين في الاديرة الجديدة ، الى الاسياد ذوي الاملاك الحرجية الواسعة حيث يقيمون مع بعض رفاقهم ويكوّنون في قلب الاحراج ارضاً زراعية جديدة ، بعد اعتماد الزراعة المؤقتة على الارض المحرقة : هؤلاء هم « الضيوف » وقد ثبت الدليل على وجودهم في كافة المساحات المهملة التي الفت كلها في العهد الكارولنجي جزراً مقفرة بين الواحات الآهلة بالسكان .

اما الاسياد العقاريون فقد حدث لهم ان وسعوا استثمارهم المباشر ، كما حدث لهم ، بغية الاستفادة الى اقصى حدود الاستفادة من عمالهم المنزليين الذين اصبح لديهم متسع من الوقت ، ومن اعمال تسخير المزارعين التي لم تستبدل بالاتاوات ، ان اقدموا على زراعة بعض اقسام اراضيهم الاحتياطية المتروكة مراعي او احراجاً . بيد ان معظم الاسياد سعوا في الدرجة الاولى وراء زيادة دخلهم الدائم والاكثار بالتالي من المشاركات الزراعية. فقدموا لطالبي الاراضي من الفتيان قطعاً بكراً وطلبوا اليهم استثمارها ، وغالبا ما امنوا لهم ، رغبة في استمالتهم ، الادوات وحيوانات الجر والمال اللازم لمباشرة العمل ، ورفعوا عنهم ، بصورة عامة ، الاتاوات المزعجة ، وتعهدوا لهم بعدم استيفاء ضريبة القطع التعسفية وبتحصيل الضرائب الاخرى بنسبة مقبولة : فكان على المزارع ، بعد ان يحصل على الضمانات التي تقيه مخاوف الخسارة في السنوات الاولى ، ان يقدم للسيد قسماً من حصائده يتراوح بحسب المناطق بين ١/٤ و ١/١٢ ، بالاضافة الى البدل الضئيل الذي يدفعه لقاء اقامته في البيت الذي يشغله . كانت هذه الشروط مغرية ، وقد اذيع خبر حسناتها في المناطق البعيدة احياناً فافضت الى تنقلات السكان مسافات بعيدة ، من المناطق المأهولة قديماً والكثيفة السكان الى القطاعات الزراعية المستحدثة ، كالتنقلات التي جرت في اوائل القرن الثاني عشر مثلاً وانتهت بسكان سنتونج ، الى مناطق مصب نهر الغارون ، او بالفلمنك ، الى مستنقعات سواحل البحر الشمالي بين نهري الفيزر ، والإلب .

كانت نتيجة هذا الاستعمار الزراعي النشيط تبدلاً سريعاً في منظر الارياف الغربية . فتناقصت المساحات المجدبة المهملة في كافة الاراضي السيّدية ؛ وقد بلغ من هذا التناقص احياناً ان اختل توازن الاقتصاد القروي ، حين لم يبق سوى القليل القليل من القطع المحرجة التي توفر ، بالاضافة الى خشب التدفئة ومختلف الحصائد ، المادة الخام لمعظم المصنوعات القروية والبلوط لتغذية الخنازير ، وتؤلف احد العناصر الاساسية في النظام الزراعي — او من تلك المراعي والاراضي الهادرة التي لا مناص منها لتغذية المواشي بسبب ندرة المروج وفقدان زراعات الكلأ . وتجزأت الاحراج الكبرى التي تخللتها الفسح الجديدة ، وبرزت « الارياف » وقامت القرى الكبيرة ذات التخطيط المنتظم في « السهول » المفتوحة ، حين كان اصلاح الارض جماعياً ، اما « الغابة الظليلة » فقد قسّمت غابات صغيرة قامت بينها المشاريع الزراعية التي انتثرت في وسط البراحات ، حين استثمر الاراضي السيدية مستعمرون منفردون . وكذلك نمت الزراعات اخيراً على جنبات السواحل الرسوبية وفي مستنقعات الوديان على ضفاف الانهار الكبرى ؛ فالحرب هنا لم تعلن على الشجرة بل على الماء ، وقد اوجب الفتح ، المستند الى شبكة من السدود ، تدبيراً جماعياً لتصريف المياه يكفله نظام جماعي شديد ، للعناية بجهاز الوقاية. فتزايدت في كل مكان الاراضي التي تنتج الحبوب ؛ وقد بلغت هذه الزيادة ذروتها في منتصف القرن الثاني عشر ؛ وجاءت اعمال احياء الارض ، التي انضمت نتائجها الى نتائج التقدم التقني ، تزيد في حجم المواد الغذائية وتتيح ارتفاع كثافة السكان .

انتقال الممتلكات والسكان

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الازدياد في مواد الاستهلاك وعـــدد السكان نمواً في حركة المقايضـــات . في السنة ١٠٠٠ ، تمثلت طبقة « العمال » تمثلاً شبه حصري بفلاحين عندوا في الحصول ، من اعمالهم الزراعية ، على مـا يؤمن معيشتهم ويسد حاجـــات الفرسان والاكليروس الضرورية ؛ وباستثناء حالات نادرة ، جرى انتقال الثروة ، عن طريق الاتاوات ، داخـــل الاراضي الخاضعة للسيد التي هي شبه مقفلة . ولكن تحسن انتاج العمل الزراعي قد افضى شيئاً فشيئاً ، بفعـــل تزايد المشاركات وارتفاع الارباح من الرسوم النسبية المفروضة على الحصائد ، وربما بفعل ارتفاع قيمة الاعشار الكنائسية بنوع خاص ، الى تزايد محسوس في موارد الاسياد : ممـــا حدا باعضاء الطبقات العليا الى رفع مستواهم المعيشي وعـدم الاكتفاء بالمواد الغذائية الضرورية لاودهم . واتاحت الظاهرة نفسها ، لعدد متزايد الارتفاع من العمال ، الانصراف عن الارض الى نشاطات غير زراعية بالضرورة ، والقيام باعمـــال جديدة ، كالصناعة اليدوية او التجارة ، تلبية لطلب الاغنياء . وقد تأمنت المواد الغذائية الضرورية لهؤلاء الاختصاصيين من فائض انتاج الاستثمارات الريفيـة ؛ الا انهم اضطروا لشرائها بمالهم ؛ فتعددت من ثم المقايضات خارج اطار الاراضي الخاضعة للاسياد ، واتصفت العلائق الاقتصادية بالانفتاح والمرونة ، وخضع انتقـــال الثروات لحركة حثيثة . فكانت النتيجة الطبيعية ان النقد احتل مركزاً اعظم اهمية في الحياة اليومية ، ومست الحاجة للدراهم ؛ فاعيدت الى التداول تدريجياً المعادن الثمينة المجمدة في خزائن الصاغة ؛ ولكن ذلك لم يكن كافياً ، فضربت في مصانع النقد قطع اخف وزناً وعيـــاراً ؛ فعمت النقود وفقدت في الوقت نفسه بعض قيمتها ولا سيما قيمتها الشرائية وغدت من ثم اسهل تداولاً وامكن استخدامها آنذاك لتأمين عمليات الشراء اليومية . وكانت النتيجة الاخيرة للتوسع الاقتصادي ارتفاعاً بطيئاً ومستمراً في الاسعار : وبامكاننا تقدير مدى هذا الارتفاع متى علمنا ان ثمن الحبوب ، في احدى مناطق فرنسا ، سيصبح في اواخر القرن الثالث عشر اعلى منه في السنة ١١٠٠ بعشرين ضعفاً .

وقد لفت انتباه المعاصرين ، بعيد السنة ١٠٠٠ ، بين كافة مظاهر النهضة العامة في العلائق بين السكان ، كثرة الاسفار وتعددها والحركة الناشطة المفاجئة على الطرقات . فقد سهل التنقلَ احيـــاءُ الاراضي الذي قلل من العراقيل الطبيعية (الاحراج الواسعة ومستنقعات الوديان) واسهم من ثم في تقريب المسافات بين الجماعات البشرية . بيد ان تقنيات هذا التنقل مـــا زالت بدائيه : فليست العربات متوفرة بعد ، والانهار والبحر هما للجميع اسهل الطرقات والوسيلة الوحيدة لنقل الاحمال الثقيلة ؛ اما في البر فينقل المشاة والدواب ، في الاكياس او على الاجلال ، مواد غذائية خفيفة الوزن وغالية الثمن بكميات صغيرة جداً ، الا انهم يسلكون طرقاً مختصرة غير محددة قد تفرضها هنا وهناك بعض نقاط المرور الاضطراري كالجاز او الجسر او المخاضة ، والاديرة وبيوت الرب المشيدة حديثاً التي تؤاوي الضيوف مجاناً .

على الرغم من بطء المسير ومشاق الطريق واخطارها ، كثيرون هم ، في القرون الاقطاعية ،

الذين يهجرون عائلتهم او جماعتهم ويقومون بالاسفار : رجال او نساء ، اكليروس او رهبان فرسان او اناس من الطبقات الدنيا . فالسفر هو اعظم لهو آنذاك ، وافضل وسيلة لرجل الدرس والبحث كي يزيد معارفه ويطلع على كتب اخرى او يخالط معلمين آخرين ، ولغير الابكار من الابناء كي ينجوا من وصاية النسب المملة . ولعل المكوث في مكان واحد اقسى واجب يصعب على الرهبان احترامه . فكل حجة للتنقل مستحسنة ، وغالباً ما يكون الحج مناسبة للسفر . وتأتي حينذاك في رأس الممارسات التقوية زيارة بعض الاماكن المقدسة – وهي عـــادة وثيقة الارتباط بعبادة الذخائر : والمقصود هو الاقتراب بالجسد من بعض الحاجيات التي تشع بنعم فائقة الطبيعة منذ ان لامستها في الماضي اجسام القديسين . وغالبا ما تكون هذه الزيارة كفارة تطهر من الخطايا المميتة ، ووسيلة ايضاً للحصول على مساعدات فورية ، ولشفـــاء الجسد من الامراض ، ولاستمالة القوى الروحية . وهكذا فان الرجال يحتشدون في بعض التواريخ حول بعض المعابد العجائبية (وقد سبق ورأينا ان الحرص على اعداد الكنائس لاستقبال هـذه الجماهير هو في الاساس من تحويرات التصميم والتجديدات الهندسية قبل القرن التاسع) ؛ ومنذ السنة ١٠٠٠ أتسعت حركة الحج الروحي هذه ، فاختار القسم الاكبر من الحجاج آنذاك ، هدفاً لزياراتهم ، اما روما ، واما اورشليم والاماكن المقدسة في فلسطين ، واما مدفن القديس يعقوب في كومبوستيل .

لم يكن هؤلاء المسافرون ، الذين يسيرون على مهل ، لينقلوا مؤنا غذائية تكفيهم طيلة سفرهم ؛ ولم يكن بمكنتهم كذلك الاعتماد ابداً على الضيافة المجانية في المؤسسات الخيرية ؛ فحملوا من ثم نقوداً كي يدفعوا في طريقهم اكلاف مأواهم وغذائهم وغذاء دوابهم ونقلهم بحراً . وسلموا هذه النقود لبائعي المحاصيل الزراعية ، واصحاب الفنادق المقيمين على جنبات الطرق ، واللحامين ، والخبازين ، الذين اخذوا آنذاك يقيمون باعداد متزايدة في امكنة التوقف ويجمعون ثروات طائلة ، كما تؤيد ذلك المستندات . فانفتحت من ثم امـــام المستثمرين الزراعيين اسواق جديدة بفضل حركة التنقل المتزايدة : فغدا باستطاعة الفلاحين تصريف قسم من فائض حصائدهم ، وانتشرت النقود في الاوساط الريفية .

بيد ان المزارعين الصغار لم يستفيدوا في الحقيقة استفادة كبرى من هذه الاموال ؛ فان القسم الاكبر من حصيلة مبيعاتهم قد عاد الى خزائن الاسياد الذين وفقوا قوانينهم الجبائية لاتساع حركة التداول النقدي ، باحلال الاتاوات النقدية او العينية محل الخدمات القديمة ، وبالاكثار من الموجبات ورسوم القطع . وانتهت النقود التي انتشرت بواسطـة المسافرين الى الاسياد (الذين قاموا مباشرة احياناً بمقايضة فائض مواردهم ، ولا سيما موجودات اهراء جمع الاعشار القائمـة على مقربة من الطرق الكبرى ، بالمواد الغذائية) فكان حكام الحصون وافراد المؤسسات الدينية ، الذين يجبون رسوم القطع الهامة والغرامات القضائية الطائلة الارباح ، اول من استفاد من هذه

الحركة . فبات باستطاعة اعضاء الارستوقراطية الكنائسية والعلمانية ادخال زيادة محسوسة على نفقاتهم . واستخدم رجال الكنيسة بنوع خاص مواردهم النقدية الجديدة لتجميل المعابد : فشيدوا بدراهمهم ابنية جديدة واسسوا مصانع نقاشة واشتروا للمواهف حللاً كهنوتية جديدة؛ وان هناك لصلة وثيقة بين الازدهار الفني في اواخر القرن التاسع ونمو صناعات التخصص ، ولا سيما صناعة النقاشة ، وبين نهضة الاقتصاد النقدي .

اما الفرسان فقد ضحوا بامكاناتهم المالية على مذبح رغبتهم في الظهور ، وفي التألق في الجمعيات العالمية ، وهي من ملاذ النبلاء الاولى . فما عادوا يقنعون بنتاج املاكهم والصناعة المنزلية ، بل تعودوا البذخ : بذخ المائدة ، الذي حمل على تقديم الاصناف النادرة للضيوف ، والنبيذ في المناطق الشمالية ، والتوابل في كل مكان ؛ وبذخ الزينة الذي حمل على اهمال المنسوجات المبتذلة واقتناء الفراء والاقمشة الاجنبية الثمينة والاجواخ ذات الالوان النادرة . اضف الى ذلك ان الميل الى المصنوعات المستوردة الجميلة ، الذي لم يخب في يوم من الايام والذي حافظ على حركة تجارة طويلة المسافات في عهود الانكماش الاقتصادي ، قد زاد بصورة مفاجئة واحدث توسعاً جديداً في تجارة المواد البذخية . وبينما تزايد شراء المصنوعات الشرقية الذي قابله تزايد في التصدير الى البلدان الاسلامية ، نشط ، داخل العالم الغربي ، انتاج ومقايضة بعض السلع الثمينة : تجارة الخمور بين مناطق السين والواز ، التي قامت فيها اقصى الكروم الشمالية ، وضفاف اللوار ، وسواحل الاطلسي ، وبين انكلترا وهولندا ؛ وانتشار الاجواخ الممتازة المنسوجة والمصبوغة في مدن مقاطعتي « الارتوا » وفلاندر ، فنشطت بذلك حركة انتقال البضائع في الوقت الذي نشطت فيه حركة تنقل الحجاج . ومن المستحدثات التي تثبت الاتساع المطرد في النقل التجاري ان حكام الحصون ، وقد اغرتهم المصنوعات الثمينة التي تمر تحت حمايتهم في الاراضي الخاضعة لسلطتهم ، فرضوا ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، رسوماً جديدة تناولت سلع الترانزيت ، واضيفت الى الرسوم القديمة المفروضة على عرض هذه السلع في الاسواق . وتألفت داخل طبقة العمال طبقة اقتصادية بلغ من اهمية عددها في اوائل القرن الحادي عشر انها كانت موضوع شروط خاصة في ايمان سلم الرب ، وقد تمت باطراد ضامة اولئك الذين يؤمنون لاعضاء الطبقات العليا المصنوعات البذخية التي يطلبونها : اعني بها طبقة التجار .

التجار

كان بين اختصاصيي التجارة بعض افراد الجماعات الاسرائيلية في المدن القديمة التي تخلفت في اوروبا ، خلال مرحلة التقهقر الاقتصادي ، مستعمرات التجار الشرقيين القدماء واسهمت ، كما هو طبيعي ، في اتساع حركة المقايضات . بيد ان المسيحيين الذين اخذا يجنون الارباح من الاعمال التجارية قد ارتفع عددهم باطراد : الوكلاء الذين اسند اليهم سيدهم مهام تجارية فعقدوا في الوقت نفسه بعض الصفقات لحسابهم الخاص وانتهوا الى الاستعفاء من وظائفهم الاولى ؛ وبعض العاملين في الطرقات والانهار الذين وظفوا في التجارة الاموال الاولى

التي جنوها من خدمة المسافرين ؛ وبعض ابناء الفلاحين الذين اضطروا للنزوح عن املاك عائلية ضاقت بسكانها وآثروا المغامرة بتعاطي التجـارة الصغرى على العمل الشاق في احياء الاراضي . كل هؤلاء كانوا تجاراً متجولين . والمجال لم ينفسح بعد امامهم حتى يستطيعوا انتظـار الزبن في بيوتهم ويستحضروا البضائع من الاماكن النائية دون ان يكلفوا انفسهم مشقة الانتقال: فالبحث عن البضائع حيث تكون وافرة ومعتدلة الاسعار، ونقلها وعرضها على من يمكنه شراؤها باسعار مرتفعة ، والاسراع ، في مكان البيع ، الى شراء السلعة الموافقة التي يمكن بيعها في غير مكان ، والانتقال بعد ذلك الى مكان بعيد آخر ، تلك كانت حال تاجر ذاك العهد ، وهي شبيهة كل الشبه بحال البائع المتجوّل ؛ وطابعها المميز هو الحركة ، التي اشار اليها المعاصرون ، بحيث ان تسمية المحاكم الناظرة في الخلافات التجارية الصغرى بـ « محاكم الاقدام المغبرّة » قد استمرت في انكلترا النورمندية زمناً طويلاً بعد ذاك العهد .

كان هذا النشاط في الحقيقة جزيل الفائدة ، ويبدو ان عدد التجار الذين اثروا بسرعة كان كبيراً جدّاً، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الكراهية الدائمة التي استهدفت المهنة التجارية وسوء نية التجار الذين كانوا، في شيخوختهم ، يقدمون للكنائس والفقراء كميات ضخمة من الفضة والذهب كفارة عن الخطايا التي ارتكبوها ، بحكم تجارتهم ، ضد محبة القريب : فهذا « بنتلكون » ، احد سكان أمالفي ، الذي توفي في السنة ١٠٧١ ، قد وهب كنيسة القديس بولس القائمة خارج الاسوار في روما ابوابـاً برونزية طلبها من بيزنطية ، وشيّد كنيسة القديس ميخائيل في جبل غارغانو وجهّز وتعهد بعض المستشفيات في انطاكية واورشليم .

غير ان حياةالتاجر محفوفة بالاخطار ايضاً: اذ عليه الدفاع عن امواله في الاسفار ، ومقاومة جباة رسوم الترانزيت الذين يحاولون ان يأخذوا منه كل ما لديه من اموال ، وتحصيل اثمان بضائعه من الزبن النبلاء ؛ وعليه ان يكون شجاعاً ويحتاط للخطر بحمل السلاح ؛ وغالباً مـا يتشاركالتجار وينظمون القوافل كي يواجهوا الاخطار بقوة. اضف الى ذلك ان للتكتل حسنات اخرى : فكل تاجر يستفيد من خبرة رفاقه ، ويحدث ان توحد الرساميل احياناً ، فيتاح للتجار عقد صفقات اوفر كسباً .. في البدء كانت هذه الشركات ، التي حملت اسماء مختلفة ، مؤقتة ومؤسسة لرحلة واحدة ، ثم ضمت ، بصورة قانونية ، وفي جماعة دائمة ومنضبطة نظمت تنقلاتها في مواعيد معينة وحدد خطّ سيرها سلفاً ، كبارَ التجار في منطقة واحدة ، وناقلي البضائع في نهر واحد ، والمتوجهين الى مركز تجاري واحد . يلتقي التجـار على اختلاف مناطقهم ، سواء كانوا منفردين او منخرطين في هذه التكتلات المهنية لمقايضة سلعهم في نقـاط تقاطع طرقات التجارة الرئيسية، في اجتماعات تجارية كبرى؛ فان سوق العرض، وهي مركز سلم خاص في كنف سيد المنطقة الذي يعد لفترة من الزمن ، لقاء رسم طفيف ، بحرية المعاملات التجارية. وتوفير الحماية للجميع ، جهاز اساسي للتجارة المتجولة ؛ اما المدينة ، وهي مأوى الاستراحة بين مرحلة انتقال واخرى ، فجهاز اساسي آخر . فالحاجة ملحة الى مستودعات يقضي فيها التجار

اشهر فصل الامطار القاسية بانتظار فصل القوافل واسواق العرض. ولذلك فان حركة المقايضات التجارية وحركة التنقل على الطرقات قد احدثتا نهضة في الحياة المدنية في الغرب .

نهضة الحياة المدنية

ان المجموعات السكنية الجديدة ، اي « الضيع الكبرى » – هذا هو الاسم الذي اطلق عليها آنذاك ، وغالباً ماوصفت بـ « الجديدة » للايضاح – نشأت ونمت في موقع مناسب للانتقال ، لأن المدينة مكان اتصال ، وللدفاع ايضاً ، لان في المدينة ثروات يجب الدفاع عنها . فقامت من ثم ، على وجه العموم ، في جوار مدينة رومانية روعيت في تأسيسها سهولات الاتصال ، واحيطت بالاسوار ، وضمّت بالاضافة الى ذلك مقر الاسقف والكهنة القانونيين ومركز عدة اديرة ومحل اقامة بعض العائلات النبيلة في اغلب الاحيان ، وجمعت من ثم زبناً اثرياء دائمين . وقامت كذلك بعض الضيع الكبرى في جوار الحصون الهامة التي هي مراكز سلطات قضائية واسعة تقوم فيها حامية عسكرية كبرى يجب تموينها ؛ او في جوار الاديار ، تلك المراكز المحصنة ايضاً ، التي تجتذب المسافرين من حيث هي نقاط لاجتماعات دينية دورية . ولكن الحي الجديد يكاد يبقى متميزاً ابداً عن النواة السكنية القديمة التي اسهمت في تعيين مكانه : وتنحصر في هذه الاخيرة ، المنكمشة وراء اسوارها ، المهام الدينية او العسكرية ، ولا يقيم فيها بصورة عامة سوى رجال الاكليروس والجنود ؛ اما الضيعة وهي في البدء مكان مفتوح قائم خارج الاسوار ، فتنتظم حول المكان المخصّص للاعمال التجارية (المرفأ ، الساحة العامة) ، وهو في الغالب فسيح جداً تقام فيه سوق اسبوعية ؛ وتستطيل شوارعه ، التي تحيط بها الفنادق وفاقاً لاتجاهات السير الرئيسية ؛ ثم ان بيوتها نفسها ، التي يطل الدور الاول فيها ، بباب عريض ، على الشارع الذي يكثر فيه المارة ، تعبر عن الغاية التي من اجلها احدثت المجموعة السكنية : فهي وليدة الطريق ، وهي بالتالي مكان مرور وتجارة .

ينتسب الرجال الذين أسسوها وتجمعوا فيها الى اوساط مختلفة . فالبعض منهم ، وهم قليلون في الارجح ، « دون جنسية » ، يدخلون في عداد التجار الجوالين المجهولي المنشأ الذين توقفوا فيها يوما وأسسوا عائلة . وينتسب شطر هام من السكان الى المدينة القديمة او الحصن او جواره : كالوكلاء ، وخدام الاسقف او حاكم الحصن او الدير ، وبعض فلاحي الضواحي السابقين ، الذين استهوتهم مكاسب التجارة فتركوا استثمارهم الزراعي وجمعوا بعض المال ببيع عقارهم وأسسوا عملا . وينتسب معظم سكان الضيعة اخيراً الى الارياف المجاورة . الا انهم ، مهما كان منشأهم ، اندمجوا في طبقة اجتماعية واحدة ، البورجوازية ، التي اتضحت صورتها في منتصف القرن الحادي عشر ، وتميزت ، قبل أي شيء آخر ، بدور اقتصادي خاص : فأعضاؤها متخصصون في التجارة والصناعة اليدوية ، حتى ولو لم يتجردوا تماماً عن الارض او ما زالوا يجمعون بعض الحنطة والنبيذ من القطع التي يحتفظون بها في جوار الضيعة وحتى داخل نطاقها ، او حصلوا على استخدام المراعي السيدية (نسبة الى السيد) المجاورة لمواشيهم .

لذلك ليست الارض ، شأنها في غير مكان ، الثروة الرئيسية في المدينة ، بل احتياطي الفضة ،

سبائك او نقوداً ، والبضائع الثمينة المخزونة . ولذلك ايضاً تجمع الثروات في المدينة وتنهار بسرعة ، كما ان الرابطة العائلية اضعف منها في المجتمع الريفي لان النشاط المهني هنا وطبيعة الاملاك لا يخضعان للموجبات النَّسبية .

اذا كان المناخ الاقتصادي والاجتماعي مناخاً خاصاً جداً في الضيعة الكبرى ، فان تنظيم السلطة فيها مماثل في الاصل لتنظيم السلطة في الارياف . فكثيرون بين سكان القرية ، ممن ينحدرون من فلاحين مهاجرين لم يبتعدوا كثيراً عن قريتهم الوالدية كي يتملصوا من كافة روابطهم ، كانوا فداديين واتباعاً شخصيين لاحد الاسياد ، وكثيراً ما ازعجتهم الخدمات ، التي الزموا بها نحو سيد شخصهم ، في ممارسة مهنتهم . اضف الى ذلك ان الضيعة الجديدة قد قامت في الارياف ، والارض التي ارتفعت عليها المساكن تؤلف على العموم جزءاً من اقطاعات ريفية قديمة ، واسياد الارض يطالبون شاغلي هذه القطع بالاتاوات السابقة نفسها ، وبتقادم المواد الزراعية ، وحتى خدمات الحراثة . وخضعت المدينة كلها اخيراً الى حكم سيّد او عدّة اسياد ، وفرض اسقف المدينة ورئيس الدير وحاكم الحصن ، الذين استوفوا الرسوم نفسها المستوفاة في الاحياء الريفية من ممتلكاتهم ، الخدمة العسكرية اثناء تنظيم الاسواق وجمعوا ضريبة القطع ، وكادوا ينتزعون من التجار رؤوس اموالهم ، ومارسوا اخيراً بعض الحقوق التي عرقلت اعمال المقايضة ، كامتياز الشراء بالدين ، وحق ارهاق التجار الغرباء ، وفرض الرسوم على الصفقات وانتقال البضائع . لذلك فان النظام السياسي في المدن لم يناسب دورها الاقتصادي . ولذلك ايضاً سوف يحاول سكان المدن الحصول من اسيادهم على تعديل نظام الحكم هذا مستخدمين بعض الاسلحة : احتياطي المعادن الثمينة الذي كدسوه والذي قد يغري من بيدهم السلطة ، وعادات التضامن المكتسبة في الجمعيات التجارية ، وتدربهم على خوض المعارك بقوة ، وقد حققوه في تجولاتهم التجارية ، ومثّل الجمعيات السلمية القائمة بين اعضاء طبقة الفرسان .

حركة التكتل البورجوازي

وفي سبيل تثبيت اقدامهم امام سيد السلطة ، اتحدوا في أغلب الاحيان ، اتحاداً اشد وثوقاً ، في هيئة جماعة تضم كل الفئات وكافة رؤساء العائلات في القرية : اعني بها جمعية البورجوازيين . قامت هذه الجمعية ، شأن الجمعيات التي تألفت للدفاع عن سلم الرب ، على يمين متبادلة ، واستهدفت ، في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوفاق بين المتحالفين ؛ فالذين يعتدون على « سلم المدينة » يقعون تحت طائلة عقوبات صارمة تنفذها الجماعة بحضور كافة اعضائها . ووحّدت هذه الهيئة كذلك كافة النشاطات الفردية بغية القيام بعمل جماعي ضد اعداء الجمهور . فكانت من ثم جمعية منضبطة يشرف على ادارتها ، كما هو طبيعي ، اوسع الاعضاء نفوذاً في اعظم الفئات قوة ، أي فئة التجار ، بوجه عام ، التي تتوفر لديها اعظم الوسائل المالية .

برزت مقاومة البورجوازيات اولاً في المقاطعات الغربية حيث ساعدت الحركة التجارية المتميزة بمزيد من النشاط على نمو المدن المبكر ، أي في المنطقتين اللتين تأثرتا منذ العهد الكارولنجي

بنمو حركة المقايضات : ايطاليا اللومباردية حيث بذلت ، منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر جهود التجار الاولى (وهم هنا حلفاء طبقة الاشراف التي ألفت في المدن الجنوبية أقوى عنصر بين مجموع السكان) للافلات من قوة السيد ؛ وشمالي فرنسا حيث تألفت الجمعيات البورجوازية في « المان » في السنة ١٠٧٠ وفي كمبريه في السنة ١٠٧٧ ، ثم في بوفيه وكانتان ؛ وامتدت المقاومة شيئاً فشيئاً الى المدن المختلفة ، الصغرى منها والكبرى ، وافضت قبل السنة ١١٥٠ ، في معظم المراكز التجارية ، الى التخفيف من وطأة اقتسارات الحكام المزعجة . فرضي الاسياد ، تحت ضغط التمرد احياناً — في السنة ١١١٥ ، اقدم بورجوازيو « لان » على قتل اسقفهم الذي رفض تخفيف مطالبه — وتحت تأثير مبلغ كبير من المال غالباً ، واقتناعاً منهم بفوائد الاتفاق الذي يساعد على نمو المدينة ويؤدي في النهاية الى ارتفاع عدد رعاياهم ، بمنح الجمعية البورجوازية دستوراً ، أي عقداً خطياً ومذيلاً بالاختام ، يضمن « الحرية » او « الاعفاءات » ، أي تخفيض الرسوم .

تضمنت بنود دساتير الحريات في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، وعداً لكافة سكان المدينة ، وبعد انقضاء فترة من الزمن تحدّد عادة بسنة ويوم ، لكل من يقصدها للاقامة فيها ، بالاستقلال الشخصي : فحلّت بذلك كافة روابط الفدادية والاستثمار التي كان من شأنها اخضاعهم وراثياً ، في السابق ، لرجل آخر — وزالت بالفعل نفسه الواجبات المفروضة على الاتباع ، كزواج الفدادي خارج الاراضي السيدية ، وحرمانه من التصرف باملاكه اذا لم يرزق اولاداً ، وحظر التنقل عليه . اضف الى ذلك ان العادات السيدية ، ان لم تلغ بكليتها (اذ غالباً ما يحتفظ السيد ببعض الامتيازات وبعض المكاسب) ، فقد انقصت انقاصاً عظيماً : فالخدمة العسكرية ، المطاقة على مضض ، لانها تعرقل التنقلات التجارية وقد ترغم على استعمال القوّة ضد الزبن والعملاء ، قد الغيت احياناً وتحدّدت ابداً ، واقتصرت صلاحية السيد القضائية ، على معاقبة الجرائم الفظيعة اذا تقدمت الضحايا بالشكوى ، وفقدت ضرائب القطع طابعها التعسفي ، والغيت بصورة خاصة كافة امتيازات السيد التجارية ، وكافة العراقيل المقامة في طريق الانتقال والتجارة والتردد بحرية على المعارض والاسواق .

كانت الجمعية البورجوازية ، بعد تحقيق هذه النتيجة ، تلتهي الى الانحلال في معظم الاحيان . فتصبح المدينة حرة آنذاك . ولكن غالباً ما يحدث ان يستمر التكتل البورجوازي حتى بعد احراز النصر وان يعترف بوجود الجمعية في الدستور ويوافق عليه . فتحصل جمعية البورجوازيين بالتالي على الشخصية القانونية وترث قسطاً من حقوق السيد الحاكم القديمة وتمسي سيادة جماعية : سيادة عسكرية ، اذ ان البورجوازيين ملزمون بحمل السلاح ، لاجل خدمة المدينة لا السيد ، ولأجل الدفاع عن مصالحها التجارية ولتأمين نجاح الجميع ؛ وسيادة قضائية ، اذ ان الصلاحية الاستثنائية التي حصلت عليها خلال النضال من اجل الحرية والتي يمارسها مندوبو التكتل ، قد حلت الآن محل سلطات القمع القديمة التي اقصاها الدستور عن المدينة ؛ وسيادة مالية اخيراً ،

فتتصرف باموالها وتفرض الرسوم على كافة اعضاء الجماعة سواء كانت هـــذه الرسوم مساهمات اقرت في السابق تدعيماً لمناهضة السيد ام عادات اقطاعية قديمة استردت بالشراء من المستفيدين منها . ويشترك كافة البورجوازيين على السواء في هذه السلطة الجماعية ويعقدون جمعيات عمومية ويتخذون القرارات الهامة متضامنين . الا ان إدارة الشؤون العادية والشؤون القضائية وادارة الاموال العمومية تسند الى هيئة مختصرة منبثقة بصورة عـــامة عن الاوليغارشية التجارية ، اطلق عليها اسم المشيخة في البورجوازيات الشمالية واسم القنصلية في البورجوازيات الجنوبية .

وهكذا تكونت ، بين السنة ١٠٠٠ ومنتصف القرن الثاني عشر ، ونتيجة لنهضة التجارة ، وفي وسط العالم الريفي والمجتمع الاقطاعي ، اجسام غريبة هي المدن . اجل انها لا تزال صغيرة جداً وتكاد لا تضم سوى بعض المئات ، ونادراً بعض الالوف ، من البورجوازيين غـــير ان ظهورها قد احدث تبديلات عميقة في الوسط المجاور . فقد شجع نمو المدن ، في الدرجة الاولى ، تسرب الاقتصاد النقدي الى الارياف . كانت المدينة التجـــارية ، في البدء ، مخزناً تعرض فيه بصورة دائمة سلع مغرية غريبة عن الانتاج المحلي ؛ وكان هذا المعرض يحرك في الطبقات الريفية ، اي الفلاحين ، ولا سيما في الاشراف وكبار اعضاء الاكليروس ، رغبة في الانفـــاق ، فتستجمع المدينة في خزائنها دراهم هؤلاء الناس ، اي فائض الثروة الناجم عن انتاج زراعي افضل . الا ان الاموال المنقولة ، المكدسة في المدينة ، توزع بدورها بعد ذلك : بالدين ، لان التجار يسلفون الريفيين ، زبنهم ، المال الذي يفتقرون اليه ، فتتكاثر القروض بالفائدة التي يمارسها اليهود بنوع خاص ، لان الربى محظر مبدئياً على المسيحيين ، والقروض لقاء رهونات عقارية التي تضع تحت تصرف الدائن الارض ومحاصيلها حتى تسديد الدين ؛ وبالشراء من اهالي المدن ايضاً : اذ ان المدينة مركز استهلاك ثابت لمحاصيل الحقول والمواد الغذائية (فالبورجوازي ، ولو كان نصف فلاح ، لا ينتج كل ما يؤمن غذاءه) والمواد التي تستعملها الصناعة المدنية كالصوف والخشب والجلد . فساعد وجود المدينة على طبع حركة التداول النقدي بالسرعة واستعجـــل التطور الداخلي للاقتصاد الريفي والاقدام تدريجياً على تأسيس المشاريع الزراعية .

اضف الى ذلك ان المحاولات البورجوازية للفوز بالاعفاءات قـد قلبت التوازن السياسي قلباً اعتبره المعاصرون مشيناً . فهـــا قد برزت في قلب التنظيم الاقطاعي ، المبني على الاباء والتسلسل ، سيادات لا هي بالنبيلة ولا هي بالدنيئة ، واحلاف تربط المتساوين ؛ وهـا قد جاء تأليف فئة اجتماعية جديدة ، الطبقة البورجوازية ، المتميزة بدورها الاقتصادي الخاص وبنظامها القانوني الممتاز ، اي الحرية الشخصية ، يدخل البلبلة في نظام « الطبقات » القديمة وفي التسلسل التقليدي في توزع الثروات ، اذ ان العمال قد نزعوا ، عن طريق التجارة ، الى ان يمسوا اعظم ثروة من الفرسان . وهكذا فسان المدينة ـ الحديثة ، التي كانت ملجأ للمستثمرين الفارين من اسيادهم الذين ينضمون ، بعد مرور سنة ، الى الجماعة البورجوازية ، وعبرةً لسكان القرى الذين بدأوا بدورهم ، بعـــد سكان المدن بنصف قرن تقريباً ، يطالبون اسيادهم بتحديد العادات

الاقطاعية وتخفيفها ، قد غدت جرثومة تفكيك في قلب العالم الاقطاعي . بيد ان نهضة المدن والازدهار التجاري قـــد شكلا موقتاً ، وحتى اواخر القرن الثاني عشر ، عوامل توسع قوية كانت الطبقات المسيطرة ، اي الفرسان والاكليروس ، اول من افاد منها .

٣ ـ التوسع العسكري

أدى ارتفاع عدد سكان الارياف الفلاحين الى اتساع الاراضي الزراعية وانشاء قرى جديدة والى نمو المدن؛ وأدت الظاهرة نفسها الى تنمية روح المغامرة في الارستوقراطية. فاستهوت المشاريع العسكرية أبناء العائلات الشريفة ، الذين ارتفع عددهم ايضاً ، بتأثير من ميولهم والتربية التي خضعوا لها ، لا سيما وانهم كانوا يبحثون عن موارد اضافيـــة ؛ ولما كانت نظم السلم والقانون الاقطاعي والروابط المختلفة التي تشدهم الى كافـــة جيرانهم تُقصر على جوار مسكنهم ظروف ومكاسب الحرب، فقد قرروا القيام بحملات عسكرية بعيدة. وهكذا كان ارتفاع كثافة السكان منطلقاً لتوسع طبقة فرسان البر ، وبخاصة طبقة فرسان « الفرنجة » والارستوقراطية العلمانيـة في المقاطعة الكائنة بين نهري « اللوار » والرين . ولكن نجاح هذه المشاريع يفسره كذلك تحسن تقنيات الحرب المعتمدة لدى المحاربين المسيحيين .

تقنيات الحرب

يعود اهم هـــذه النجاحات الى استخدام الحصان في المعركة استخداماً متزايداً ؛ ويرتبط هذا النجاح من ثم بتحسين عدة الخيول ، ولا سيما باعتماد الركاب وتقدم تربية الجياد ، وبالتالي بتقدم التقنيات الزراعية وانتشار دورة استراحة الارض كل ثلاث سنوات وزراعة القرطمان . ومهما يكن من الامر ، فان المحارب الجدير بهذا الاسم ، في القرن الحادي عشر ، هو فارس كما نعلم . فنتج عن ذلـــك ، في الدرجة الاولى ، ان المحارب استطاع ، لانه فارس ، حمل اسلحة دفاعية اثقل وزناً ، وبالتالي اشد متانة وفعالية. وفي الواقع تحسنت الاسلحة تدريجياً منذ العهد الكارولنجي. وقد تألفت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، كما يمكننا مشاهدة ذلك في الرسوم المطرزة على « فروش » « بايو » التي تصف حملة غليوم الفاتح على انكلترا ، من عناصر ثلاثة : الخوذة المعدنية الطويلة التي تتمّمها الى الامام قطعـــة مسطحة (الانف) تقي مقدمة الوجه، والدرع الطويل الذي يقي الجسم من الذقن حتى الركبتين، وهو مصنوع من جلد تغطيه صفائح معدنية صغيرة ، او محبوك بكليته بالزرود المعدنية ، وهي طريقة اخذت بالانتشار تدريجياً، والترس الجلدي الكبير اخيرا ، وكان شكله اما مستديراً واما ثلاثي الزوايا . وكانت هذه الوقاية المتقنة باهظة الاكلاف (ولتحسن التسلح ، كما نرى ، علاقة مباشرة بتقدم صناعة الحديد وبزيادة الدخل السيدي الذي يتيح للنبيل تكريس مزيد من المال لعدته) ؛ الا انها تجعل الفارس ، عملياً ، بمأمن من اسلحة القذف ، أي الحراب وسهام القوس الصغيرة، التي لا يمكن ان تؤذي سوى ركوبته. ولذلك فقد تبدلت أساليب خوض المعركة ايضاً.

ليس بعد اليوم من هجوم ينطلق من مسافة طويلة ؛ لقد ترك استعمال القذائف للمشاة الذين غدا دورهم ثانوياً ، فكلفوا مهمة تأخير اقتراب الاعداء فقط ؛ اما الجنود الحقيقيون ، فانهم يتبارون الآن بالمصارعة وجهاً لوجه . اجل قد يقوم الجنود بالهجوم راجلين احياناً ، — اذ ان الحصان ، الذي يستخدم للنقـــل فقط ، يُترك حين يصطدم المتصارعون — ولكن الاسلحة الهجومية ايضاً غدت آنذاك اثقل وزناً ، كي تتيح فري الخوذ وتمزيق الدروع : وهذه الاسلحة هي الفؤوس او الرماح الكبيرة التي تستعمل بالذراعين . الا ان التبدل الحاسم بنوع خاص كان ان المرحلة الفاصلة في المعركة غدت ، شيئاً فشيئاً ، تصادماً بين الفرسان . واعطت الركابُ الفارسَ مزيداً من التوازن واتاحت له نهج خطة هجومية جديدة : يمسك الترس باحدى يديه والرمح الطويل بالاخرى ويحمل على عدوّه بسرعة عدو حصانه ويحاول قلبه عن السرج . فيكفي ان يلقى على الارض بعنف فارسٌ متلبك بعدّة ثقيلة حتى يصبح مؤقتاً عاجزاً عن القتال ؛ لذلك ، وبسبب الضمانة الكبرى التي توفرها للمحارب اسباب وقايته المعدنية المعززة ، تبدل الهدف من الاصطدام تدريجياً : فلم يعد القصد قتل العدو بـــل اسره وقبض فديته . واكتمل التطور في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، فقامت المعركة حينـذاك بسلسلة من الهجمات المتعاقبة يقوم بها فرسان ثقيلو العدّة ولا يمكن مقاومتها اذا لم يمارس الاعداء التقنيات نفسهـــا ويجهزوا باسباب الوقاية نفسها . وقد اضيفت الى تحسن الادوات والاساليب العسكرية تربية استهدفت ، بكليتها ، تنمية الجسم واتقان فن الفروسية ، وطراز حياة كانت افضل تسلياته التبارين العنيفة والالعـــاب الحربية ، وذهنية تحل ، فوق كافة الفضائل ، الشجاعة الجسدية والغيرة على رفاق السلاح ، وذلـــك رغبة في توطيد تفوق الفارس الفرنجي ، انطلاقاً من السنة ١٠٠٠ ، على كافة المحاربين المتهنين الآخرين .

نورمنديو انكلترا وايطاليا

منذ اوائل القرن الحادي عشر انطلق المغامرون الارلون المسعودون من ضفاف السين في نورمنديا ، حيث استمرت تقاليد « الفيكنغ » الحربية ، وحيث ارغم النظـــام الدوقي الصارم معكري صفو الامن على الانتزاح عن بلادهم . وكان اهم احداث التوسع النورمندي نتيجة اقـــدام غليوم الفاتح في السنة ١٠٦٦ ، على رأس زمرة من المحاربين المحشودين من املاكه ، ومن بريطانيا وفلاندر ايضاً ، على الاستيلاء عـــلى مملكة انكلترا . فاقصيت المناطق الانكلوساكسونية ، منـــذ ذاك الحين ، عن النفوذ السكندينافي وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحضارة غاليا الشمالية . ولا ريب في ان عناصر الثقافة المحلية ، المنحدرة الى مستوى التقاليد الشعبية ، قـــد حافظت على نشاطها ، بينما ارسخت الطبقات المسيطرة لغة اليابسة وعاداتهـــا الاجتماعية وطرق تفكيرها . وانضمت العادات الاقطاعية المستوردة الى النظم الصارمة التي خضعت لها الجماعات الساكسونية لتجعل من ملك انكلترا اقوى اسياد اوروبا في عهده .

سبق لنورمنديين كثيرين ، في عهـــد الفتح الانكليزي ، ان ذهبوا يبحثون عن الثروة في

اقاصي التخوم الجنوبية للمسيحية اللاتينية . فاكرى القسم الاكبر منهم خدماتهم العسكرية ، في جنوبي شبه الجزيرة الايطالية حيث تجابهت سيطرات مختلفة ، وحيث كان اصحاب الدوقيات اللومبارديه في الأبنين والحكام البيزنطيون في الساحل والمدن التجارية والعرب اخيراً الذين كانوا قد استولوا على صقليا يتصارعون باستمرار . فاستخدم هؤلاء الجنود الاقوياء بسهولة واستدعوا اخوتهم وابناء اعمامهم الذين كانوا يعيشون حياة حقيرة في قصور الاسياد العاجة بالاولاد . وهكذا فان احد هؤلاء المرتزقة المدعو روبير غيسكار ، وهو رئيس فرقة عسكرية تجمعها روابط النسب والاقطاعية ، قد انجز عملاً مدهشاً : اذ انه قد اقتطع بسيفه في كالابريا ، و « بُوْيّ » ، دولة عاد واستلمها اقطاعة من البابا في السنة ١٠٥٩ ، ثم سار قدماً في فتوحاته على باري ، في السنة ١٠٧١ وطرد الاغريق طرداً نهائياً من ايطاليا الجنوبية ، وانتزع ، في الوقت نفسه ، وبمساعدة اخيه روجيه ، صقليا من المسلمين قطعة قطعة ، وخضعت له باليرمو في السنة ١٠٨٢ ، وحين اصبح حماً لامبراطور القسطنطينية خطر له التوسع في إليريا ، فاحتل دورازو وكورفو .

احرز بذلك في نقطة تلاقي العوالم المتوسطية الثلاثة ، اللاتيني والبيزنطي والعربي ، اول تقدم حققته المسيحية الغربية ، وتأسست دولة جديدة اقطاعية الهيكل في اجهزتها العليا على غرار نورمنديا ، على ان ملكها ، كما في انكلترا ، قد تمتع بحقوق واسعة جداً على السكان الذين اخضعهم الفتح ، وافاد ، بالاضافة الى ذلك ، من موارد جبائية وافرة تضمن له خدمات عملاء مخلصين . فان صقليا ، وهي ملتقى لغات واديان وحضارات ، كانت ايضاً ميناء على الطرقات البحرية الكبرى تتمون فيه البواخر وسوق ذهب وتجارة كبرى . فمن هذه الزاوية الاخيرة ، كان احتلال الجزيرة من قبل المسيحيين وضمها الى ملكية ثابتة الاركان حدثاً ذا أهمية عظمى للغرب بأكمله ؛ وقد أفضى ذلك فعلاً الى الحد من نشاط القراصنة بصورة محسوسة ؛ وتوفرت كذلك محطة امينة للبواخر المسيحية التي استطاعت باوغ مرافىء الشرق بمزيد من السهولة . ورفع الحصار عن حوض المتوسط الغربي ؛ فلم تعد البندقية والادرياتيك الطرق الهامة للتجارة مع الشرق ، واتيح للنشاط التجاري الامتداد الى شواطىء كاتالونيا ، ولنغدوك ، وبروفنسا ، وكلها قطاعات لا يزال قراصنة البالبار المسلمون يضايقونها – بينما احتلت بيزا ، وجنوى ، على شواطىء البحر التيريني الايطالية ، محل امالفي التي استطاعت بمفردها حتى ذاك العهد ، بموجب اتفاق مع عرب صقليا ، اجتياز مضيق مسينا ، والتوجه ببواخرها التجارية شطر الشرق .

الحرب الاستردادية والحرب الصليبية

امست شبه الجزيرة الايبيرية جبهة اخرى لاسترداد فتوحات غير المؤمنين ، فاستقبل رؤساء الدول المسيحية الصغيرة في الجبال الشمالية ، اي كاتالونيا والاراغون قشتالة ، بدورهم ، فرساناً من الفرنجة ، والنورمنديين ايضاً ، ولا سيما البورغونيين والشمبانيين . واستطاعوا بفضل هذه النجدات القيام بغزوات فصلية على مناطق الاحتلال الاسلامية المستضعفة : غارات نهب مفاجئة اولاً ، ثم

حملات فتح اكسبت المسيحية ،شيئاً فشيئاً ، طرائد فتحت امـــام الاستعمار الريفي والمدني وتكون في اسبانيا ، ابان هذه المعارك المثمرة ، شعور جديد هو تعبير عن القوة التوسعية الفتية لدى الفرسان الغربيين : فكرة الحرب المقدسة كعمل تقوي يؤمن الخلاص . اما هذا الشعور ، الذي ستعبر عنه وتبثه الاغاني الايمائية ، فقـــد استغله ووجّهه المشرفون على ادارة الكنيسة . ففي السنة ١٠٦٣ ، اعدّت ، باتجـــاه وادي الايبر ، اولى الحملات العسكرية المنظمة على غير المؤمنين ، وقـــد حصل المشاركون فيها على ضمانة بسلامة ممتلكاتهم وعائلاتهم ونيل بعض الغفرانات والفوائد الروحية . وقد قابل بطء النجاحات البيريلية هذه – اذ ان ساراغوسا لن تسقط الا في السنة ١١١٨ – الانتصارات الصاعقة التي حققهـا فرديناند الاول ملك قشتاله ؛ فهو قد دخل كوامبر منذ السنة ١٠٧٤ وفرض الجزية على معظم الامـــارات الاسلامية في شبه الجزيرة ؛ واحتل ابنه مدينة طليطلة في السنة ١٠٨٥ . ثم اضطر المسيحيون بعد ذلك لفترة من الزمن الى التراجع امام « المرابطين » الآتين من افريقيا ، ولكنهم مـــا لبثوا ان استعادوا الاراضي التي تخلوا عنها ، وغالبا ما حالف الحظ الصراع ضد غير المؤمنين ، وهو صراع لن يعرف بعد ذاك التاريخ توقفاً طويل الامد .

اختلفت الحرب الصليبية ، بمفهومها الحصري ، عن الحرب المقدسة التي خيضت ضد الاسلام ، بتفاصيل بسيطة : فالمحاربون المسيحيون تجندوا في مشروع اشترك الكرسي الرسولي في ادارته ، وتسلّموا شارة مميزة رمز الفداء نفسه ، وحصلوا على امتيازات واسعة ومحدّدة بدقة ، وعين لهم هدف اعظم تهويساً من استعادة هضاب قشتاله ، اعني به انقاذ قبر المسيح . منذ ان انتشرت ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، عادة القيام بالحج ، تزايد السفر الى الارض المقدسة لانه اعتبر اعظم الممارسات نفعاً للخلاص الابدي ، وقلمـا ضايقه العرب ، الذين كانوا متساهلين جدّاً ، كما يبدو من جهة ثانية ان الغزو التركي لم يجعل الدخول الى معابد فلسطين اكثر صعوبة . الا ان فرسان الغرب ، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة ، اخذوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، يؤدون فريضة الحج ، جماعات صغيرة مسلحة ؛ كما اخذوا بعد عودتهم ، يبسطون شعورهم بأن الفتح ليس امراً مستحيلاً ، ويصغون في الوقت نفسه لنزوات الشرق الطائلة . وجاء الاندفاع التركي اخيراً يهدد بيزنطية آنذاك تهديداً جدياً خطيراً ، ففكر الغرب بوجوب وقاية المسيحية من جهة الشرق . استفاد البابا اوربانوس الثاني من هذا الجو الملائم ودعا كافة المسيحيين المتمتعين الخدمة العسكرية والحاملـــين شارة الصليب ، الى الذهاب بأسلحتهم الى القدس ؟ فصادفت دعوته ، في وقت قصير ، نجاحاً منقطع النظير قلب المخطط البابوي الذي كان متواضعاً في البداية . ففي كافة مناطق المسيحية اللاتينية ، لبى الفرسان هذه الدعوة بحماس . وهكذا ابتدأت عملية معدة لأن تدوم أكثر من قرنين سيساور الحنين اليهـا عقول النبلاء حتى فجر العهد المعاصر . اعدت الحرب الصليبية الاولى على مهل وبالتفصيل : تنطلق اربعة طوابير مسلحة وتسلك طرقاً مختلفة وتلتقي امام القسطنطينية . ليس هنـــاك من ملوك ، لأن هؤلاء لم يتمتعوا آنذاك بسلطة

فعلية ؛ ولكن أكثر المحاربين عدداً وثباتاً ، اولئك الذين أفلحوا اخيراً في الاستيلاء عـــلى اورشليم في ١٥ تموز من السنة ١٠٩٩ ، انطلقوا من المناطق الفرنجية القديمة .

تنظم في الارض المقدسة بعد ذلك شبه مخفر امامي بعيد للاقطاعية الغربية . الا ان هـذا الصرح السياسي كان في الواقع ركيكاً : اذ ان السيطرة « الفرنجية » لم تتخط سواحل الشرق قط ، ولأنهـا لم تبلغ قط في الشمال ، حيث حققت أقصى اتساعها بامتدادها حتى الرها بموازاة كيليكيا ، الصحراء التي كان من شأنها ان تكوّن لهذه السيطرة حدوداً داخلية على بعض القوة؛ فالاسلام ما زال راسخ القدم في دمشق وفي حلب ، وهو ينوء بثقل وزنه على هـــذه الطريدة الساحلية . وكان ركيكاً في تركيبه الداخلي ايضاً : فهي العادات الاقطاعية الغربيـة ، المنقولة الى الشرق نقلاً صنعياً ، ما استخدم هيكلاً اوحد لكيان سياسي لم يوجده رئيس زمرة — كما في الدولة الصقلية او المملكة الانكلو — نورمندية — بل حكام حصون وفرسان اتحدوا على قـدم المساواة في جمعية مؤقتة لتأدية فريضة الحج وخوض غمار المعركة . اجل لقد قامت هناك مملكة كانت اجهزتها في البدء اعظم فعالية مما تبدو في الابحاث التي وضعها رجال القانون الاقطاعيون في القرن الثالث عشر : فملوك اورشليم هم الوحيدون ، مع ملوك انكلترا ، الذين استطاعوا ، في منتصف القرن الثاني عشر ، الحصول على الخدمة المباشرة من اصحاب اخاذات لا يرتبطون بهم مباشرة ، والوحيدون ايضاً الذين لم تكن الخدمة العسكرية ، بالنسبة لهم ، محددة في الزمان. ولكن هذه المملكة لم تمارس الرقابة على امارات الرها وانطاكية وطرابلس التي تأسست ، ابان تقدم الصليبيين ، بمبادهات مستقلة ، فلم يستطع الملك من ثم تحقيق وحدة القوى الضرورية للذود عن حدود تحيق بها الاخطار المداهمة . وكان ركيكاً ، بالاضافة الى ذلك ، لأن الصليبيين ، على نقيض المرتزقـــة في كالابريا ، او رفاق غليوم الفاتح ، لم يقصدوا اقتطاع سيادة وراء البحار والاستقرار فيها. فهم قد تعهدوا بانقاذ اورشليم بحراستها حراسة مستمرة ، وقد عاد معظمهم الى بيوتهم بعد بلوغ امنيتهم .ونيل الغفرانات . ولهذا السبب لم تكن الدول الفرنجية في الشرق مستعمرات معدة للاسكان . اجل استقرت بعض عائلات الفرسان وبعض الشركات التجارية في بعض الحصون المتشتتة وبعض المراكز التجارية ؛ ولكن الغربيين بقوا أقليـــة ضئيلة في وسط سكان البلاد .

بيد ان المؤسسات اللاتينية في شواطىء المتوسط الشرقية قـد طال بقاؤها . ويعود ذلك في الدرجة الاولى الى ان الاسلام كان مستضعفاً جداً ؛ ويعود ايضـــاً الى ان مشروع الحرب الصليبية ، خلال القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر — على نقيض ما تحملنا الارقام التسلسلية التي نسبها المؤرخون في الماضي الى اعظم الحملات اهمية على الاعتقاد به — هو في الواقع مشروع دائم :ففي كل سنة نذور جديدة،وفي كل ربيع يتوجه شطر من الفرسان الاوروبيين الى ما وراء البحار ويقضون في الارض المقدسة بضعة اشهر،وبضع سنوات احياناً،فيوفرون لمنظمي الدفاع جنوداً قد يكونون اقل خبرة وتدريباً ولكنهم اشد همة وحماساً من جيش الاقطاعيين المحلّيين

يفسحون المجال بعد تأدية خدمتهم للمسيحية ، لافواج اخرى من المجندين ؛ فتكونت بذلك حركة دائمة ذهاباً واياباً. زد على ذلك ان جمعيات دينية جديدة قد تأسست وخصصت لهذ النوع الجديد من التقوى، الذي هو الحرب المقدسة ؛ فقد كان في الوقت نفسه رهباناً وجنوداً فرسانُ المعبـــد الذين وضع قانونهم في السنة ١١٢٨ ، وفرسان مستشفى اورشليم ، والفرســان التوتونيون ، وقد اسندت اليهم مهمة استقبـال حجاج الارض المقدسة وحمايتهم ضد غـــير المؤمنين ؛ ولم تلبث فروع اخوياتهم ان انتشرت في كافة المناطق المسيحية وجندت صليبيين جدداً وجمعت الاحسانات ممن تعذر عليهم وفاء نذورهم فابدلوها بالمال واستخدموها للدفاع عن المؤسسات الصليبية في المشرق؛ وان الحاميات الدائمة التي تعهدتها هذه الاخويات في الحصون الضخمة المجهزة خير تجهيز والقائمة عند تخوم العالم الاسلامي، قد اسهمت اسهاماً فعالاً ، على الرغم من المنافسات التي قامت بين الجمعيات، في اطالة وجود الامارات المسيحية . اجل لقد انكمشت هذه الامارات شيئاً فشيئاً : فقد فقدت الرها في السنة ١١٤٤ ؛ وسقطت اورشليم في السنة ١١٨٧. ولكن المنطقة الساحلية صمدت، واذا كان الفرنجة قد انكفؤا امام الاسلام، فانهم اخذوا، في اواخر القرن الثاني عشر، يستعيضون عن خسارتهم ببعض اراضي بيزنطية . فهم قد استفادوا من تفوقهم العسكري ، واغرتهم ثروات المدن اليونانية ، وغاب عن بصرهم الهدف الديني للحملات الاولى الى ما وراء البحار ، فاستولوا على قبرص في السنة ١١٩١ ، ودخلوا القسطنطينية ونهبوها في السنة ١٢٠٤ واسسوا فيهـــا امبراطورية سريعة الزوال ووطدوا اقدامهم لبعض الوقت في الموريه . وهكـذا فان الروابط بالمتوسط الشرقي لم تحلّ قط ، بل اشتدت تدريجياً .

كان لهذه الاتصالات المتمادية اثرها الكبير في تطور الحضارة الاوروبية . فنادرة هي عائلات الفرسان في فرنسا او انكلترا او جنوبي المانيا التي لم يشترك عضو من اعضائها على الاقـــل في الاسفار الى اسبانيا او الارض المقدسة او اليونان ؛ وقد غدت الحرب الصليبية تقليداً في بعض العائلات الثرية ، يشترك فيها مداورة جميع الذكور الذين يحترفون الجندية، وما ان يعودوا حتى يبحثوا عن سبب للسفر مرة اخرى . لذلك فان الحرب المقدسة والتنقلات البعيدة التي اوجبتها، قد ادت ، في الدرجة الاولى ، الى تخفيف نتائج ارتفاع عدد السكان في الارستوقراطية العلمانية، وحدّت من ظروف الفوضى والصعوبات الاقتصادية التي كان من المحتمل ان يحدثها ، لولا هـــذه الحروب ، تزايد سريع في عدد اعضاء طبقة المحاربين المحترفين .

اضف الى ذلك ان هذه المشاريع العسكرية قد ساعدت الى حد بعيد على اثراء الغرب مادياً وعلى انطلاقة تجارته البحرية . الا ان هذا القول لا يصح في الحملات الصليبية التي وقفت، بمفهومها الحصري ، ولو بصورة متقطعة ، موقفاً عدائياً حيال غير المؤمنين فعرقلت بذلك بعض الاعمال التجارية ، كما يصح في الحملات الايبيرية ، ولا سيما في عمليات استعادة صقلية كما سبقت الاشارة الى ذلك . ومهما يكن من الامر ، فان مجرد الحاجة الى نقل طوابير الحجاج المتزايدين باطراد قد بعث ، في كافة موانىء المتوسط اللاتينية ، حركة بناء السفن ونشاطات الملاحة ، فدرت رسوم

المرور ارباحاً هامة على مجهزي السفن والبحارة الذين وظفوا رؤوس الاموال المجموعة في مشاريع تجارية وملأوا سفنهم الفارغة ، في موانىء التموين ، بالمنتوجات الشرقية ، كالتوابل ، وحجر الشب ، والمصنوعات البذخية التي يمكن بيعها بأسعار مرتفعة في اوروبا ، وقدموا احياناً ، على الرغم من التحريمات البابوية ، الارقاء والاسلحة المهربة للمسلمين . فازداد بسرعة كلية ، بفضل هذه التجارة المتواصلة احتياطي المعادن الثمينة في المدن البحرية ، ولا سيما في ايطاليا ، فعوّض تكديس الثروات المنقولة عن تخلف البلدان المسيحية المتوسطية في حقل الانتاج الزراعي . وكان ذلك نقطة انطلاق توسع التجارة الجنوبية التي كانت بوادرها أسرع ظهوراً منها في سواحل البحر الشمالي .

ان تجار البحر في برشلونا ومرسيليا ، وبخاصة في بيزا وجنوى والبندقية ، الذين مارسوا ، منذ الحملة الصليبية الاولى، بعض اشكال الشراكة المالية، كالشركات العائلية أو شركات التوصية، المؤسسة لسفرة واحدة او لسلسلة عمليات ، وفي ذلك دليل واضح على تقدم البورجوازيات الايطالية ، قد اسهموا اسهاماً ناشطاً في الحملات الحربية المشنونة على المسلمين والبيزنطيين ؛ فحصلوا بالمقابلة ، في افضل المواقع التجارية من البلدان المحتلة، على امتيازات اقليمية، «فنادق» هي مستعمرات تجارية صغيرة ومراكز اعمال ومضاربات اسهمت مكاسبها في اثراء القرى الغربية التي انتسب التجار اليها . وتذكّر احياء التجارة هذه ، القائمة في المدن الاجنبية ، تذكيراً غريباً بالمراكز التي شغلها التجار السوريون في مدن غاليا واسبانيا في اوائل القرون الوسطى ؛ فنرى والحالة هذه ان وضع المسيحية اللاتينية قد انقلب كلياً ، من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة الى الشرق : فهم التجار الايطاليون والكاتالونيون والبروفنسيون من يستلم الآن زمام التجارة في سواحل المتوسط الآسيوية والافريقية ، ويجني الارباح .

افضت الحملات الصليبية بسرعة اخيراً ، باقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافياً ، الى تهذيب اخلاق الفرسان ، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغريبة ، وادخال التقنيات الجديدة — وهكذا فان تقنيات التحصين التي نقلها الصليبيون الى الشرق تحسنت فيه خلال القرن الثاني عشر ، فافادت اوروبا ، بالمقابلة ، بعد ذلك ، من هذه التحسينات — واطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والادب في العالمين العربي واليوناني : فجاءت هذه الاشكال والمفاهيم والطرائق والعادات ، التي حصل عليها احياناً في امارات فلسطين وخصوصاً في ايطاليا الجنوبية او على جبهة القتال في شبه الجزيرة الايبيرية ، وانتشرت بفضل العائدين من الحج ، تنمي التراث الثقافي في اوروبا المسيحية . ودفع كل ذلك الى الامام بالنهضة الروحية ، التي مهد لها العهد الكارولنجي ، فتواصلت ببطء وعلى غير انتظام ، يساعدها آنذاك اليسار العام وازدياد الاتصالات وسرعة المقايضات على اختلاف انواعها .

٤ ــ النهضة الروحية : تطهير الكنيسة

لما كانت الكنيسة قد احتفظت في الغرب ، حتى في القرن الحادي عشر ، بامتياز التعليم ، ارتبط تقدم الثقافة والنشاطات الفكرية ارتباطاً مباشراً بوضع الاجهزة الكنسية . اجل لقد تحسنت هذه الحالة منذ اوائل القرن العاشر ، ولكن النتائج الاولى تناولت الكنيسة النظامية اولاً ؛ واذا سارت الحياة الرهبانية ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، في طريق التطهير بتأثير انتشار العادات الكلونية ، بنوع خاص ، فان الكنيسة العلمانية ، على نقيض ذلك ، ما زالت تعاني من النقائص الخطيرة نفسها التي تألمت منها المؤسسات الرهبانية ، لا بل من نقائص اعمق تأصلا ، لان افراد اكليروسها اكثر اختلاطاً بالعالم واكثر تعرّضاً بالتالي لفساده .

فساد الاخلاق والاتجار بالقدسيات

اما هذه المعايب فهي ، على حدّ تعبير اولئك الذين اشهروها وشكوا منها آنذاك ، « النقولاوية » اي فساد الاخلاق ــ فقد عاش معظم الكهنة العلمانيين ، في كافة درجات التسلسل الكهنوتي ، عيشة العلمانيين ، وحملوا الاسلحة ولم يحترموا قانون التبتل ــ والسيمونية ، اي الاتجار بالقدسيات ، والمقصود بذلك ، بصورة عامة ، الرغبة في الربح ، وبالتحديد ، الاتجار بالاسرار المقدسة وبيع الوظائف الدينية بالمزاد . ولهذين العيبين سبب واحد عميق : هو الدور الذي لعبه العلمانيون في توزيع المهام الكنسية . فالكنائس ، كل الكنائس ، هي في الواقع تحت سلطة العلمانيين . وكنائس الرعايا الريفية هي ملك العائلات الشريفة التي ورثت مؤسسي المعبد واعتبرت من حقها استثماره على غرار املاكها الاخرى والتي لم تستحلّ كافة مداخيل المذبح فحسب ، بل عينت خدامه من بين اتباعها واختارتهم بين اوضع الناس مرتبة حتى يكونوا اسلسهم انقياداً . اما الاساقفة ورؤساء الاديرة فقد عينهم الملوك او بعض الامراء الذين استأثروا بالصلاحيات الملكية . لذلك ، وبتأثير من المفاهيم الاقطاعية ، كانت الوظيفة الدينية ، والسلطات والمكاسب المرتبطة بها ، ــ لا سيما الانعام العقاري ، كالسيادة الاسقفية او الاقطاعة الكهنوتية ، وهو ملازم لكل خدمة دينية ــ في نظر المعاصرين ، بمثابة استثمار يعود للسيد العلماني الذي يسلمه لرجل الكنيسة بمعاملة تقليد رمزية ، ثم يؤول اليه ، على غرار الاقطاعة عند وفاة صاحبها ، حين يصبح المركز شاغراً . ليس من الصعب رؤية نتائج هذا الوضع : فمن جهة ، حمل التقارب الذي حصل في الاذهان بين الوظائف الكنسية والاستثمارات الاقطاعية ، على عدم التمييز بين اخلاص التابع الاقطاعي والعلاقة التي تربط خادم الكنيسة بسيدها ؛ وهذا لعمري تمثيل خطر لانه قد يعني اخضاع السلطات الروحية الى السلطات الزمنية . ومن جهة ثانية ، ونحن هنا امام واقع خطير آخر ، لم ينظر الاسياد العلمانيون ، حين توجب عليهم الاختيار بين المرشحين لاحد المناصب الدينية ، الى صفاتهم الادبية ، نظرتهم الى الخدمات التي قد يؤديها المختار لهم ، وحتى الى الهدية التي سيقدمها لهم : وهكذا فان عدداً من ملوك القرن الحادي عشر ، من امثال فيليب الاول ملك فرنسا او

معاصره غليوم الاشقر ملك انكلترا ، وجدوا في الاتجـار بالمناصب الاسقفية وسيلة لزيادة مواردهم النقدية القليلة زيادة مهمة جوهرية . فافضت هذه الطريقة الى فساد الاختيار : اقصي المرشحون المثقفون المشهورون بحياتهم المثالية ، وانتخب الدساسون ، ابناء العائلات النبيلة من طلاب الوظائف ، الذين فكروا قبل اي شيء آخر ، حين جمعوا كل كسب ممكن من وظيفتهم ، باستعادة ثمن انتخابهم ، والذين لم يهتموا اطلاقا للتوفيق بين اخلاقهم وموجبـات رسالتهم الراعوية . ذاك هو الشر الاساسي الذي غدا استئصاله امراً واجباً . لقد سبق وواجه مصلحو الحياة الرهبانية ، في الماضي ، معضلة مماثلة : فحلت ، لا سيما في كلوني ، بمنع كل تدخل علماني في الشؤون الدينية ولا سيما في ملء المناصب الشاغرة . فتحت تأثير الرهبان الذين كانوا ، لا سيما في « اللورين » ، على علاقة مباشرة باكليروس الكنائس المركزية ، والذين توصل بعضهم الى الوظائف الاسقفية ، قامت حركة لاجل حرية الانتخابات العلمانية وتسربت تدريجياً الى العالم الكنسي . سقطت الكنيسة ، منذ وفاة اوتون الثالث تحت سيطرة الارستوقراطية الرومانية . الا انها انقذت مرّة اخرى من الفساد المحلي ، بعد السنة ١٠٤٦ ، بفضـل الامبراطور هنري الثالث الذي عين في الادارة البابوية العديد من الكهنة اللوتارنجيين ، المتحلين بقيم اخـلاقية سامية ، والمتأثرين الى حد بعيد بالتيار الصوفي اللوريني ، والضليعين في دراسة الحق القانوني ، والعارفين بالعيوب التي تألمت منها الكنيسة . فانتهت الروح الاصلاحيـة الى الكرسي الرسولي ، واتسمت فيه ،بواسطة بعض الرجال المتصلبين ، من امثال الكردينال «هومبيردي مويانموتيه» بطابع اشد تنظيماً . وانيط بروما ، منذ ذاك الوقت ، تنسيق الجهود المبذولة هنـا وهناك لانقاذ الكنيسة العلمانية من التأثيرات الزمنية المفسدة ؛ فكان ذلك بداية تنظيم عـام سيتتابع طيلة نصف قرن ونيف ، وقـد درج التقليد على تسميته بالاصلاح الغريغوري نسبة للبابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) ، احد أهم باعثيه .

الاصلاح الغريغوري

كانت نتيجته الاولى تعظيم مركز الكنيسة الرومانية . فان اولوية الكرسي الرسولي ، التي سبق واوضحت واثبتت في ايام الانحطـاط الكارولنجي في المجموعات القانونية المعروفة خطأ بالايزودورية اعيد ايضاحها واعلنت بمزيد من القوة في منتصف القرن الحادي عشر . وفي الوقت نفسه (١٠٥٤) الذي انفصلت فيـه الكنيسة الغربية انفصالاً نهائياً عن الكنيسة البيزنطية ، اخذت تظهر بمظهر هيئة تسيطر عليها ادارة البابوية المركزية التي غدت سلطة عليا ارتفعت فوق كافة سلطات هذا العالم . واعتمد في روما منذ السنة ١٠٥٨ ، وتحت ظل قصور ملك جرمانيا هنري الرابع ، مبدأ الانتخابات الحر المستقل ، بمعزل عن رقابة الاباطرة الالمانيين ودسائس الارستوقراطية المحلية معاً ، ثم ما لبث ان سُنّ قانوناً في مجمع السنة ١٠٥٩ : سوف ينتخب البابا بعد هـذا التاريخ على يد اعضاء الاكليروس الروماني الكرادلة . بعد هـذا الاصلاح الاول ، ارتقى اشد اعضاء الاكليروس حرصاً على عظمة مركز الكرسي الرسولي الى رتبة البابوية ، فاسهم ذلك ايضاً في اعـلاء نفوذ

خليفة القديس بطرس ادبياً . ولم يرَ الاكليروس والرهبان ، منذ ذاك الحين ، عظيم غضاضة في الخضوع لسلطة روما ، ليس في حقل العقيدة فحسب ، كما كانت الحال منذ زمن بعيد ، بل في حقل النظام والانضباط ايضاً . اما الاسس الضرورية للنظام الكنسي ، وفاقاً لمجموعة المراسيم التي اختيرت بنـــاء لامر غريغوريوس السابع ، والتي ليست سوى موجز لها ، فهي التالية : رئاسة مطلقة للبابا الذي لا يمكن ان يقاضيه احـــد ولا يمكن الاعتراض على احكامه ، ادارة الكنيسة الجامعة من قبل الكرسي الرسولي الذي يمثله قصّاد يجب ان ينحني امامهم اعلى الاحبار رتبة ، والذي يلم بكافة الاسباب الهامة ، وله وحده حق التشريع ، خضوع رؤساء الاساقفة والاساقفة خضوعاً تاماً للسلطة البابوية الحرة في تعديـــل حدود الابرشيات ونقل او اقالة الرعاة .

وفي الواقع ، تحقق هذا البرنامج بسرعة : فان مبادرات امثال « هوغ دي ديه » او « امات دولورون » ، مندوبي البابا غريغوريوس في غاليا ، وموقف البابا اوربانوس الثاني الذي لم يقذف في مجمع « كليرمون » المنعقد في السنة ١٠٩٥ ، بالمسيحية في الحرب الصليبية فحسب ، بـــل رسم باعطاء انظمة سلم الرب قيمة شاملة ، اثبتت النجاحات المستمرة التي حققتهـــا المركزية الحصرية . فغدت الكنيسة اللاتينية ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، ملكية اوطد رسوخاً من كافة السلطات الزمنية في الغرب ؛ وقد فكر المثقفون في الكنيسة الرومانية ، في سبيـــل مصلحة البابا الذي حمـــل التاج والمعطف الارجواني ، باعادة المنصب الاعلى الذي يشرف على ادارة المسيحيين في الحقلين الزمني والروحي ، مقدمين بذلك على عمل جريء هو تحويـــل الاسطورة الامبراطورية الى شخص البابا .

مشادة التوليات

اضف الى ذلك ، في درجة ثانية ، ان تصلب البابوات ومساعديهم ، ان لم يقض نهائياً على تدخل الاسياد والعلمانيين في تعيين الاساقفة ، فقد حدّ منه حداً عظيماً على الاقل . في السنة ١٠٧٥ ، اوضح البابا غريغوريوس السابع علانية مغزى القرار السادس من مجمع السنة ١٠٥٩ ، الذي كان قد رسم بأن لا يدين الكاهن لعلماني بتولية كنسية ؛ وبذل جهده بصورة خاصة بغية تطبيق هذا المبدأ في وظائف الاساقفـــة ورؤساء الاديرة . فاصطدم بمقاومة عنيفة ابداها كافة المستفيدين من الاتجـــار بالقدسيات ، وذوو المناصب الذين اشتروا وظيفتهم وباتوا عرضة لان يمنعوا من ممارستها ؛ والامراء ايضاً الذين لم يقبلوا بالتخلي عن امتيازاتهم بسبب الارباح التي توفرها لهم ، ولا سيما بسبب الفوائـــد السياسية التي يوفرها لهم الاشراف على الكنائس الكبرى . فقام آنذاك بين باعثي الاصلاح والملوك ذلك الصراع الطويل المعروف بمشادة التوليات . وصدرت اعظم مقاومة عناداً عن الامبراطور لان الامارات الاسقفية في الملكية الجرمانية تمثل اضمن عضد للملك الذي حرص على مراقبتها عن كثب ؛ اما الخلاف ، فبعد تجابه طويل الامد طرحت خلاله على بساط البحث مسألة العلائق بين السلطتين الشاملتين — وقد رأينا غريغوريوس السابع يستند الى حق الربط والحل الممنوح للقديس بطرس ويدعي

بمراقبة اعمال الامراء ، يجيز لنفسه خلع الامبراطور – قد انتهى الى الهدوء، بعد تنازلات متبادلة.

في السنة ١١٢٢ ، تم الاتفاق في معاهدة « وورمس » على صيغة تسوية اعدّها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر علماء القانون في دير « بيك » النورمندي ، ونقّحها الاسقف « ايف دي شارتر » ، واعتمدتها كل من فرنسا وانكلترا ، حيث لم تتسم معارضة الملوك بذاك الطابع من الشدة . ففُصِل ، في الوظيفة الاسقفية ، بين المهمة الروحية التي اقصر منحها ، عن طريق العكاز والخاتم ، على الكنيسة وحدها ، وبين امتيازاتها الزمنية ، من سيادات عقارية وقضائية ، التي ترك امر توليتها للسيد العلماني وفقاً للمراسم الاقطاعية . فليس بعد من خضوع حقيقي للأمير بل مجرد يمين اخلاص ، واذا توجب على الاسقف التوجه ابداً الى سيد كنيسته كي يستلم من يديه ، بشكل مادة رمزية ، خاصيات السلطة ، فما كان ذلك ليحدث الا بعد انتخابه الحر من قبل مجلس كهنة الكاتدرائية. اجل لم يعدم الملوك وسائل الاقناع لانجاح مرشحيهم؛ غير ان التعيين يعود الى رجال الكنيسة ، وفي ذلك ضمانة لاختيار بعيد عن الشبهة : فتحقق بذلك الهدف الاساسي .

الا ان نجاح المصلحين كان ، بالمقابلة ، محصوراً جداً في ما تعلق بالمناصب الدنيا. فقد احتفظ العلمانيون برعاية الكنائس الريفية ، وأقله بحق اقتراح تعيين « خادم النفوس » على الاسقف ، ان لم يكن بحق تعيينه بمعزل عنه ؛ ولهذا السبب بقي الاكليروس الوضيع عادي الصفات جداً . وعلى الرغم من ذلك فان الاصلاح الغريغوري لم يبق دونما نتيجة هنا ايضاً : ففي غضون القرن الحادي عشر حصلت مجالس الكهنة ولا سيما الاديرة على عدد كبير من كنائس الارياف قدمها اليها مالكوها تلقائياً بمثابة احسان وتصدق ؛ وحوالي السنة ١١٠٠ ، بعد ان انضم الخوف من عذابات الحياة الثانية الى مساعي رجال الكنيسة، ازدادت هذه الحركة سرعة، فأعاد العلمانيون معظم المعابد التي كان الاحبار قد اقطعوهم اياها استثمارات اقطاعية . وهكذا فان حق الرعاية ، في القرن الثاني عشر ، قد مارسته في الغالب جمعيات دينية انقادت للضمير وأحسنت اختيار خدام الكنائس ، على الرغم من انها طالبت لنفسها بالقسم الاكبر من مداخيل الكنيسة ، تاركة خدام الرعايا في حالة عوز واملاق. يضاف الى ذلك ان حسن اختيار الاساقفة الذين اهتموا، كل في ابرشيته، لدعوة هؤلاء الخدام لاجتماعات دورية، ولمراقبة الاكليروس الريفي ، قد اسهم في تحسن الاجهزة الدنيا في الكنيسة العلمانية . بيد ان هذا التحسن كان بطيئاً في الحقيقة : فلن تخلو القرى ، لمدة طويلة ، من الكهنة المتزوجين والاميين والبؤساء ، او من الكهنة الجشعين الذين يستثمرون رعاياهم ويحاولون جني الارباح المادية من الخوف السحري الذي يبعثونه في النفوس .

بيد ان تقدماً محسوساً ، هو النتيجة الاخيرة لحركة الاصلاح ، قد بدا ، خلال القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر ، في سلوك العلمانيين الديني . فقد انجلى امامهم ، بصورة خاصة، مفهوم الخلاص : فلأجل خلاص النفس ، كان من الموافق ، في الدرجة الاولى ، التعويض عن الاخطاء المرتكبة ، بعد ارتكابها ، بالحسنات المتوالية ، التي نظر اليها كما الى غرامات قضائية

تدفع للاله لاستعادة راحة الضمير ؛ اما الآن فقد ساد الاعتقاد شيئاً فشيئاً بأن الاعمال وحدها هي ما يعتد به وبأن تطبيق تعاليم الانجيل في الحيـــاة امر مستحسن ، أقله تلك التي لا تتنافى كثيراً واخلاق الفرسان وضرورات الحياة اليومية. ويبدو من جهة ثانية — وهذا هو بنوع خاص الشعور الذي نخرج به حين ننظر الى تطور الايقونات المسيحية — ان الاله امسى اقرب الى البشر، فقد غدا منظره اقل ارعاباً ؛ وأخذ يظهر تحت اشكال الطفل يسوع المليّنة القلب ؛ واتسمت العذابات والمكافآت الموعود بها بعد الوفاة ، بطابع أكثر بعداً عن التجريد ؛ وانتشرت عبادة العذراء ، الوسيطة والمعزية ، لارتباطها في الارجح بدور متعاظم الاهمية لعبته المرأة ، نتيجة لتهذب الاخلاق ، في مجتمع ذاك العهـــد . ومهما يكن من الامر فان نفاذ المواقف والمشاعر المسيحية الى اقل حركة من حركات الحياة العلمانية ، الذي لن يتوقف طيلة القرن الثاني عشر ، هو النتيجة المباشرة لاصلاح المؤسسات الكنسية ولتعيين الاكليروس تدريجياً بمنأى عن التأثيرات الزمنية فغدا ، بفعل ذلك ، اشد تطلباً من نفسه ومن الغير .

الابتغاءات الدينية

ما ان سارت مسألة تنظيم الهيئـة الكنسية واستقلالها حيال العادات الاقطاعيـة في طريق الحل حتى طرحت تدريجياً مسألة اخرى اعظم اتساعاً وسمواً ، هي موقف رجال الكنيسة من ثروات هذا العالم . هـذه معضلة جديدة اثارها مباشرة تبـدل الظروف الاقتصادية ، ونمو حركة المقايضات والتداول النقدي، وازاء الغرب . فان حرمان الاسياد والعلمانيين من حق التوليـة لم يكن لعمري ، بالنسبة لافراد الاكليروس الواعين واجباتهم ، سوى خطوة اولى : اذ ان تحرير الكنيسة يجب ان يكون كاملاً ويتميز بعود الى « الحياة الرسولية » والى طرائق المعيشة في جماعات النصرانية الاولى . ولا يكفي من ثم ان يكون الاساقفة افضل اختياراً وعلماً واخلاقاً؛ فحتى يتمكنوا حقاً من تأدية رسالتهم الراعوية، يحسن ايضاً ان يتخلصوا ويخلصوا اعضاء إكليروسهم من كافـــة الاطماع الزمنية والسعي وراء السلطة ومحبة البذخ . اما الحياة الرهبانية فمن المستحسن ، بدون شك ، ان تكون أكثر انعزالاً عن التأثير العلماني وان تنظم تنظيماً أشد صرامة عن طريق التقيد بالقانون تقيداً صحيحاً ؛ ولكن هذا ليس بجوهر الامر: اذ يجب بنوع خاص ان تقود الى الزهد التام في الشؤون الدنيوية، لا سيما وان اناساً كثيرين اخذوا ينتقدون رغد عيش « الكلونيين » ؛ فقد تكونت في « كلوني » ارستوقراطية رهبانية ماشت البيئة الاقطاعية والتقسيم المجتمعي مماشاة تامة . ولكن الناس قـد تساءلوا عما اذا كان يحسن بالراهب ان يعيش حياة الاسياد ، في ابنية فخمة ، ويرتدي الملابس البذخية ، ويأكل افخر المأكولات ويتباهى ببحبوحته ويحرص على تأمينها . فنشأ من ثم ، في القرن الحادي عشر ، تيار تأصل في التيار الغريغوري ثم تجاوزه قوة ؛ واستهدف اصلاحاً اعمق جذوراً ليس في اجهزة الكنيسة فحسب ، بل في روح الكنيسة نفسها ايضاً .

برزت هذه النزعة في كل مكان ؛ وحتى عنـد العلمانيين انفسهم ، وبنوع خاص لدى طغام الناس في المدن ، السريعي التأثر ، بسبب نشاطاتهم المهنية ، بالمعاضل الاقتصادية ، والعارفين

خير معرفة بخطر الثروات ، والحذرين ايضاً من ثراء الاحبار الذين يستطيعون مشاهدتهم عن كثب والذين تقف ادعاءاتهم بالسلطة الزمنية وقوفاً مباشراً في وجه توقهم الى الحرية . وليس من النادر ، خلال صراع التكتلات البورجوازية ، انتقاد ثروة الكنيسة ؛ وهكذا فقد نمت في مدن لومبارديا ، عند اولئك الذين اطلق عليهم بسرعة اسم « الباتاران » ، حركة قوية غايتها تحقيق فقر الاكليروس ؛ واستوحى الشعور نفسه المهيج « ارنو دي بريشيا » الذي حرض بورجوازيي روما ، في منتصف القرن الثاني عشر ، على السلطة البابوية . الا ان كهنة كثيرين قد شعروا هذا الشعور ايضاً وتأملوا ملياً في هذه المعضلة وبحثوا عن حلول عملية لارضاء هذه الرغبات . فبرزت هنالك نزعتان : احداهما تعود الى الحياة النسكية ، أي الى حياة أكمل عزلة واعظم تقشفاً؛ بينما تقود الثانية الى الاملاق ، وليس المقصود بذلك « فقر » « كلوني » فحسب، الذي وفق بين الزهد الفردي والثراء الجماعي ، بل الفقر الحقيقي، أي فقر آباء الصحراء ، ايضاً.

الجمعيات الرهبانية الجديدة

بدأت مثل هذه المحاولات باكراً جداً ، أي بعيد السنة ١٠٠٠ ، في الكنيسة العلمانية ، ولا سيما في غاليا الجنوبية وايطاليا حيث كانت تكملة مباشرة للعمل الذي قام به القديس « روموالد » بغية تجديد الحياة الرهبانية : فقرر بعض الكهنة ، دون التخلي عن خدمتهم الروحية ، الابتعاد اكثر فأكثر عن العالم ، واتفقوا على التجمّع بغية سلوك حياة مشتركة في الفقر، كأولئك الذين تجمعوا في « سان - روف » (١٠٣٩) في أبرشية فالنسيا. فشجع هذه المبادرات خيرُ الاساقفة فضيلة، وساندها بطرس داميانوس احد عظام رسل الاصلاح ؛ وأكب الغريغوريون على استحداث مبادرات جديدة مماثلة . تعددت جمعيات الاكليروس شيئاً فشيئاً ، وعاد كهنة مجالس الكاتدرائيات ، على مثالهم ، الى النظام الذي كان قد فرضه عليهم ، في العهد الكارولنجي ، « بنوا دانيان » : فان هذه الجمعيات الارستوقراطية ، التي سلك افرادها ، وجميعهم ابناء اشراف يمتلك كل منهم قسماً وافراً من سيادة كنيستهم ، حياة حرة جداً في مسكنهم الخاص ، تحولت هنا وهناك الى جمعيات حقيقية تخضع لبعض التقشف . غير ان كهنة علمانيين آخرين قد تاقوا الى حياة اكثر املاقاً : فقد فرض « غليوم دي شامبو » والقديس «نوربير» على التلاميذ الذين تهافتوا عليهم في « سان - فكتور » في باريس ، وفي بريمونتريه ، في اوائل القرن الثاني عشر ، قانوناً صارماً جداً مستوحى من ثلاثة مؤلفات للقديس اوغسطينوس ، (وتبرز هنا ايضاً النزعة الخاصة بهذا العهد ، اعني بها التصميم على العودة ، من وراء العهد الكارولنجي الذي استقرت فيه الكنيسة في العالم استقراراً فيه الكثير من سعة العيش ، الى تقاليد المسيحية الاولى) . لم يكن «الفكتوريون» و«البريمونتريون» ملزمين بالفقر التام والحياة المشتركة فحسب ، بل بالسكوت ايضاً والعمل اليدوي والاحتفال الطقسي ، وسلوك حياة مادية فقيرة جداً ، فعاشوا من ثم في الواقع عيشة الرهبان ؛ ولم يتميزوا لا بفارق واحد: لم يلزم الكهنة القانونيون بالحياة الرهبانية على الرغم من انتمائهم الى الاكليروس؛

فان رسالتهم الاساسية ، التعليم والوعظ، هي في العالم ، ولذلك فانهم قد اسهموا بنشاط في نهضة الاكليروس العلماني والعلمانيين ادبياً .

تأثر العديد من الرهبان كذلك بقراءة آباء الصحراء – وكان النساك الايطاليون اول من بدأ هذه الحركة ايضاً في اواخر القرن العاشر – فرغبوا في سلوك حياة منعزلة والاهتداء الى الفقر الانجيلي . ونحن نرى في عدم ارتياحهم للتفسيرات التي تناولت قانون الرهبانية البندكتية منذ العهد الكارولنجي تعليلاً لنجاح المصلحين الذين اسسوا ، قبلئذ « كلوني » ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، جمعيات قوية جديدة . وتجدر الاشارة الى ان اتجاهاتها كانت مختلفة على كل حال : فهنا يبحثون عن الزهد التام بالعالم، كما هي حال جمعية « غرانمون » التي أسسها « اسطفان دي موريه » في السنة ١٠٧٤ والتي يتوجب على افرادها ان لا يقتنوا أية ثروة زمنية ، حتى ولا ارضاً للزراعة ، وان لا يمارسوا أي عمل ، فاضطروا بالتالي لأن يستعينوا بمساعدين يكونون رهباناً من الدرجة الثانية ويكلفون جمع الصدقات لتأمين معاشهم اليومي ؛ اما هناك فقد شدّدوا على فكرة العزلة ، كما هي الحال في الجمعيات الكرتوزية التي أسسها القديس « برونو » وتلاميذه في الصحارى القائمة وسط الجبال والتي ضمت نساكاً يجتمعون بين وقت وآخر لحضور القداس ويقضون معظم حياتهم في السكوت والورع داخل قلّية فردية .

الا ان الجمعية الجديدة التي عرفت اكبر نجاح والتي تأسس مركزها « سيتو » ، في السنة ١٠٩٩ ، على يد « روبير دي مولسم » ، قد اعتمدت عادات اعتبرتها مجرّد عودة الى قانون القديس بندكتوس وتقويماً للانحراف الكلوني ، فجمعت بين العزلة والفقر وحققت التوازن بين النزعتين . العزلة عن العالم اولاً : اقام السيسترسيون ، شأن الكرتوزيين ، بعيداً عن الاماكن المأهولة ، في قلب الغابات والوديان المستنقعة . الا انهم اعتقدوا بأن اضمن وسيلة للاهتداء الى الله هي الانصهار في جماعة ، فعاشوا حياة مشتركة صافية في خورس الدير ومائدته ومنامته . والاملاق التام ثانياً : فقد ألصق بالموجبات البندكتية مفهوم تقشفي جداً ؛ وكل رغد في المأكل والملبس قُبِل به في كلوني رفض هنا رفضاً باتاً؛ السيسترسي يحتقر جسده ويسيطر عليه. الا ان العائلة الرهبانية قد اقتنت ممتلكات عقارية لأن في ذلك ضمانة استقرارها واستقلالها . وانما حظر عليها ، بالمقابلة ، استيفاء الواردات على انواعها ، سواء كانت هذه الواردات محصول الاعشار ام اتاوات المستثمرين، ام خدمات الاتباع الشخصيين ؛ فللاخوة ان يستحصلوا من الارض بأنفسهم على غذائهم ؛ وجمع كل دير ، في وحدة عمل وثيقة ، رهبان الخورس ، المنتسبين الى الاكليروس او الارستوقراطية ، وهم اوسع ثقافة ومقيدون بتمارين روحية كثيرة ، والمساعدين ، أي افراد الطبقة الدنيا الميّالين الى الحياة الرهبانية الذين لا يقدمون سوى عملهم لخدمة الله ويؤلفون اليد العاملة القوية . ويفسر ارتفاع كثافة السكان من جهة ، ولا سيما ضرورة عزل حياة الروح عن عالم طغت عليه الرغبة في جني المكاسب طغياناً متزايداً ، غرابة تكاثر جمعيات الكهنة والرهبان الجديدة ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، ولا سيما السرعة الفائقة في امتداد الجمعية

السيسترسية بفضل صفات نادرة تحلى بها احد اعضائها، برناردوس ، رئيس دير «كليرفو» ، الذي كان صوفياً ورجل عمل معاً ، وواحداً من عظام ذاك العهد .

ولكن الجهود في سبيل تأسيس كنيسة اعمق حياة روحية قد امتدت الى ابعد من ذلك ايضاً . فقد انتهى بعضهم ، في صراعهم ضد الزمنيات ، أي المادة ، الى اعتبار هذه الاخيرة مبدأ يناقض الخير ، والى الالتقاء بالمفاهيم المانوية ، نذكر منهم في ذاك العهد «بيير دي برويس» و « هنري دي لوزان » اللذين استمالت تعاليمها ، على الرغم من حكم السلطات الكنسية عليها ، اتباعاً مقتنعين ، لا سيما في فرنسا الجنوبية . فساد الشعور في كل الاوساط ، في الشعب كما في أكثر دوائر الاكليروس العالي ثقافة ، بأن المحاولات التقوية الحارة تتعرض لخطر الزيغان عند حدود الايمان القويم . فقد بدأ في الكنيسة الغربية زمن الهرطقات ، والصراع ضد ضلال العقل، والمجامع التي يضطر فيها المفكرون الجريئون الى التراجع عن اقوالهم ، وقد بلغ من القديس برناردوس الجهد في اعادة الوحدة الى جسم الكنيسة الذي مزقته الخلافات العقائدية الاولى . اما سبب هذا الاضطراب فهو ان الكنيسة لم تمس اسيرة نظام جماعي يفرض معتقداً مشتركاً ، وحريصة على العودة الى الحياة الرسولية والهرب من غواية الثروات فحسب ، بل اوسع علماً وأقوى حجة ايضاً. ان الاضطراب في اوائل القرن الثاني عشر لدليل نضج فكري لا مراء فيه.

٥ ـ النهضة الروحية : الحركة الفكرية

ان لانطلاقة النشاطات الفكرية والحياة الادبية ما يبررها : فالبحبوحة المتزايدة والتحرر التدريجي حيال المشاغل المادية والاطماع الزمنية أتاحا لرجال الكنيسة الانكباب بكليتهم على رسالتهم الخاصة ، اعني بها عمل الفكر . اضف الى ذلك ان امتداد نشاط الفروسية الغربية قد شجّع الاتصالات بحضارات الشرق ، فاستحضرت من سوريا وآسيا الصغرى مخطوطات عربية ويونانية ؛ وفي اسبانيا المستعادة ، ولا سيما في طليطلة ، وفي ايطاليا ، في بيزا ، وروما ، وسقليا ، ودير جبل كسّينو ، المركز الامامي للحضارة اللاتينية ، الذي اعيد تأسيس مكتبته في منتصف القرن الحادي عشر ، أكب المترجمون على وضع هذه المؤلفات في متناول الكهنة الناطقين باللغة اللاتينية .

المدارس

بتوفر هذين السببين تبدلت الاطارات المادية، أي المدارس، والاطارات الفكرية، أي برامج الدراسة ونظم الفكر ، التي اطبقت على الحياة الفكرية منذ النهضة الكارولنجية . كانت الاديرة حتى ذاك العهد اعظم المراكز نشاطاً ، وما زالت بعض المدارس الرهبانية ، في القرن الحادي عشر، على جانب كبير من النجاح، كمدارس الاديرة في «سواب» ومدرسة دير « بيك » في نورمنديا . وعلى الرغم من ذلك فان اعظم المراكز حياة آنذاك كانت علمانية وازدهرت في جوار مجالس كهنة الكاتدرائيات، في « لياج » و « تور » و«انجيه»

و « المان » و « شارتر » التي لمعت مدرستها ، بعد ان احياها فولبير تلميذ روما ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، طيلة القرن الحادي عشر ، وباريس اخيراً التي تخطت مدارسها حدود المدينة نحو منحدرات جبل القديسة جنفييف وغدت في اوائل القرن الثاني عشر مكان اجتماع خيرة علماء المنطق المسيحيين الغربيين . افضى انتقال المدارس هذا من الاديرة المنعزلة في الارياف نحو المدن الاسقفية ، وهو ظاهرة وثيقة الارتباط ايضاً بتوسع المدن وانتشار الاقتصاد النقدي ، الذي حرّر رجل الفكر من جمعيات الانتاج ، أي من الاديرة الريفية ، الى جعل مؤسسات التعليم أعظم انفتاحا وأكثر حرية ؛ فبات باستطاعة المعلمين تلقين دروسهم جنباً الى جنب دونما تقيد بنظام مشترك ؛ وغدا باستطاعة الطلاب الانتقال من معلم الى آخر ومن مدينة الى اخرى ـ وقد احصوا ، مع الحجاج والتجار ، بين مستخدمي الطرق التي نمت حركة السير فيها ـ وكان هذا التنوع نفسه مثمراً مخصاباً .

اضف الى ذلك ان آفاقاً فكرية اعظم اتساعاً قد انفتحت امام المستمعين الذين يجلسون على الارض المغطاة بالموص ويصغون الى « الدروس » ، أي القراءات التي يشرحها المعلمون ، ويدونونها هم بايجاز . كان درس الفنون العقلية السبعة يؤلف جوهر العمل المدرسي الذي كان مجرد مخالطة سلبية وسطحية لبعض النصوص المقدسة او غيرها وتأمل بطيء في « المراجع الكبرى » ؛ فلم يكن باستطاعة رجال الفكر ، بعد مثل هذه الثقافة ، وحين يضطرون للانتاج ، الا جمع ذكرياتهم الدراسية دون منطق واحكام . الا ان تقدماً مزدوجاً قد احرز منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر : فقد دُرّست الفنون العقلية باعتماد طرق افضل ، ولم يعد لها ، خصوصاً ، بالنسبة للعقول النيّرة ، سوى دور تحضيري في حلقة الدروس .

تميز التقدم في المواد القديمة ، اللغة والبيان ، بتليّن ادوات التعبير . الا ان اللغة اللاتينية ، وهي لغة حية حقيقية لكافة رجال الكنيسة ، وقادرة على التعبير عن ادق الافكار ، قد حافظت على نقاوتها كاملة لأنها امست ، ببعدها عن الالسن الشعبية ، بمنأى عن إعدائهم ، وخصوصاً لأن مطالعة كبار مؤلفي العهد الكلاسيكي انحصرت تدريجياً في حلقات ضيقة . فحدثت في أوائل القرن الثاني عشر « نهضة » جديدة ، هي مجهود اختياري في سبيل العودة الى ثقافة العصور القديمة الكلاسيكية عن طريق دراسة خير مؤلفاتها الادبية ؛ فتناول الشرح ، في المدارس العلمانية ، « فرجيل » و « اوفيد » و « لوكان » و « هوراس » ، لا كأمثلة لغوية ممتازة فحسب ، كما في السابق ، بل باعجاب وتعطف عميق . فتحرر المعلمون والتلاميذ تحرراً كاملاً من ذاك الحذر الذي ابداه معظم المفكرين المسيحيين بصدد المؤلفين الوثنيين ؛ وجعلوا منهم غذاء روحياً ، فاستندوا طوعاً ، مثلاً ، لحل المعاضل الاخلاقية ، وحتى المعاضل التي واجهوها في علائقهم بالخالق ، الى كتاب « الصداقة » لشيشرون والى رسائل «سينيكا» . ورافق مخالطة الكلاسيكيين هذه تصنع في الانشاء ؛ ويلفت الانتباه انشغال رجال الكنيسة في القرن الثاني عشر بالمهارة الادبية ؛ فقد هذبوا الرسائل التي وجهوها الى أصدقائهم ، وألّفوا مجموعات رسائل اخرى على

الطريقة الشيشرونية معـــدّة للنشر ؛ ودرج رئيس دير « كلوني » ، « بطرس المحترم » ، على طلب الراحة من متاعب وظيفته بكتابة قصائد رقيقـة الصيغة والنظم برفقة اوسع مرؤوسيه ثقافة ؛ كما ان القديس برناردوس ، الزاهد ، الذي كان يؤكد مازحاً لأبنائه في دير « كليرفو » انه لا يعرف معلماً افضل من اشجار الغابات ، قد كتب عظاته وأبحاثه الصوفية في لغة مليئـة ببيان رفيع . الا ان هذا الميل الى التصنع قد رافقه تقدم محسوس في الثقافة الحقيقية ؛ واذا ما استندنا الى النتائج ، للحكم على أساليب تعليم الفنون العقلية كما طبقت في مدارس شارتر وباريس، جاز القول بأنها حسنة ، وقادرة، بتوجيهها الادبي، على بعث الشغف بالادب والايغال في معرفة القلب البشري .

غير ان هذه الدروس قـــد اعتبرت آنذاك مجرد اطلاع أوّلي وتحضير لاستكشاف حقول جديـــدة . فبدون ان نتكلم عن لهجة غدت اعظم ذاتية ، ومحاولة اقناع وفراسة بدت آنذاك في المؤلفات الادبية البحتة التي توغلت بعيداً ، ككتاب « أبيلار » « تاريخ مصائبي » او رسائله الى « ايلويز » ، في التحليـــل السيكولوجي ، او حاولت درس الانظمة السياسية ، ككتاب « جان دي ساليزبوري » ، « الحاكم » ، نرى ، منذ اواخر القرن الحادي عشر ، تقدماً سريعاً في بعض المواد الدراسية التي لم تكن حتى ذاك العهد سوى ملاحق غير ذات شأن للفنون العقلية — بعض العلوم العملية التي لم يكن لها مكان في حلقـــة الدروس العادية للاعداد الكنسي البحت — كاللاهوت و « أمته » التي اخذت تتحرر شيئاً فشيئاً : اعني بها الفلسفة .

العلوم واللاهوت والفلسفة

ساعدت العلائق الودية بالعالم العربي على تحقيق التقدم في حقلين من حقول المعرفة : علم مجرد اولاً ، الرياضيات ، الذي درّسه جربير في كاتالونيا منذ اواخر القرن العاشر ، واندمج تدريجياً في برامج التعليم المعتمـــدة في « شارتر » و « لان » ، والذي ساند التعمق في دراسته جهود اصحاب النظريات الموسيقية وأتاح الاكتشافات الهندسية الرومانية ؛ وعلم تقني ثانياً ، الطب ، الذي اقتبست طرائقه عن مفسّري ابقراط من المسلمين، وانتشرت بواسطة مدارس خاصة اسست على مقربة من الحدود الاسلامية ، كمدارس « ساليرن » التي اشتهرت منذ القرن العاشر ، ومدارس « مونبلييه » التي تأسست في اوائل القرن الثاني عشر . وهنالك ابحاث اخرى تخطت اطار الفنون العقلية السبعة ، اعني بها ابحاث الحقوقيين . فقد دفع اليها ، في آن واحد ، نمو المقايضات التجارية وتوسع المدن ، اللذان اوجدا صعوبات قانونية لم يكن العرف الاقطاعي ليستطيع حلها ، ومشادة التوليات التي أدت الى تصحيح المجموعات القانونية ووضع جدول عام بالمراسيم بغية تمكين الادعاءات البابوية . وهم الايطاليون بنوع خاص من قام بهذه الابحاث التي سارت في اتجاهين : نحو درس القانون الروماني بتفسير « المجموعة » ، الذي تواصل في « رومانيا » بنوع خاص ، في المقاطعة اللاتينية الـــتي خضعت لأطول سيطرة بيزنطية ، في « رافنّا » اولاً ، ثم في مدارس بولونيـا التي أشهرها ، في اوائل القرن الثاني عشر ، إرنيريوس مفسّر النصوص المبهمـة ؛ ونحو وضع الحق القانوني نهائياً

بالتقريب بين المقترحات المختلفة الواردة في مجموعات المراسيم ، وهو محاولة توفيق افضت حوالي السنة ١١٤٠ الى « مرسوم » غراتيانوس .

بيد ان اعظم تقدم تحقق آنذاك في الحقل الفكري هو تقدم المنطق والبحث العقلي المطبق على المسائل اللاهوتية . ما زالت الفلسفة ، في القسم الاول من القرن الحادي عشر ، مجرد تمرين ثقافي تابع للجدل ومعدّ لترويض عقل الطلاب ؛ وهكذا يفسّر المعلمون امامهم ، في مدارس شارتر ، بعض النصوص التي تعكس المذهب الافلاطوني، وبعض الصفحات من مؤلفات سينيكا، وبعض ابحاث « بويس » و « جان سكوت » ؛ ثم يثيرون النقاش بطرح المسألة التي استهوت مفكري ذاك العصر ، أعني بها مسألة حقيقة « المثل العامة » . ولكن هذه التمارين العقلية ما زالت بعيدة كل البعد عن المشاغل الدينية : فالمسيحي آنذاك يحاول الاقتراب من الخالق بواسطة المحبة لا بواسطة مجهود عقلي . الا ان الحاجة قد برزت حوالي السنة ١٠٧٠ ، بفعل نمو المعارف والرشاقة المتزايدة في القوى العقلية، لا الى مناقشة مضمون الوحي، بل الى التعمق فيه بالبرهان: فلم يعد الاله ، بالنسبة لكهنة الجيل الجديد ، محبة فحسب ، بل حقيقة ايضاً ، وانما على العقل بني تشابه الانسان به ؛فشرعوا من ثم يدرسون العقيدة درساً عقلياً ؛واخذ ايمانهم يبحث عن التفهم. اما هذه الكلمة « الايمان يبحث عن التفهم » فقد قالها السيد « انسلموس » (١٠٣٣ – ١١٠٩) رئيس دير « بيك »، ثم رئيس اساقفة « كنتربري »، وهو من شق الطريق امام اللاهوت العقلي، الوثيق الارتباط بالفلسفة ، الذي تقوم مهمته بالتوفيق بين الوحي والعقل . فطبقت طرائق الجدل على قراءة الكتب المقدسة ومؤلفات الآباء وبدّلت منها الطابع تدريجياً . وتعاظم رويداً رويداً دور التفكير الشخصي ؛ اجل ما زال القارىء يستند الى المراجع التقليدية العظمى ، ولكنه تصرف حيالها بمزيد من الحرية ؛ وحل محل الشرح الانتقادي والتفسير الحرفي بفضل « انسلموس دي لان » ، تلميذ القديس انسلموس ، وأحد مشاهير المدرسين ، « الحكم » ، أي مجموعة مقاطع الكتاب المقدس والآباء المتعلقة بهذه النقطة الهامة او تلك من العقيدة . وعن الحكم صدرت « المسألة »: فاذا ما برز خلاف بين المراجع المتقابلة، يعود الى المنطق امر التوفيق بينها، فيلعب العقل آنذاك، وهو ابداً في خدمة الايمان، دوراً اساسياً في البحث عن الحقيقة . وهكذا تأسست الطريقة المدرسية (*Scolastique*) في غضون جيلين من الزمن .

لم تلبث اخطار تحرر القوى البشرية هذا ان ظهرت ، لا سيما في تعاليم بيير ابيلار في باريس وفي مجموعة المسائل التي وضعها تحت اسم « هكذا وكلا » . افليس احترام النصوص المقدسة والايمان نفسه مهددين الآن بجسارة بعض المعلمين العلمانيين الواثقين من حجتهم وطاقاتها؟ فارتسمت منذ ذاك الحين ردود الفعل الاولى ضد الجدل : لقد تصدى القديس « برناردوس » و « هوغ دي سان فكتور » – وهما « نظاميان » يمثلان خير تمثيل اولئك الذين يسعون وراء التواضع والفقر ويتوقون الى الاهتداء الى روحانية الكنيسة الاولى والعودة الى الحياة الرسولية ، ويستندون ، في سبيل ذلك ، الى العهد القديم والقديس اوغسطينوس والآباء اليونانيين – للاهوتيين العقليين ،

وقابلوهم بالطريقة الصوفية معتبرين ان المحبة هي السبيل الحقيقي الذي يقود الى الله ، وقد وجدوا ، في طريق التأمل هذه ، عوناً في التعبد للعذراء الوسيطة . وفي السنة ١١٤٠ توصل رئيس دير « كليرفو » ، في مجمع « سنس » ، الى استصدار حكم على بعض اقتراحات جسّارة تقدم بها ابيلار ، الذي خارت عزائمه فهجر العالم ؛ وفي مجمع « رمس » الذي انعقد في السنة ١١٤٨ توصل ، بعد نقاش طويل ، الى حمل المعلم الباريسي « جيلبير دي لا بوريه » على التراجع عن رأيه . ولكن هذه الانتصارات تحققها الروح الرهبانية ، وهذه العقوبات، وهذه الاذعانات، وهذه التضحيات يقدمها كبار المفكرين في سبيل وحدة الكنيسة ، لم تكن لتنتقص من نشاط الابحاث المنطقية . فما زال عدد الطلاب يتزايد باطراد في مدارس باريس حيث يجتمع اعظم الجدليين مهارة وحيث يكتمل بناء اول مذهب بين المذاهب الفلسفية الكبرى في الغرب .

الشعراء المتجولون والاغاني الايمائية

لم يبقَ النشاط الفكري في الكنيسة دونما صدى في ارفع طبقات المجتمع العلماني التي وسعت آفاقها وهذبت أذواقها الحملات العسكرية النائية ؛ فقد نشأ وازدهر ادب مكتوب باللغة العامية معد لتسلية اولئك الذين لا يستطيعون الاطلاع مباشرة على المؤلفات اللاتينية . ثم جمعت في اواخر القرن الحادي عشر ، خدمة لأعضاء طبقة الفرسان ، وبمساعدة ادباء محترفين ، من الكهنة في الارجح ، او اقله من خريجي المدارس الكنسية ، قصائد وأناشيد تناقلها الناس شفهياً حتى ذاك العهد . وكان ثمة مركزان رئيسيان يقابلهما وحيان مختلفان. ففي الأكيتين ، انشدت ، في الاجتماعات الاقطاعية التي تختلف اليها السيدات الارستوقراطيات ايضاً ، قصائد قصيرة باللهجة الجنوبية من نظم بعض الأسياد في الغالب (اول هؤلاء الشعراء المتجولين النبلاء هو دوق اكيتين « غليوم التاسع دي بواتيه ») تدور حول موضوع أساسي هو العلاقة الحبية . ان هذه العاطفة ، وقد كانت في الاصل شهوانية جداً وموصوفة بوقاحة ، تخلت شيئاً فشيئاً عن شهوانيتها ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، وتبدلت تحت تأثير العادات الاقطاعية والروحانية المسيحية ، وغدت تفانياً على بعض اللبس في سبيل السيدة المختارة ، « البعيدة » بالتفضيل وبصورة عامة . وفي الوقت نفسه ازدادت القواعد والاوزان الشعرية تعقيداً ودقة .

اما في شمالي فرنسا ، فان مجتمع الفرسان ، وهو اكثر ميلاً الى الحروب منه الى الحياة العالمية ، قد آثر الملحمة العسكرية ، اذ قد تأخر هنا ارتقاء المرأة في حياة المجتمع العالي الذي يعبر عنه الهام الشعراء الغنائيين الناطقين باللغة الشمالية ، واتساع العبادة المريمية ، او نشاط الصوفي « روبير داربريسيل » الذي أسس جمعية راهبات في « فونتفرو » في السنة ١١٠١ ؛ فأشيد بالفضائل النبيلة ، البسالة ، والامانة للمسيح والانسباء ورفاق الحياة الاقطاعية ، في قصائد مسجعة متعاقبة طويلة يواجه ابطالها من الشخصيات التاريخية في العهد الفرنجي معاضل راهنة ، كالصراع ضد « الوثنيين » المسلمين او متناقضات الاخلاق الاقطاعية ؛ وقد جاءت بعض هذه الاغاني الايمائية ، ولا سيما اغنية « رولان » ، على جانب كبير من الجمال العنيف احياناً ، وهي

من نظم فنانين عظام انقادت لهم التقنيات الادبية . وفي الثلث الثـاني من القرن الثاني عشر ، بينما توثقت الروابط ، بفعل اتساع حركة المقايضات الشامل ، بين المناطق الشماليـــة والمناطق الجنوبية ، وبينما اخذت العادات الجنوبية تدخل الى بلاطات شمالي « اللوار » بفعل زواج لويس السابع ، ملك فرنسا المقبل ، من « اليانور » ابنة دوق « الاكيتين » ، تسربت الى ادب فرنسا الخشن ، مواضيع الشعراء المتجولين الحبيـــة التي توسع فيها وحسّنها بعض الكهنة المعجبين بـ « اوفيد » . وتكون في الوقت نفسه ، تحت تأثير النهضة الادبية والمقتبسات الشرقية ، لون جديد للقصة القديمة تشابكت فيه ، تمشياً مع تطور الذوق ، حول شخص الاسكندر او « اينيوس » ، المغامرات الحربية والدسائس العاطفية .

٦ ـ النهضة الروحية : الازدهار الفني

ان محاولات مهندسي العمارة والرسامين والنقاشين ، التي لم يوقفها الانحطاط الكارولنجي ولا الغزوات ، قد افضت اخيراً ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، الى تكوين نمط عظيم . كما ان تسهيلات التنقل ، التي أتاحت سرعة انتشار التقنيات المهنية ومواضيع الالهام ، والتقـاء الفنانين التقاء متكرراً ومقابلة نتائج اختباراتهم ، قد شجعت هذا الازدهار الحاسم الذي بعثه كذلك تقدم الدروس ، والمعارف الرياضية بنوع خاص ، واثراء المؤسسات الرهبانية الكبرى : فاستخدمت الاموال الناتجة عن بيع فائض الحصائد وحصيلة الاعشار والاتاوات على الاراضي المستثمرة ، لنقل مواد البناء وتعهد البنائين ، بينما أتاحت حركة التداول النقدي المتزايدة نهضة المصانع الفنية الاختصاصية . الا ان النشاط الفني قد بقي سائراً في الاتجاه نفسه : خدمة الله والاحتفاء بمجده عن طريق تجميل الكتاب المقدس ، ولا سيما المعبد . فلسنا نشاهد بعد ، كما هي الحال في الادب ، فنانين يلبون طلبات الزبن العلمانيين ؛ لذلـــك فقد بدت النهضة في تشييد وتزيين الابنية الدينية المختلفة الاحجام ، ابتداء من الكاتدرائيات حتى اوضع المعابد الريفية . بيد ان ارحب الابنية هي الابنية الرهبانية : ففي الاديرة البندكتية ، حيث استمر تقليد اوجده « بنوا دانيان » ، لا سيما فروع جمعية « كلوني » ، دفع الحرص على تحقيق « عمل الله » كاملاً ، بالرهبان ، الى تكريس معظم مواردهم النقدية لعظمة أماكن العبادة . فبعثت هـــذه المشاريع الكنسية فناً بنائياً هو الفن « الروماني » الذي يتميز في الهندسة بشمول استعمال العقود ، وفي التزيين بالعودة الى النقاشة الكبرى التمثيلية والبنائية .

هندسة العمارة « الرومانية »

ظهرت الدلائل الاولى لنهضة هندسة العمارة في السنة ١٠٠٠ في الوقت نفسه الذي حدث فيه تقدم الرياضيات ، وقـــد لاحظها المؤرخ « راوول له غلابر » ؛ وان تنويهـــه « بالمعطف الابيض من الكنائس الجديدة » الذي التحفته الارياف الغربية آنذاك لذو شهرة حلال . الا ان الابنية التي ارتفعت في السنوات الاولى

من القرن الحادي عشر بقيت بسيطة وعابسة وعارية ، ولم تتطور الطرائق المعتمدة في العهد الكارولنجي الا بكل بطء وتردد . فتصميم المعابد لم يتحول : اذ ان المستحدثات الرئيسية (اضافة الكنيسة السفلية والصحن المحيط بالخورس والنارتكس أي جناح الموعوظين) قد حققت في القرن الحادي عشر ، اشباعاً لحاجات الطقس الجديدة . اما المعضلة التي سعى الفنانون آنذاك لحلها فهي معضلة الغماء؛ فحاولوا نشر العقود فوق كافة اقسام الكنيسة، ولا سيما الصحن الوسطي الكبير ، بعد ان كانت محصورة في الاقسام الضيقة المتينة من البناء ، كالسرداب ، والطابق الارضي من المدخل الذي يعلوه برج الاجراس ، وصدر الكنيسة فوق المذبح . وتوجب عليهم من ثم ايجاد طريقة تمكنهم من تحميل جدران الكنيسة حجارة وملاطاً اثقل وزناً الى حد بعيد من وزن الهيكل الخشبي المعتمد تقليدياً في الكنائس الكبرى . اجل لقد توفرت لهم بعض عناصر الحل : اذ ان المهندسين الكارولنجيين قد استعاضوا عن العمود بالركيزة واستعملوا الدعائم الخارجية للجدران . ولكن ما زال امامهم تطبيق هذه التدابير الجزئية على المساحات الكبيرة . فتميزت مراحل محاولاتهم بالفشل المتكرر وتطأطؤ عقود الصحن او انهيارها ، كما ورد في اليوميات الرهبانية . وقد ظهرت الصحون المعقودة اولاً ، على ما يبدو ، في كنائس الارياف الوضيعة الضيقة المظلمة المحفورة في الصخر ، في مناطق استوريا ، ثم في جبال البيرينيه الكاتالونية . وانتشر شيئاً فشيئاً استعمال الاقواس المتوازنة المتقاربة في العقود المستديرة التي ترسي معظم ثقلها على ركائز تساندها الدعائم من الخارج ؛ ثم استعمال العقود المستديرة المتقاطعة التي تحول ضغطها الى اركان الزوايا الاربع ؛ ثم استعمال القبة ، وقد امتدت على اقواس صغرى في الزوايا او على الاقواس الكبرى، وقد اتاح ذلك اسناد غماء الكنيسة الوسطى الى الاقسام الضيقة الاربعة المحيطة بالوسط ؛ واكتشفت تدريجياً اخيراً كل الحلول المعدة لاسناد العقود بعضها الى بعض . ولنا على هذه المحاولات وهذه التجارب، الموفقة او الفاشلة ، التي استغرقت القسم الاكبر من القرن الحادي عشر ، امثلة كثيرة في بعض الابنية المعقدة ، كدير « تورنوس » في بورغونيا . فكانت نتيجة هذه الجهود ، حوالي السنة ١٠٧٥ ، ظهور تحف رائعة كثيرة وابتداء عهد العمارة « الرومانية » العظيم .

جاءت هذه الهندسة متنوعة جداً ، فبذلت من ثم محاولات كثيرة لنسبة كنائس هذا العهد الى مدارس اقليمية مختلفة . اجل ان تصميم البناء الجديد الموفق ، الذي يعود فضل نجاحه الى فنان معين ، قد اقتبس تكراراً في عدد من الابنية الثانوية المجاورة ، ولا سيما في المعابد الريفية الصغيرة التي اعتمدت في تشييدها تصاميم هندسية اقل توفيقاً . بيد ان من شأن هذا التوزيع الجغرافي اغفال نشاط المقايضات الاقليمية ، وهو بالضبط الظاهرة التي تميز أواخر القرن الحادي عشر : فالواقع هو ان عناصر مشتركة تتجانب في الكنائس الكبرى المقامة على طريق معينة مطروقة ، كتلك الكنائس مثلاً التي تقع ، بين « تور » وكومبوستيل ، مروراً بـ « ليموج » و « تولوز » ، على احدى طرقات الحج الكبرى الى مزار القديس يعقوب . ونلاحظ كذلك

الالهام نفسه والمبتكرات المتماثلة في بعض الاديرة النائية عن بعضها والتي تجمعها روابط دينية الطابع . لذلك يجب ألا نسقط من حسابنا العلائق الشخصية التي قامت بين رؤساء الجمعيات الكنسية ، وانتقال فرق العمل من مكان الى آخر ، في تفسير هذه التأثيرات المتداخلة التي تبدو في بورغونيا مثلاً حيث ظهرت وتوازت نزعتان متباينتان نشأتا عن النجاحات الاولى المحققة في المنطقة البريونية (نسبة الى *Brionnais*) فأفضت اولاهما الى كنيسة كلوني الكبرى والاخرى الى كنيسة دير فيزلاي . ولكن الواقع الهام هو تنوع الحلول التي تناولت معاضل التوازن : وهكذا فقد تجاورت في « بواتو » الكنائس ذات الصحون الثلاثة المتساوية الارتفاع، والكنائس ذات الصحن الواحد، والصحون الجانبية ذات العقود المستديرة المتقاطعة والصحون الجانبية ذات العقود المستديرة المتوازية ، والصحون الكبرى ، اخيراً ، المسقوفة بالقباب المتلاصقة . وان في هذا التنوع لتعبيراً عن المحاولات الحثيثة والقوة الخلاقة العظمى التي اجتابت الحضارة الغربية كلها قبيل وبعيد السنة ١١٠٠ .

الزخرفة

خضعت تقنيات الزخرفة واسلوبها لتطور أبطأ حركة . ففي النصف الاول من القرن الحادي عشر لم تستخدم سوى الطرائق والمواد المعروفة في العهد الكارولنجي تقريباً : فكان المزخرفون مصورين على الجدران ، او مصوري لوحات مصغرة ، او صاغة . وأنتجت اجمل الزخارف الملونة ، التي تجدد فيها الالهام بدخول المواضيع التصويرية المقتبسة عن الكنائس المسيحية الشرقية ، في معامل « تريف » و « اخترناخ » الجرمانية ، او في اسبانيا الشمالية والاكيتين المتأثرتين بفن النصارى من رعايا دولة الاندلس ، كتلك التي تزين مخطوطات بياتوس في تفسير كتاب « الرؤيا » ، ولعلها اجمل زخارف الكتب الغربية المصورة في القرون الوسطى . اما الفن المعدني فقد حقق اجمل مصنوعاته في المناطق التابعة للامبراطورية ، ولا سيما في وادي « الموز » ، حيث أكمل « رينييه دي هوي » في السنة ١١٠٨ جرن العماد البرونزي في كنيسة « القديس برتلماوس » في «لياج» . الا ان زخرفة الابنية التي تقدمت الابنية «الرومانية» العظيمة قد بقيت زمناً طويلاً في منتهى البساطة : وقد تمثلت في جوهرها ببعض تنضيدات بنائية في الجبهة ، كالطرائد اللومباردية المقتبسة عن الزخارف الخارجية في أبنية « رافنا » . اما الابتكارات الوثيقة الارتباط ببعضها والتي تحققت فجأة في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر ، فهي التالية : تزيين البناء الديني بالاشكال الزخرفية المعتمدة على نطاق ضيق منذ زمن بعيد في الرق والعاج والبرونز ؛ وانطلاقة النقاشة على الحجر التي لم تندثر تقنياتها اندثاراً تاماً في غاليا منذ النواويس الاخيرة المزخرفة المنتجة في المصانع البيزنطية وتيجان الاعمدة الاولى المستعملة في كنيسة «جوار» المدفنية. انها لثورة فنية حدثت في آن واحد في « بورغونيا » حول «كلوني» – ربما تحت تأثير الصياغة الاسبانية وتحت تأثيرات فنية اخرى أكيدة ، لأن الدير الكبير كان آنذاك ، شأنه شأن روما ، قلب المسيحية النابض وأقوى مراكز الجاذبية – وفي « لنغدوك » ، في « تولوز » و « مواسّاك » ، بفضل الاتصال المباشر بالزخارف التصويرية والاشكال الحجرية

في اسبانيا المستردة . فارتبطت الزخرفـــة المنقوشة منذئذ ارتباطاً وثيقاً بنجاحات الهندسة « الرومانية » .

المواضيع التصويرية

انطوت هذه الزخرفة على فن تصويري اولاً : فاذا حافظت المواضيع الهندسية والنباتية في الزخرفـــة البربرية على حيويتها ، واذا تكاثرت وتجددت بفضل المصنوعات الشرقيـــة المستوردة ، فقد غدا الموضوع الرئيسي ، مرة اخرى ، الشكل البشري ، وفي هذا التطور دليـــل عودة الى المفاهيم القديمة ، أي نهضة اخرى ملازمة للنهضة الادبية . ولكنه فن مقدس ايضاً : فليس تمثيل الاشكال في نظر المصور « الروماني » سوى وسيلة لجعل القوى الفائقة الطبيعة محسوسة ، ولا سيما عظمـة قدرة الله الذي يظهر ، في أبهى جلاله ، ديّاناً في الدينونة الاخيرة او في وسط رموز رؤيا القديس يوحنا. وفن تزييني في جوهره اخيراً ، مرتبط بالاطار الهندسي ، تتميز نجاحاته ، بالضبط ، في التوفيق توفيقاً مطرد الكمال بين الاشكال وهندسة البناء . ولم تزخرف في البناء سوى بعض عناصره فقط : تيجان الاعمدة ، ببعض التبسيطات النباتية اولاً ، وببعض مشاهد الحياة التي تملأ الاطارات المخصصة لها تماماً ايضاً، كما في كنائس منطقة «اوفيرنيه»، في كاتدرائية «سان – لازار» في اوتين وفي دير « فيزلاي »؛ والجبهة ايضاً، سواء كانت الزخرفة مجموعة عريضة من الافاريز والنقوش الناتئة التي يتوشح بها الجدار الغربي بكامله ، كما في « بواتو » ، ام تزييناً في الابواب فقط . الا ان الباب الضخم، وهو مجموعة معقدة تتداخل فيها المسطحات المزيّنة والتقببات وصفوف الاعمدة، الذي اخذ شكله النهائي، على ما يبدو، في « كلوني » اولاً، بعد محاولات عديدة في الكنائس البريونية الصغرى ، والذي نسج على منواله في « بروفنسا » بأشكال تستلهم العصور القديمـــة استلهاماً مباشراً ، كان ، دونما ريب ، اجمل ما حققه المزينون في اوائل القرن الثاني عشر .

حدّت انطلاقة النقاشة المفاجئة في تزيين المعبد من دور الرسم الذي بقي رئيسياً حتى اواخر القرن الحادي عشر. ومع ذلك ففي داخل الكنائس، وتحت العقود المستديرة وفوق المذبح وفي اقسام الجدران الواسعة التي تتخللها نوافذ ضيقة ونادرة، ما زالت العصور ترسم بالالوان الممزوجة بالماء والصمغ والآح ، يتبادى فيها المنحى الكارولنجي في الرسم على الجدران ، بحرية احياناً كما في « تافان » ، او بتبسيط وتعظيم على غرار الصور البيزنطية المصغرة .

ان في هذا الازهرار التزييني لأوضح دليل على ازدياد الثروات في الجمعيات الدينية . لذلك فقد تشكى الراغبون في احياء روح الفقر في الكنيسة من الميل الى الزخارف الزاهية : فانتقد القديس برناردوس بشدة النقاشة الكلونية؛ اما السيسترسيون الذين برهنوا في اول عهد جمعيتهم عن حرية رائعة ومهارة عظمى في زخرفة كتبهم ، فقد حظروا كل تزيين في كنيستهم حرصاً منهم على الاملاق التام. ولكن فنهم المجرد الذي استهدف توازن الكتل الحجرية العارية قد حقق مع ذلك اروع جمال ، كما في «فونتناي» او تورونيه؛ جمال صاف ومجرّد منبثق عن علم الاعداد

بفعل ذاك التوافق الموسيقي نفسه الذي رغب القديس « هوغ دي كلوني » في رؤيته ممثلاً ، بشكل رمزي ، على التيجان المنقوشة فوق اعمدة الخورس في « كنيسته الكبرى » .

بيد ان الفن « الروماني » جنوبي في جوهره ، عميق الجذور في المقاطعات التي تأثرت من قبل تأثراً قوياً بحضارة روما ؛ وصنّاعه الاولون هم المصورون الاستوريون والبناؤون اللومبارديون ؛ ازدهر في بروفنسا ولنغدوك وبواتو وبورغونيا ؛ ولم تختلف ركائز الكاتدرائية وأقاريزها، في اوتين وآرل ، عن الزخارف التي تزين الاطلال الرومانية القريبة. الا ان المانيا، في الوقت نفسه ، بقيت أمينة للتقاليد الفنية الكارولنجية ، كما ان الصحون المرتفعة في الكنائس النورمندية لم تسقف بالعقود . وعلى الرغم من ذلـــك فقد جرت في اوائل القرن الثاني عشر محاولات هندسية جديدة في شمالي اللوار : فقد انتشر في « ايل دي فرانس » بين السنة ١١٢٠ والسنة ١١٣٠ استعمال الاقواس المتقاطعـــة التي سبق واستعملت في السنة ١١٠٠ في خورس كاتدرائية « دورهام » ؛ وبرزت حسنات طريقة الغماء الجديدة في بناءين كبيرين ، كاتدرائيـــة « سنس » وكاتدرائية « سان ـ دني » . اما باب هذه الكنيسة الاخيرة ، فقد نقشه ، بناء على اشارة « سوجر » رئيس الدير ، فنانون ربما جاؤوا من لنغدوك ؛ فهو ، بتماثيله ـ الاعمدة ، حاصل النقاشة « الرومانية » واولى آيات فن التمثيل القوطي .

كانت التبدلات الاقتصادية العميقة التي حدثت في السنة ١٠٠٠ اساساً لتقدم فائق السرعة تحقق ، بين السنة ١٠٧٥ والسنة ١١٥٠ ، في كافـــة حقول النشاط البشري . حيوية نابضة ، اخصاب ، وتنوع ايضاً : كان عهد النمو هذا حافلاً بالمتناقضات في السجايا والميول والاذواق . وقد برزت المتناقضات، مثلاً، في اشخاص ثلاثة رجال قاموا بالوظائف نفسها، وظائف مديري الجمعيات الرهبانية ، وتعارفوا وتحابوا ومثلوا معاً وبالتساوي اوائـــل القرن الثاني عشر : « سوجر دي سان ـ دني » ، وهو اداري ماهر ومستشار رشيد للملوك فرنسا ؛ وبيير المحترم رئيس دير كلوني ، وهو اديب رقيق ، متزن وعطوف ؛ وبرناردوس رئيس دير كليرفو ، وهو متقشف وصوفي ومرشد حازم وعنيف للنصرانية .

الا ان هذه التيارات الصاخبة المتباعدة اخذت تهدأ وتتقارب ، في منتصف القرن الثاني عشر ، بعد ان توارى هؤلاء الرجال الثلاثة . فانفتح عهـد جديد امام الغرب المسيحي ، عهد تنظيم وانضباط وتهدئة وكلاسيكية وأبنية كبيرة متوازنة .

الفصل الثاني

انكفاءات الأسلام وبيزنطية وصراعاتهما
(القرن الحادي عشر - القرن الثاني عشر)

ان اللوحة التي نستطيع رسمها للعالم الاسلامي في النصف الاولى من القرن الحادي عشر قد تتميز ، اذا ما قورنت بانطلاقة اوروبا المسيحية ، بالفوضى السياسية والانقسامات الدينية ، وحتى بالانحطاط الاقتصادي في مناطق واسعة من هذا العالم . وتاق المسلمون المتزايدون عدداً ، امام هذه المحن الخطيرة ، الى الوئام والوحدة ، لا سيما وان الحكومات الخارجة على السنة ، كحكومة الفاطميين في مصر مثلاً ، لم تحقق الآمال الموضوعة فيها . فقدر لبعض المغامرين ، الذين ضموا قوة السلاح الى الدعاوة الدينية فحققوا انتصار الدين القويم وأسسوا قوة سياسية جديدة لن تلبث وتثبت قدرتها ، أقلّه على اضعاف او ايقاف توسع المسيحية الغربية . وقد حدثت هذه النهضة ، في آن واحد تقريباً ، في طرفي العالم الاسلامي : في الولايات الغربية – المغرب واسبانيا – بفضل البربر ، وفي الشرق بفضل تدخل القوة التركية .

المرابطون والموحدون

عاشت بين الصحراء الكبرى والسودان قبائل من البربر الرحل اعتنقت الاسلام منذ عهد قريب . فكون منها بعض المبشرين ، في منتصف القرن الحادي عشر ، مجموعة من غلاة المتعصبين شنت على الاوثان من العبيد الحرب المقدسة التقليدية . اقام البربر في اديرة محصنة يدعى الواحد منها بالرباط الذي اشتق منه اسمهم « المرابطون » – « اهل الرباط » – . وأقنعوا ، دونما صعوبة ، بوجوب تنظيف المراكز التي صورها لهم فقهاء المغرب المالكيون كمراكز افساد الاخلاق : فاحتلوا في سنوات معدودات مراكش والنصف الغربي من الجزائر الحالية . ثم استدعاهم الى اسبانيا اولئك الذين أقلقهم ضعف الامراء المسلمين وتخلياتهم في وجه الفتح المسيحي ؛ وصادف ذلك من الجهة المسيحية ، فترة حلول تصلب فرسان ما وراء البيرينيه ، الذين سيقومون بالحملات الصليبية في الشرق، محل روح التفاهم بين الاديان التي ما زال يمثلها (السيد) في فالنسا. فتوحد بين السنتين ١٠٨٦ و ١١١٠ على

ايدي المرابطين كل ما تبقى من اسبانيا الاسلامية، أي النصف الجنوبي من شبه الجزيرة بين مصبي التاج والايبر . وتوطدت بوجودهم الدكتاتورية المالكية المتمسكة بحرف القانون واللاهوت ؛ كما تجددت في عهدهم الحرب المقدسة ضد المسيحيين وأصبح موقفهم من اهل الذمة في الداخل أشدّ تصلباً .

الا ان البربر الاشداء ما لبثوا ان ترفوا في الاندلس ؛ اضف الى ذلك إن حاجات الجماهير الدينية ما كانت لتتقبل دكتاتورية الفقهاء زمناً طويلاً . فنشأت حركة جديدة اعظم قوة ، وأعظم تميزاً ايضاً بسبب انتمائها الى البربر المراكشيين الحضريين، هي حركة الموحدين التي أسسها ابن تومرت ونظمها من بعده عبد المؤمن الذي ستملك سلالته منذ منتصف القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر . فنادى ابن تومرت ، الذي تلقن في الشرق تعاليم الغزالي الصوفية ، بالعودة الى مصادر الايمان المباشرة . ثم قرر تحطيم حكم الفقهاء المطلق ؛ فأعلن نفسه مهدياً ، بالمفهوم نفسه تقريباً الذي ألصقه الاسماعيليون بهذا الاسم . اجل ، لم يفلح بعمله هذا في القضاء على نفوذ الفقهاء الذي ما زال عظيماً في المغرب حتى ايامنا هذه ؛ ولكنه استطاع ، كما حدث في الشرق ، ان يدخل على الدين القويم في الغرب عاطفة صوفية عميقة ستتجسم ارتقاءاتها باكرام الأولياء الذي هو الصفة المميزة للورع الشعبي .

الحضارة الاندلسية

ان اسبانيا الموحّدة ، بعد ان تحررت من ظلم المالكية، وعلى الرغم من استمرار تصلبها حيال المسيحيين ، وحتى اليهود ، شجعت انطلاقة الفكر الاسلامي الذي بلغ فيها اوجه آنذاك. انها ، والحق يقال ، لفترة هامة جداً: فقد حلّت الثقافة الاسبانية ـ الاسلامية محل الشرق في الحقول التي اخذ هذا الاخير في اهمالها ، وفي الوقت الذي كان فيه الغرب المسيحي مستعداً لأن يتقبل ، من ايدي المفكرين الاسبانيين، اصول الثقافة الاسلامية. حرية في البحث والفكر لعل ابن طفيل عبّر عنها خير تعبير في قصته الفلسفية « حي ابن يقظان » التي توصل فيها الى نوع من الديانة الطبيعية تتغلب فيها العاطفة على التمسك المفرط بالشكليات . ولكن الأثر الاكبر في فكر الغرب المسيحي ستتركه مؤلفات ابن رشد الذي وضع اوضح شرح منظم لمذهب ارسطو: فقد عرضت فيه تعاليم الفيلسوف القديم وكأنها تفترض توافق الايمان والعقل ؛ ولكنه اجاز القول بتطور الفلسفة تطوراً مستقلاً ، كما قال ابن باجه من قبل . وأكب العلم الاسباني ، في الوقت نفسه ، على الابحاث الطريفة ، بعد ان اكتفى زمناً طويلاً بما يتوصل اليه الشرق : فقام مؤلفو الزيجات التي ما لبثت ان ترجمت الى اللاتينية ، وعلماء النبات وعلماء تركيب الأدوية كابن البيطار ، وعلماء الزراعة كابن العوام والاطباء اخيراً كابن زهر . وما زال التاريخ محافظاً على مستواه ، فترك لنا الرحالتان ابن جبير وابو حميد الغرناطي وصفاً قيّماً جداً ، الاول للشرق كله بما فيه بلاد الصليبيين ، والثاني لروسيا . وقد حافظ الادب الصافي على مستواه ايضاً ، فرفع الشاعر المتجول الفاجر ، ابن كزمان ، اللون الشعبي المعروف بالموشحات الى مرتبة الادب الرفيع .

ولم يكن الفن دون العلوم مرتبة مجيدة في عهد الموحدين ، في اسبانيا ومراكش على السواء ، حيث انصهرت تعاليم الشرق والتقاليد المحليـــة في تحقيق شخصي اصيل . فان حصن الرباط ، وجامع الكتبية في مراكش وقصر اشبيلية لا تزال توحي حتى اليوم بما انطوى عليه هذا الفن من متانة وأناقة ، على الرغم من بعض التحويرات اللاحقة .

امتدت هذه الثقافة الاسبانية الى ما وراء حدود السيطرة الاسلامية المنكمشة . ففي صقليا المخصصة للنورمنديين ، حيث عومل المسلمون المقيمون بتساهل قل نظيره ، تألق مركز اشعاع ثان ، دون اسبانيا شأناً على انه اعظم أهمية ، الى حد بعيد ، من الشرق اللاتيني ، انتقلت بواسطته الثقافة الاسلامية الى الغرب . وقد عمل فيها بعض المسلمين أنفسهم في خدمة الامراء المسيحيين : ففي منتصف القرن الثـــاني عشر وضع الادريسي ، المولود في سبتة والمقيم في صقليا ، لروجيه الثاني ، المؤلف الجغرافي الوحيد المزين بالخرائط القيمة الذي ضمنه عربي معلومات وجيهة عن اوروبا بالاضافة الى ما سبقه اليه كبار الجغرافيين المسلمين .

وأتاحت الثقافة الاندلسية بدورها اخيراً انطلاقـــة الفكر اليهودي الذي كانت مستعمراته الاسبانية ، آنذاك ، اوسع مستعمرات اليهود المتشتتين ثقافة . لا بل ان الفتوحات المسيحية أولاً ومضايقات الموحدين ثانياً أهابت باليهود الى الانتشار في العالم كابن ميمون مثلاً الذي استقر نهائياً في الشرق بينما اتصل معظم اخوته في الدين ، المقيمين في اسبانيا المسيحية وفرنسا الجنوبية حيث أحسنت وفادتهم آنذاك ، بأبنـــاء ملتهم في ايطاليا ؛ فخلصوا هؤلاء من سيطرة نفوذ صقليا الاسلامية والقيروان ؛ وهكذا تكونت في مناطق الحدود بين الاسلام والمسيحية ثقافة يهودية ارسخت التقاليد اليهودية ـ الاسلامية القديمة حتى اوائل القرن الثالث عشر ، وعنيت باللغـــة العبرية والشعر الديني والدنيوي والتاريخ اليهودي والدروس العلمية والفلسفية والدينية . فروى بنيامين التوديلي ، على غرار معاصره ابن جبير ، رحلته الى الشرق . وليس من شك في ان المؤلفات الفلسفية والدينية ، التي تأثرت جزئياً بأبحاث المسلمين ، واطلع المفكرون المسيحيون عليها بدورهم ، هي أهم ما تحقق بالنسبة للتاريخ العام . تصارعت فيها نزعات الافلاطونية الحديثة ، التي يمكسها « يهوذا حلاوي » عكساً على الاقل ، ومذهبا الارسطوطاليسية والعقلية اللذان أشاد بهما ابن ميمون . فان هذا الاخير ، على غرار معاصره ابن رشد ، بالنسبة للاسلام ، لأكبر مفكري اليهود وأعظمهم جرأة في القرون الوسطى ، ولكنه آخر فلاسفة اليهود في هذه القرون . ومرد ذلك الى ان حياة الجماعات الفكرية ستتجه بعد ذاك التاريخ اتجاهات مختلفة : فان يهود البلدان المسيحية ، الذين لم يعدوا لتقبل مبادىء العلوم والفلسفة الشرقية ، وصادفوا صعوبة في الانسجام والبيئات الجديدة ، سينادون ، في الجو نفسه الذي انتشرت فيه الحركة « الألبية » ، بالنزعات الدينية والصوفية المعروفة باسم حركة « القبّال » السرية التي رأى كتابهـــا « زهر » النور في اسبانيا في القرن الثالث عشر . وظهرت بموازاة ذلـــك صوفية يهودية اخرى تعرف بالحاسدية اقل ارتباطاً بالتعاليم الفكرية الآتية من الشرق وأشد تأثراً ببعض مظاهر الحيـــاة

الرهبانية المسيحية ، في احياء اليهود في رينانيا التي كانت موضوع اضطهاد قاس بمناسبة الحملات الصليبية وبحجتها . فارتبطت الحياة اليهودية منذ ذاك الحين بثقافة البلدان المسيحية .

حقق النظام الموحّد اكمل عمل توحيدي كان باستطاعة الغرب الاسلامي ان يحققه عبر تاريخه الطويل ؛ او اقله اخصب وحدة بين بلاد البربر المراكشية واسبانيا الاسلامية . فالمغرب الشرقي نفسه ، الذي هدده خطر غارات نورمنديي صقليا ، قد التجأ الى امبراطورية الموحدين ، التي لم يبق خارج نفوذها ، من العالم الاسلامي الغربي بأكمله ، سوى بعض المغامرين المنتسبين الى سلالة المرابطين من بني « غانية » المتحصنين في جزر الباليار . فادت هذه الوحدة ، وهـــذا السلام النسبي الذي أمّنته في البحر آخر اسطول قوي ، الى انعاش الحياة الاقتصادية . اجل لقد كانت التجارة مع ايطاليا وفرنسا شبه محصورة في البيزيين والجنويين والمرسيليين ؛ ولكن مراقبـــة نشاطاتهم ما زالت امراً ممكناً في الموانىء التي حصلوا فيها على بعض الامتيازات ؛ اضف الى ذلك ان المحاصيل المحلية ، أي المواد الآتيـــة من السودان النيجيري الغني بالذهب والذي قامت العلائق بينه وبـــين اسبانيا منذ دخول المرابطين ، قد وجدت لها اسواق تصريف مثمرة نحو اوروبا المسيحية .

الا ان فترات التوازن والازدهار هـذه لم تدم طويلاً . فمنذ السنة ١٢٠٠ تقريباً ، تجددت عمليات المسيحيين الحربية لاستعادة اسبانيا؛ وبرزت بوادر الشقاق بين السكان المغاربة والاندلسيين الذين لم يوحدوا كلمتهم؛ وغدا التجار الاوروبيون اشد تطلباً. فلم تمر خمسون سنة حتى انكمشت اسبانيا الاسلامية في مملكة غرناطة الصغرى ، بينما عاد المغرب الى انقسامه التقليدي . وكان كبار مفكري الاسلام ، كالصوفي ابن العربي ، قد شعروا بالجو يكفهر من حولهم في هـــذه الولاية المنعزلة في اقاصي العـــالم الاسلامي ، فغادروها وتوجهوا الى الشرق يقضون فيه ايامهم الاخيرة لأنهم ما زالوا يعتبرون الشرق ، على الرغم من محنه الخاصة ، مهداً لثقافتهم .

الغزوات التركية

هل ترد المحن التي مرّ بها الشرق الاسلامي الى قيـــام السيطرة التركية يا ترى ؟ ان الرأي، المتأثر في الارجح بما انتهت اليه الامبراطورية العثمانية في القرن الاخير من انحطاط وفقدان اعتبار ، لا يتورع عن التأكيد بأنهـــا خنقت الحضارة الاسلامية خنقاً. ولكن في ذلك اغفالاً لواقع راهن اذ ان الاتراك لم يحتلوا آسيا الاسلامية دون ان يُستدعوا لهذا العمل او يُساعدوا عليه ؛ وان الفن وبعض الالوان الادبية على الاقل قـــد تابعت انطلاقها بعد فتحهم ؛ وان الانحطاط اخـيراً لم يحدث الا في القرن السادس عشر ، أي بعد انقضاء خمسمائة سنة على فتحهم . وتوفق الاتراك في هذه الأثناء ، بعد ان بسطوا سيادتهم على الشرق الاسلامي بأكمله اولاً ، وعلى الامبراطورية البيزنطية كلها وجيرانها البلقانيين ثانياً ، الى تأسيس اطول امبراطورية متوسطية عظيمة عهداً بين الامبراطوريات التي تأسست بعد انهيار السيطرة الرومانية . لذلك فان الواقع التركي ، بفعل نتائجه القريبة او البعيدة ، جدير بأن لا نمر

به مرور الكرام . فهو ابعد من ان يكون انحطاطاً ، لانه حدّد معظم الخطوط التي ميّزت الدول الاسلامية حتى ايامنا هذه .

نحن نعلم كيف ان الدول الاسلامية في الشرق الادنى انتهت منذ زمن بعيد الى تعبئة جيوشها من الارقاء الاتراك الذين وقعوا في الأسر او ابتيعوا فتياناً وأعدوا للخدمة العسكرية وأدمجوا في المجتمع الاسلامي . الا ان الحركة الستي نشاهدها الآن تختلف اختلافاً كلياً عما سبقها . لقد تم الاتصال بين دول الاتراك في آسيا الوسطى وبين الاسلام بواسطة بعض التجار وبعض المبشرين وحتى بواسطة الغزاة المتطوعين الذين غذّوا ، عند حدود الوثنية ، روح الحرب المقدسة القديمة . امام عظمة هذه الحضارة المتفوقة ، اقتفى عدد كبير من الاتراك ، في القرن العاشر ، بين «الفولغا» و « ألتاي » ، خطى بلغاريي الفولغا واعتنقوا دين الاسلام الذي كان قابلاً في نظر الجماهير للاتفاق وبعض التقاليد السامانية او لفتح ذراعيه لمعتقدات اخرى كثيرة ، والذي تلقى ، في نظر الرؤساء ، توجيهات فقهاء الدولة السامانية الحنفيين . زد على ذلك ان الاسلام هو دين الغزاة ايضاً فاستهوتهم نضاليته الاصيلة ؛ واذ كانوا قليلي الاهتمام لحذاقة اللاهوتيين ، وجدوا في الحرب المقدسة ، الستي شنت اول ما شنت على الوثنيين من اخوانهم ، وسيلة لارضاء ميولهم التقليدية الى الغزو .

استحال بذلك على الامارات الايرانية جمع الارقاء من بين هؤلاء المسلمين الجدد. فانتهى الامر بها ، تأميناً لتعبئة الجيوش ، الى استدعاء وتوطين قبائل تركية كاملة تدخلت بالتالي في النزاعات بين الاحزاب او اسهمت في القضاء على الشيع السجسة . وهذا هو اصل مملكة القراخانيين التي ضمّت الى التركستان الصيني ، الحديث العهد في الاسلام ، منذ أواخر القرن العاشر ، المناطق المنتزعة من السامانيين . وأسس الجيش التركي التابع لهؤلاء الامراء ، في « غزنة » من اعمال افغانستان ، امارة اخرى ما لبثت ان امتدت الى خراسان ، آخر ممتلكات السامانيين .

جاءت الدولة الغزنوية مماثلة لامارات اخرى أسسها قواد الجيوش التركية ؛ الا انها اتسمت ببعض المميزات الجديدة : فقد اعلن زعماؤها ، وهم من السنيين المتصلبين ، عن تصميمهم على انتزاع الخلافة من الشيعيين؛ وأدركوا بالاضافة الى ذلك انهم لن يستطيعوا السيطرة على جيشهم ، ولا دفع مرتباته بسخاء ، ولا احتباس نشاط الغزاة ، الا بتشجيعه على الفتح ، فنظموا بقيادة محمود الغزنوي حملات موفقة على وادي الهندوس . اجل ، لم يستهدفوا في البداية سوى غزو المعابد البراهمانية ؛ ولكن النتيجة الثابتة ، كما رأينا ، كانت نشر الاسلام في الهند الشمالية الغربية : وهذا واقع تاريخي تؤيده جغرافية باكستان الحالية .

وهم الغزنويون انفسهم من استقبلوا في اراضيهم السلجوقيين ، زعماء منطقة بحر آرال وقبيلة اوغوز التركية ، فتأثر رؤساء هذه الجماعات من الرحل ، ولا سيما طغري بك ، بتعاليم المبشرين السنيين ، وانتهوا الى الاعتقاد بأن الحرب المقدسة انما هي تحرير الاسلام من البدع التي مزّقته .

في السنة ١٠٤١ سحقوا الجيش الغزنوي الذي تأخر في العودة من الهند : ففتحت امامهم ابواب ايران على مصراعيها. وصادف ان الخليفة العباسي كان راغباً آنذاك في التحرر من حماية البويهيين الشيعيين ، وقد وضع القانوني الكبير ، الماوردي ، تلبية لرغبته ، بحثاً ضمّنه اصول الحكم القويم . ولكن القوى الدينية لم تكف لاصلاح الاسلام فاستدعى طغري بك الذي دخل بغداد دون قتال ومُنح ، بالاضافـــة الى لقب ملك الشرق والغرب ولقب السلطان ، ملء السلطة السياسية ، واسندت اليه مهمة نصرة الدين القويم على البدع في الداخل وعلى الفاطميين في مصر . فضم خلفاء طغري بك ، الى ايران وبلاد ما بين النهرين ، سوريا التي انتزعوها من المصريين . قد يقال انهذا الحل جاء خطراً على الخليفة الذي استعاض عن سيد ضعيف بوصي كثير الطلبات. ولكنه جاء نصراً للدين الاسلامي القويم ايضاً : اذ ان الاسلام الملتف رسمياً حول راية العباسيين الخضراء سيتمكن، في كافة أنحاء الشرق الادنى، من اعادة تنظيم الدولة في كنف الجيش التركي.

غير ان للفتح التركي وجهاً آخر . فهؤلاء التركمان الرحّل لم يهتموا للخلوص العقيدة اهتمامهم للغزو وكسب الغنائم من غـــير المؤمنين . فكان طبيعياً بعد ان استقر هؤلاء الغزاة في ايران الغربية ان يوجهوا نشاطهم ضد الامبراطورية البيزنطية . اضف الى ذلك انهم ألفوا اتحاداً مـن جماعات قبلية غير متلاحمة واعتبروا السلطان قائداً حربياً مؤقتاً، فخضعوا بصعوبة لقوانين دولة منظمة اصبح سلطانهم رئيساً لها . أفليس مـن الطبيعي ايضاً ، والحالة هذه ، في سبيل تحويل اعمالهم الفوضوية عن الدولة ، الحدو بهم ، وقيادتهم عند الحاجة ، الى غزو البيزنطيين ، لا سيما وان الجيش في الامبراطورية اليونانية في حالة يرثى لها من الفوضى ، والسكان لا تجمعهم وحدة ادبيـــة ؟ فعندما سحق السلطان الب ارسلان ، في السنة ١٠٧١ ، آخر جيش بيزنطي في « مانزيكرت » وأسر الامبراطور الروماني رومانوس ديوجينس ، انفتحت امامهم ابواب آسيا الصغرى . وكان العديد من بني عرقهم قـــد خدموا في الجيش اليوناني ، ولم يتردد المطالبون بالعرش ، في نزاعاتهم الداخلية ، في استخدامهم لبلوغ غاياتهم : فاستدعوهم الى أبعد من الهدف الذي حددوه لانفسهم وفتحوا لهم مدناً ما كانوا ليستطيعوا دخولها عنوة . ولم يدرك اليونانيون الا بعد فوات الاوان ان الشعب التركي، باستيطانه آسيا الصغرى، قد مزّق اطارات الامبراطورية، وان الارمن والسوريين اليعاقبة ، المعادين لبيزنطية ، قد ارتضوا بهؤلاء الأسياد الجدد ، وان يونانيي آسيا الذين انكفأوا تدريجياً نحو شواطىء بحر ايجه . وأنهكتهم الحروب الطويلة قـــد أعدموا وسائل الوقوف في وجه الاتراك . وهكذا تكون وطن تركي ، هو تركيا ، لن يلبث المسافرون ان يتحققوا من حقيقة واقعه ؛ وهكذا حقق الاسلام فتح بلاد جديدة .

الشرق الادنى السلجوقي

لم توفق الدولة السلجوقية في الحقيقة الى فرض رقابتها على التركمان الذين توزعوا خارج حدودها ؛ ولكنها بقيت دكتاتورية عسكرية تركية يدير شؤونها الخراسانيون السنيون . فباستثناء اذربيجان حيث استوطن التركمان جماعات كبيرة ، لم يطرأ تعديـــل يذكر على توزيع السكان في الشرق الادنى ، كما ان الانظمة الادارية

والادارات نفسها التي خلّفتها ايران والدولة الغزنوية لم تتغير قط ايضاً . كان السلاطين الاول الثلاثة – طغري بك والب ارسلان وملك شاه – رجال حرب نوابغ ، ولكنهم أدركوا عدم أهليتهم في الشؤون الادارية فتركوا للوزراء أمر ادارة الشعوب المحتلة . وقد عبّر احد هؤلاء الوزراء ، نظام الملك ، وهو شخصية بارزة نادرة ، عن مفهومه للحكم في مجموعة آراء ونوادر . ولكن مجموعته لم تأت بجديد .

ليست الادارة اذن ما حوره السلجوقيون – وما الطغراء التي استعملت حتى السنة ١٩٢٢ لتصديق الفرمانات والشهادات العثمانية سوى طرفة فحسب – بل توجيه الدولة نفسها . وفي الوحدة السياسية الكبرى التي حققوها ، كان الجيش ، وهو غريب تماماً عن السكان ، المستفيد الوحيد من الفتح. فقد خصّص باقطاعات عظيمة من الاراضي ، على ان هذا التوزيع ، على الرغم مما قيل فيه ، لم يفض الى اقامة النظام الاقطاعي ، لأن الدولة السلجوقية قد احتفظت حيال قياداتها العسكرية برقابة حازمة أتاحت لها السيطرة بقوة على المحاربين الذين كانت اقطاعاتهم وضيعة على العموم . اما السلاطين فهم رجال الحكم يقضون على سجس المدن في مهده ويراقبون حركات القبائل العربية او الكردية ويقتصون من المخلّين بالأمن والنظام .

عادت هذه السلطة المستعادة بالخير ،في الدرجة الثانية ،على السنة وفقهائها .واذا كان الاضطهاد لم يتناول اتباع البدع الجديدة فردياً ، فقد هدمت مؤسساتهم ، وبذل مجهود مادي وأدبي ضخم لرفع شأن الدين القويم وحصر ادارة المجتمع الاسلامي باتباعه دون غيرهم . فأسس المسؤولون مدارس خاصة تأمنت فيها للمعلمين والطلاب سبل المعيشة والعمل ؛ لقد ولّى عهد المؤسسات نصف الخاصة التي تلقن شتى الدروس ، وجاء عهد المدارس العامة المعدّة ، على غرار جامعة الازهر ، مركز الاسماعيلية في مصر ، لتوزيع ثقافة دينية قويمة رفيعة . سيتخرج من هذه المدارس موظفو الادارة ، والقانونيون، مرشدوها، والقضاة ، دعامتها : تلك هي «المدارس» . يعود انشاء اقدمها عهداً ، وقد كانت في منتهى الوضاعة ، الى السامانيين الاخيرين والغزنويين من بعدهم . ثم ازدادت عدداً في كافة أنحاء العالم السلجوقي بناء على رغبة الحكومة اولاً ورغبة كافة العظماء ثانياً . وأول من أعطى المثل ، في قلب بغداد ، نظام الملك ، بتأسيسه المدرسة « النظامية الفخمة التي تولى التدريس فيها اوسع فقهاء العصر شهرة ، ولا سيما الاشعريون ، الذين اهتم الوزير الكبير لنجاحهم .

وفي الوقت نفسه قام السلجوقيون ، المولعون بالبناء ، بتشييد الجوامع العظيمة والمستشفيات والمدارس والخانات والجسور ، وكلها أبنية يدخلها التقليد في واجبات الملك الواعي لمسؤوليته الدينية. وخصت هذه المؤسسات بموارد متزايدة الاهمية : فالأوقاف التي كانت في معظمها خاصة ومحدودة غدت منذ ذاك الحين ذات أهمية عمومية واتسعت اتساعاً غريباً وزادت من أهمية المعتاشين منها ، رجال الجوامع والمدارس ، وكلهم دعائم أساسية للدين القويم الذي ينفق عليهم .

شاهدت الدولة السلجوقية اخيراً المصالحة التي جرت ، في ذهن المؤمنين وموقف الحكومة

على السواء ، بين الصوفية والدين القويم الذي أمسى الصوفيون حلفاءه ، بأعداد متزايدة ، لدى الشعب . وحين اكتشف المفكر الكبير الغزالي ، بعد خبرة طويلة في تدريس الفلسفة الكلامية ، ان لا قوة للدين بدون رضى القلب ، وان العاطفة الدينية التي لا تستند الى ارشاد العقل غالباً ما تؤدي الى فقدان التوازن ، وان ما يدوم ، في الواقع ، هو اتحاد القلب والعقل معاً ، انما كان يعبر تعبيراً نافذاً وشخصياً عن نزعة عامة في اوساط الارستوقراطية الاسلامية . اضف الى ذلك ان الصوفيين قد انصرفوا تدريجياً ، في الوقت نفسه ، عن حياة العزلة وألفوا الجمعيات وخضعوا لقانون قربهم من الجمعيات الدينية المسيحية . فكان من المحتوم ، ابتداء من القرن الثاني عشر ، ان تفضي هذه العادات الجديدة ، التي اخذت تنتشر منذ اوائل العهد السلجوقي ، الى تأسيس جمعيات دينية حقيقية كانت اولاها جمعية القدرية التي اسسها عبد القادر الغيلاني . اجل لم يحل ذلك دون ابقاء الصوفيين على عادات غريبة عن العبادة المشتركة ، وزائفة جدا احياناً ؛ ولكن صفة منافاتها للديانة الرسمية واصطباغها بالبدعة قد زالت عنها . وها هم السلجوقيون انفسهم يسبغون عليهم الاوقاف ويؤسسون الاديرة في المناطق المحرومة منها . فجذبوهم من ثم اليهم واستغلوا النفوذ الادبي الذي كان لاوليائهم على الجماهير الشعبية .

لم يبق من ثم امام المارقين من الدين سوى المداهنة ، او اللجوء الى المناطق النائية ، او النشاط السري ايضاً ، وهكذا تاسست جمعية ارهابية توصل محركها حسن الصباح ، وهو مبشر اسماعيلي اغضب الفاطميين بسبب انتصاره لحركة نزار ، الى الاستيلاء ، عن طريق الخدعة او التهديد بالتشهير ، على حصون منيعة عديدة ، ولا سيما قلعة الموت في الجبال القزوينية . وليس المعتقد هو ما يميز هذه الشيعة بل سرها وتنظيمها المدهش واعتمادها الاغتيال السياسي كوسيلة عمل كانت اولى ضحاياه البارزة نظام الملك نفسه . وكانوا يسكرون المبتدئين بشراب ممزوج بحشيشة الكيف يذيقهم لذة الافراح السماوية . ولكن الاغتيال الذي مارسه هؤلاء الحشاشون قد اعطى الكلمة « *Assassin* » مفهومها الفرنسي : ومرد ذلك الى ان هذه الشيعة لم تلبث ان انتشرت في سوريا حيث عرفها الصليبيون . وقد بقيت طوال اجيال عدة مثار رعب في كافة انحاء الشرق الادنى على الرغم من ضآلة عدد اتباعها الحقيقيين .

يجدر بنا ، في هذا الجو الديني الجديد ، ايضاح وضع اهل الذمة الحقيقي الذي شوهته دعاوة الحروب الصليبية . ليس من ريب في ان تركان آسيا الصغرى قد اذاقوا المسيحيين اليونانيين مرّ العذاب الوانا ؛ وفي المرحلة الاولى من غزواتهم الحقوا الضرر والاذى بالارمن واليعاقبة ايضا . ولكن وضع المسيحيين لم يتغير قط في الدول السلجوقية المنظمة ، ولا سيما في فلسطين . فان الحج الذي توقف عن طريق الاناضول قد نشط عن طريق البحر ، ولم تقم في طريق الحجاج اية عقبة حتى اورشليم . والواقع هو ان الغرب قد ارتكب خطأ ، ربما كان مقصوداً عند بعضهم ، بعدم التمييز بين عذابات يوناني آسيا الصغرى وحال مسيحيي فلسطين ، وهو خطأ وقعوا فيه تحت تأثير شعور الفرسان الفرنجة حيال المسلمين بعد اشتراكهم في حروب اسبانيا . ولكن

تساهل الاسلام التقليدي لم يتغير قط ، الا في اسبانيا بالذات ، بفعل التصلب المسيحي . اما في الشرق ، حيث لم تلصق بهم ، كما جرى في الأندلس ، تهمة التعاون مع الفرســـان اللاتين ، فلم يتأثر التساهل حتى بالحملات الصليبية نفسها .

تجزئة الاسلام التركي

لم تتمكن الدولة السلجوقية ، على الرغم من احيائها العالم الاسلامي ، من الابقاء على تلاحمها زمنا طويلا . فقـــد انفرط عقد السلالة المالكة غداة وفاة « ملك شاه » في السنة ١٠٩٢ : وافضى النزاع بين المطالبين بالعرش ، وتوزيع الاقطاعات والوفيات المبكرة ، والقصور الشرعي الضعيف ، الى تجزئة الامبراطورية التي استعجلها تعيين الاتابكة ، اوصياء على أبناء السلطان القصّر ، ووكلاء على اقطاعاتهم ، فرغبوا ، كما هو طبيعي ، في الحلول محلهم . فتوجب من ثم تخصيص افراد الجيش دونما حساب باقطاعات جديدة ما عتمت ان اصبحت سيادات وراثية . وتزايدت كذلك اسباب التنافر بين العرب والاتراك ، وبين التركمان والاكراد . كل هذا يفسر نجاحات الصليبيين وتقدم الجيورجيين واستمرار الخلافة الفاطمية . الا ان امارات مستقلة اقل عدداً واعظم قوة واطول عمراً ايضاً تأسست على انقاض الامبراطورية السلجوقية السريعة الزوال وابقت في الشرق الادنى على التقسيمات الجغرافية التي نشأت عن الغزوات التركية : العراق وسوريا وايران وآسيا الصغرى .

غدت العراق آنذاك مجرد ولاية في عالم اسلامي لم يعد ليعتبرها مركزه الرئيسي ، ولكنها استعادت ، بفضل الانحطاط السلجوقي ، بعض الاستقلال تحت ادارة الخلفاء الزمنية ، غير المترقبة حقاً . وقد حاول احد هؤلاء ، الناصر ، حوالى السنة ١٢٠٠ ، ان يعيد الى الخلافـــة سلطة دينية حقيقية تعلو سلطة الفقهاء ، فلم ينصرف ، في سبيل هذه الغاية ، عن مطاردة جمعيات الفتوة في بغداد فحسب ، بل جعل منها احدى وسائل حكمه ، ساعيا جهده لاصلاحهـــا من الداخل ، وتوحيد تنظيمها تحت كنفه ، وتشجيعها على تحقيق مثل روحي اعلى اوحته منذ امد بعيد بعض اشكال الصوفية الجماعية ، ثم حاول جمع الامراء والنبلاء في فتوة ارستوقراطية جعل منها نوعاً من جمعيات الفرسان ؛ واذا كانت هذه المحاولة الاخيرة قصيرة الامد ، فقد كتب للفتوة الشعبية ، التي اشرف على اصلاحها ، ان تلعب دوراً غير قصير في حياة البلدان التركية .

اما تاريخ سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا فقد سيطر عليه ، طوال القرن الثاني عشر ، الصراع ضد الصليبيين . كانت هذه المناطق حتى ذاك التاريخ ، امـــا تابعة للعراق تارة ولمصر اخرى ، واما مراكز لامارات هزيلة . ولكنها غدت آنذاك ، بفضل تقدمها على بغداد النائية استعداداً للقيام بهذه المهمة ، مركز تجمع لنهضة عسكرية وتجدد ادبي وثقافي . وقد حدث في اول القرن ان الارستوقراطية العربية ، ولا سيما في امارة دمشق التي لم يحدق بها خطر الفرسان الفرنجة كما احدق بحلب ، رضيت ، طوعاً او قسراً ، بالفتح اللاتيني كما جاء في المذكرات الطريفة التي وضعها آنذاك اسامة بن منقذ . ولكن تجاوزات بعض الفرنجة واستمرار تدفق الصليبيين

خلقت ، في سكان المدن السورية وبين علماء الدين ، حركة اعتراض على هذه اللامبالاة الاثيمة ، وعلى انقسامات المسلمين . فعرف بعض الامراء الاتراك كيف يستغلونها في سبيل بعث الكيانات السياسية الكبرى لمصلحتهم . وهذا ما حققه زنكي اولا وابنه نور الدين من بعده في منتصف القرن الثاني عشر : فقد ضما الى امارتهما في حلب ، وهي محور الحرب المقدسة ضد الفرنجة ، شطراً هاماً من بلاد ما بين النهرين العليا وسوريا باجمعها ، وجندا في جيوشهما اعداداً متساوية من الاكراد والاتراك . فاستطاعا رد الفرنجة شيئاً فشيئاً الى الساحل السوري على الرغم من النجدات البيزنطية او الغربية التي تلقوها . وهكذا جعلا من سوريا ، بتدابيرهما الجائرة ضد الشيعة وبتأسيسهما العديد من المدارس والجمعيات الصوفية التي اسهم فيها بعض المهاجرين الايرانيين ، اوسع المراكز نشاطاً لصراع مزدوج ضد اعداء السنة في الخارج والداخل . اضف الى ذلك ان هذا التجمع سهلته زيادة الثروة المادية : فقد خسرت بغداد مركزها الاول في تجارة الشرق بعد ان احتفظت به مدة طويلة احتفاظاً صنمياً ؛ اما الموصل ، وهي مركز صناعي اقرب منها الى مناجم دجلة الاعلى ، وحلب ودمشق القريبتان من الموانىء السورية ومستعمرات الايطاليين التجارية ، فقد امست ، مع القاهرة والاسكندرية ، اوسع مراكز الحياة الاقتصادية نشاطاً ، لا بل تقدمت على القاهرة والاسكندرية ، وأمست مراكز الاسلام الفكرية والفنية ايضاً . ومرد ذلك الى ان مصر الفاطمية التي فتتت شقاقات جيوشها وانقسامات الاسماعيلية وفقدان الثقة بها في عضدها ، لم تحافظ على استقلالها الا بفضل الحاجز المزدوج الذي يفصلها عن الاسلام التركي : الصحراء والدول الفرنجية . ولكن ما ان حاول الصليبيون الاستيلاء على موارد دلتا النيل الغنية حتى اضطر المصريون لطلب النجدة من نور الدين . فارسل سيد حلب بقيادة صلاح الدين الكردي ، جيشا فتح مصر ثم وضع حدا للخلافة الفاطمية في السنة ١١٧١ فوحد ، بعمله هذا ، الاسلام الشرقي كله بعد انشقاق دام قرنين كاملين .

افضى هذا الفتح بدوره الى قلب القوى الاسلامية قلبا مباشرا في الحقل السياسي ، وبطيئاً غير كامل في الحياة الروحية . فاستقوى صلاح الدين بتفوق مصر المادي واستغل ضعف خلفاء نور الدين ، فاستلم إرث هذا الامير العظيم . وهكذا وضعت موارد مصر وسوريا معا في خدمة جيش تركي ـ كردي تحمس لخوض الحرب ضد الفرنجة فاستعاد القدس من الصليبيين (١١٨٧) وردهم الى طريدة ساحلية ضيقة . الا ان الهجوم المعاكس العنيف الذي شنته الحملة الصليبية الثالثة اتاح للصليبيين الحفاظ على حصونهم الاخيرة ؛ لذلك اخذ خلفاء صلاح الدين ، الايوبيون ، وان صدوا عند الحاجة هجمات الحملات الصليبية الجديدة ، يؤثرون اقامة علائق تجارية طيبة مع التجار الايطاليين على اطالة الحرب المقدسة . لا بل ان احدهم ، الكامل ، عرف كيف يردّ على دبلوماسية فردريك الثاني الحكيمة بموقف كريم ايضاً . كان اثر ذلك ، في مصر ، وهي ملتقى تجارة الهند عن طريق البحر الاحمر والتجارة الايطالية في المتوسط ، ازدهاراً عظيماً متزايداً : ويؤيد هذا القول ان احدى الشركات التجارية الكبرى (شركة كارمي) حاولت آنذاك احتكار

استيراد الابازير ؛ وان الحماية الايوبية ، نتيجة لذلك ، قد ناءت بوطأتها على اليمن والمدن المقدسة . الا ان العهد الايوبي ، على الرغم من ان مصر المتجانسة والموحـــدة السلطة لم تعرف القيادات الاقطاعية الكبرى والثورات والانفصالات الاقليمية ، قد خضع بدوره للجيش ايضاً . ومنذ منتصف القرن الثالث عشر ، اخـــذ الجيش ، بعد ان عزّز لدفع خطر الهجوم الفرنجي والغزو المغولي ، يرفع رؤساءه الى السلطة ، وجلهم ينحدرون من اصل عبدي ؛ فأسس هؤلاء الجنود ، لقرون عدة ، عهد المماليك العسكري .

اما ايران فقد عرفت تاريخاً اعظم اضطراباً ، وغموضاً ايضاً ، لانها ما زالت تتأثر بحركات الشعوب التي كانت تقلق آسيا الوسطى . وسقطت المناطق الاسلامية الواقعة وراء الاوكسوس ، منذ الربع الثاني من القرن الثاني عشر ، تحت حماية « القراخيطاي » من غير المسلمين — فقد دان الكثير منهم بالنسطورية — الذين عاملوا الاسلام معاملة غـــيره من الاديان غير مبالين بانتصار السنّة . وقد تكونت عند الفريقين ، على اثر الهزيمـــة التي أنزلوها بسلطان ايران السلجوقي ، سنجر ، اسطورة الخوري يوحنا ، ذلك الملك الغامض الذي قالوا عن مملكته انها تقع في مكان ما وراء الدول الاسلامية وتكهنوا بأنه سيقضي على الكفرة . ولكن كل ما حققه «القراخيطاي» في الواقع هو الدفع بجماعات جديدة من الاشقياء التركمان نحو ايران الشرقية فعاثوا فيهـــا فساداً دون ان يؤسسوا فيها حكماً دائماً . ولم يقاوم هذه الجماعات ، في المناطق الشمالية الغربية المعتصمة بالصحراء ، سوى خوارزم التي ما لبثت ان بسطت سيادتها على ايران بكاملها . ولكن الخوارزميين لم يستطيعوا ضم بغداد اليها ، ولا فرض حمايتهم على الخليفة ، فافتقروا الى عضد الاسلام القويم ؛ ولما كانوا ، بالاضافة الى ذلك ، يجندون جيشهم من قبائل تركية لم تعتنق الاسلام بعد ، ويعيشون لأجل الحرب والسلب ، فانهم لم يلبثوا ان فقدوا كل شعبية . فلقم الغزو المغولي خوارزم لقمة واحدة ؛ وتدفق الجيش المهزوم على العالم الاسلامي في الشرق الادنى ، وعاث فيـــه فساداً وخراباً . ولم تنج من هذه الغزوات سوى الهند الشمالية الغربية بفضل تحصنها وراء جبال منيعة ؛ وقد عاشت آنذاك في كنف امارات تركيـــة انتسبت ، من قريب او بعيد ، الى الغزنويين ، وخضعت منذ اوائل القرن الثالث عشر لنظام عسكري شبيه بنظام المماليك في مصر .

اما آسيا الصغرى المحتلة منذ عهد قريب ، وهي آخر ممتلكات الاسلام التركي ، فقد كوّنت في البدء عالماً شبه مغلق . ولا يزال الغموض يكتنف هذه الفترة من تاريخها ، لأن الذين احتلوها كانوا تركماناً خشنين غرباء عن تقاليد الدول الاسلامية القديمة وعن العالم البيزنطي الذي حلوا محله ، ولأن مؤرخيها ، بالتالي ، لم يبرزوا الا في عهد متأخر . الا اننا نميز فيها ، على الرغم من ذلك ، قطاعين متقابلين : ففي الولايات المتاخمة للحدود اليونانية من جهة تركمان غـــير مستقرين تقريباً يشنون غزوات الحرب المقدسة باستمرار ، كاولئك الذين خضعوا لسلطة رئيس مثّل لقبُه — دانشمند — ، في الارجح ، صفة « الحكيم » ، لا اسم العائلة ؛ ومن جهة ثانية أسس احـــد فروع السلالة السلجوقية ، بمساعدة بعض المواطنين الايرانيين ، ورغبة منه في التمايش السلمي مع

بيزنطية ، دولة قوية وحّدت آسيا الصغرى تدريجياً وضمت اليها أرمينيا الغربية نفسها . وفي اوائل القرن الثالث عشر بدت سلطنة « الروم » السلجوقية – أي تلك التي سيطرت على الولايات « الرومانية » القديمة – وكأنها دولة عظمى : فنهضت فيها المدن التي كان التركمان الرحل قد أخضعوها ؛ ونشطت التجارة مع آسيا الداخلية والقسطنطينية ، ومع مصر وروسيا؛ وتدخلت الملكية اخيراً ، بفضل جيشها القوي ، في شؤون سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا . فالتجأ الايرانيون الهاربون من تعسف الخوارزميين ومن الغزو المغولي الى منطقة الاناضول التركية التي ورثت آنذاك حضارة ايران وأطالت بقاءها ؛ اما علاقتها بالعالم العربي ، حيث ألف الاتراك ارستوقراطية عسكرية فحسب ، فقد كانت مقطوعة تماماً .

أدى تقدم تركيا الجديدة نفسه وأخذها بالحضارة الايرانية تدريجياً الى ايجاد هوة بين سكانها وبين التركمان المتمسكين بعاداتهم . ولكن جماعات مشردة جديدة ، هاربة امام هجمات الشعوب الآسيوية ، ظلت تجتاز الحدود الاناضولية باستمرار طامعة بالمراعي ، ثائرة على كل تنظيم اداري . فاتخذ عداؤها للدولة السلجوقية طابع حركة اجتماعية ودينية ، يقودها المدعو « بابا اسحق » الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر . فاليه تعود ابوّة كافة النزعات ، المارقة من الدين في الغالب ، التي ارجفت دورياً ، حتى فجر العهد المعاصر ، التركمان المتضايقين في الممالك التي أسسوها بقوة سلاحهم . اجل لقد غلب بابا اسحق على امره ولكن الاضطرابات التي أثارها مهّدت الطريق امام نجاحات المغول الذين فرضوا حمايتهم ، في ١٢٤٣ ، على الدولة السلجوقية ، وقضوا نهائياً ، في الواقع ، على سلطتها .

ثبات الحضارة الاسلامية

نرى لزاماً علينا هنا القول مرة اخرى ان الشرق الاسلامي ، الذي تبدل تبدلاً عظيماً بفعل الغزوات التركية ، والذي تجزأ ، سياسياً او عنصرياً ، تجزؤاً لم يشاهده من قبل ، ما زال يعرف حضارة زاهية جداً ، بوجهيها الرئيسيين ، العربي والايراني. وانما انطفأت الحياة الفكرية تدريجياً في نطاق البرهان الحر فقط : فالغزالي كان آخر الفلاسفة الشرقيين، بينما تحول العلم الى ترداد اقوال السابقين . اما التاريخ فقد أمسى اعظم الالوان الادبية حيوية في العالم العربي ، واسفر عن انتاج وفير : التواريخ العامة او المفصلة ، او الموسوعات الضخمة الموضوعة للقراء « العرفاء » ؛ مذكرات ابن القلانيسي الدمشقية الى جانب مذكرات اسامة بن منقذ ؛ ترجمة صلاح الدين لعماد الدين الاصفهاني ، وهي جملة جداً في نظرنا ، الى جانب التاريخ العام الذي وضعه ابن الاثير الواسع الاطلاع (اوائل القرن الثالث عشر) وضمنه معلومات وأخباراً صحيحة كثيرة جداً عرضت ببصيرة وألمعية ؛ تراجم العلماء والاطباء لابن القفطي وابن أبي أُصيبعة ، وهي جليلة الفائدة لمؤرخي العلوم ، وقد جاورت ، في رفوف المكتبات ، القاموس الجغرافي الضخم لياقوت ، الذي يعود الى السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ايضاً . وكان الانتاج الادبي بالمقابلة اقل وفرة ؛ ولكنه بلغ ذرى المجد « بمقامات » الحريري الذي سار على خطى الهمذاني ، بينما تمثلت الصوفية خير تمثيل بالاسباني

ابن العربي الذي أمسى ، في ملجأه الشرقي ، اول عالم عربي باصول الصوفية الجديدة ، وبالمصري ابن الفارض الذي كان شاعراً كبيراً .

واستطاع الادب الايراني من جهته ، بعد ان تخلص من قيود كل ارستوقراطية مستعربة ، ان يتفتح بحريـة كاملة. واذا بقيت خوارزم مركزا لتدريس الثقافة العربية واشتهر فيها اللغوي الزمخشري وكثيرون غيره ، فان اللغة الفارسية قد تفوقت ، منذئذ ، على اللغة العربية كوسيلة للتعبير الادبي . وهو الشعر هنا ما سار في الطليعة وانتج اجمل روائعه : فعمر الخيام الذي عاصر كبار السلاطين السلجوقيين واشتهر خصوصا برباعياته ، الملأى بتشاؤم مستعذب ملحد ، كان رياضيا وفلكيا كبيرا ايضا ؛ وفي القرن التالي ، كتب النظامي ، الذي جاء من حدود اذربيجان الشمالية ، روايات شعرية طويلة تتميز بشعور رقيق واسلوب متقن السبك ؛ اما السعدي اخيراً ، الذي عمّر طويلا وانهى حياته في عهد المغول ، فهو بدون منازع اشهر الشعراء الفرس بديوانه « حديقة الورود » الذي ضمنه ، نثراً وشعراً ، امثالاً مختلفـــة في الحقائق الاخلاقية . وانتج الادب الفارسي في الوقت نفسه مؤلفات صوفية أكثر عدداً واروع جمالاً منها في الادب العربي : ونذكر هنا على سبيل المثال السهروردي الناثر ، والشاعر « فريد الدين العطار » (اواخر القرن الثاني عشر) الذي اتجه نحو الادب التعليمي ولكنه اوجد لوناً سيبلغ منه الذروة ، ابان الفتح المغولي ، في منتصف القرن التالي ، جلالُ الدين الرومي الذي ولد في ما وراء النهر ، وقضى كل حياته ، كما يدل على ذلـــك اسمه ، في آسيا الصغرى حيث اسس جمعية الدراويش المشهورين باسم الدّوارين .

بيد ان بعض الاوساط التركية ، حتى بين الذين لم يأخذوا بالحضارة الايرانيـــة ، تأثرت بالثقافة الاسلامية . ويبدو ان الاتراك قـــد نسوا كتابتهم الخاصة ؛ فاعتمدوا كتابة القرآن . فاستخدمت وسيلة التعبير هذه ، في آسيا الوسطى ، منذ القرن الحادي عشر ، في وضع ملخص الحكمة الاسلامية ، « كوداتكوبيليك » ، وفي نظم أشعار تركيـــة لا تزال شعبية حتى أيامنا هذه . ادخل عليها « احمد يسفي » بعض المقتبسات الايرانية التي تتفق وشعور ابنـــاء جلدته الاتراك من الناحية الدينية . وارتسم عند تركان آسيا الصغرى ايضاً ادب تناقلته الالسن اولاً ، ثم أنتج بعض نفثات الاقلام في عهد السيطرة المغولية .

اضف الى هذا ان العهد التركي – الذي امتد اجمـالاً من منتصف القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر – كان ، بالنسبة للشرق الادنى الاسلامي ، فترة ازدهار فني عظيم . اجل ان من شأن اندراس الابنية السابقة اندراساً تاماً تقريباً ان يحملنا على المغالاة في الاهميـة النسبية للآثار البنائية التركية . ولكن الواقع هو ان السلجوقيين والزنكيين والايوبيين كانوا مولعين بالبناء وان نوع أبنيتهم ليس دون عددها اهمية وشأناً . ويبرز فيها الاثر الايراني ، او بالاحرى الخراساني ، بروزه في الادب ؛ ولكنه ربما تداخل فيها ببعض التقاليد التركية ؛ ومهما يكن من الامر ، فان فناني الاسلام الاتراك هم الذي دفعوا بهذه النهضة العظيمة الى الامام .

لم يبق من الابنية المدنية شيء يذكر ؛ ولكن هندسة العمارة العسكرية كانت اوفر حظاً في البقاء . رأينا من قبل ان حصوناً كثيرة شيدت في الشرق الادنى خلال القرنين العاشر والحادي عشر . اما في القرن الثاني عشر فقد ارتفعت بصورة خاصة القلاع والاسوار حول المدن : فقد اضاف صلاح الدين قلعة المقطم الى أسوار القاهرة التي بناها بدر الجمالي قبل السنة ١١٠٠ ، بينما شيّد ابنه الظافر في حلب ، القلعة المشهورة التي لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه والتي بنيت بهذا الحجم ، كما يبدو ، حتى لا تكون دون الحصون الصليبية اهمية ؛ ولم يتوفق المؤرخون حتى يومنا هذا الى التمييز بين التأثيرات المتبادلة التي تفاعلت في الشعبين المتزاحمين في سوريا فادت الى تقدم سريع في هندسة العمارة العسكرية .

ترك نشاط الملوك الاتراك الديني وأعمالهم الخيرية ، آثاراً بنائية كثيرة . وقد درس العلماء درساً مستفيضاً جامع اصفهان العظيم المجهز بأربعة أواوين فخمة على جوانب فنائه ، وبكشك داخلي كبير مخصص للسلطان ، ومئذنة مستديرة رشيقة لن يلبث طرازها ان ينتشر انتشاراً واسعاً ، وبشرفة منقوشة اخيراً يعتليها المؤذن للدعوة الى الصلاة . وراجت سوق القبور الفخمة كضريح سنجر في مرو الذي جاء اجمل وأكمل من القبور السامانية السابقة . اما المدرسة ، وهي طراز بنائي جديد بمساكنها وقاعات التدريس فيها ، فقد جاورها باطراد ، على غرار الجامع ، ضريح مؤسسها . وباستثناء سوريا ، اتاح استعمال القرميد للبنائين الاستفادة من تنضيد القراميد نفسه لزخرفة الابنية من الخارج ، بينما استمرت طرائق التزيين النقاشي او المتعدد الالوان في اعمال الزخرفة الداخلية . ونشأت عن ايصال القباب المستديرة بجدران القاعات المربعة ، وعن تزيين اقواس الابواب الكبرى ، المشاكي المدرجة ، « المقرنصات » ، التي درج استعمالها انطلاقاً من تركستان حتى المغرب . اما نمط الكتابة المدفنية الذي حافظ على دوره الزخرفي ، فقد اقترب تدريجياً من الخط العادي ، وغدا بالتالي أكثر اناقة ورشاقة . اضف الى ذلك ان فن الخطاط ملازم لفن المزوّق الذي تعود نماذجه المعروفة الاولى الى مصانع بلاد ما بين النهرين في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر . ويجب ألا ننسى اخيراً آيات الصناعة النحاسية في دمشق ولاسيما في الموصل ؛ فهي تفيض حياة بتمثيل المشاهد على سليقتها ، كتلك الممثلة على جرن العماد المنسوب الى القديس لويس ، الذي احضره هذا الملك من الارض المقدسة ليزين به « الكنيسة المقدسة » في باريس .

وفتح الاتراك في الاناضول نطاقاً جديداً للفن ، كما لدين الاسلام ايضاً ؛ فاكتست البلاد بالجوامع والمدارس والضرائح والخانات في قونيه وقيصرية وسيواس وديفريغي ؛ وقد تداخلت فيها التأثيرات الايرانية بالتقاليد المحلية في بناء الحجر ، وبالتقنية الارمنية الخاصة بالنقوش البارزة . وليس بمستبعد ان تكون بعض التمثيلات الحيوانية ، وحتى البشرية ، مستوحاة من نماذج تركية قديمة اتقن صنعها في آسيا الوسطى . فلا مجال والحالة هذه ، امام هذا القدر الكبير من المنجزات المعقدة والمبتكرة ، للكلام عن طابع هدام ترتديه السيطرة التركية .

الطوائف المسيحية الشرقية

امام هـــذا الازدهار الادبي والفني ، تبدو نشاطات الطوائف المسيحية الشرقية هزيلة جداً وشبه رسوبية . وقد أعرب عنهـا منذ ذاك الحين، الا عند الارمن واليعاقبة، باللغة العربية وفي مؤلفات معدّة لجمهور محدود جداً. وانما تجدر الاشارة الى ان الاقباط ، الذين كانوا متخلفين عن مسيحيي آسيا ، قـد بذلوا مجهوداً كبيراً في سبيل نهضة روحية لا مناص منها لبقاء طائفتهم. فنتج عن ذلك وضع مجموعات قانونية أشرف عليها آل عسّـال في القرن الثالث عشر، بينما برز بعض المؤرخين الاقباط ايضاً: وهكذا فان ابن العميد، الموظف لدى الايوبيين، قد اشتهر في عهد مبكر في اوروبا باسم *Elmacin* ، وان مؤلفاته لقنت « مستشرقينا » الأول مبادىء تاريخ البلدان الناطقة بالضاد . ويجب كذلك ان نخص بالذكر الطوائف اليعقوبية التي حدثت نهضتها الفكرية في العهد السلجوقي منطوية عـــلى مغالطة ظاهرية . ولكن لهـــا ما يفسرها فأسياد آسيا الصغرى الجدد ، الحذرين من العرب واليونانيين معاً ، قد آثروا اختيار موظفيهم المحليين بين مسيحيي الطقس السرياني ؛ ولما كان بعض هؤلاء يقيمون في بلاد تتكلم اليونانيـــة والبعض الآخر في بلاد تتكلم العربية ، آثر باعثو هذه النهضة الادبية العودة الى اللهجة السريانية القديمة، مع ان أبناء دينهم قد انقطعوا عن التكلم بها : بهذه اللغة العلمية ، الميتة ، وضع مفكر كبير ، هو البطريرك ميخائيل السوري ، في القرن الثاني عشر ، يوميات نقلت الى الارمنية وهو بعد على قيد الحياة ؛ وبلغت هـذه الحركة ذروتها في اوائل العهد المغولي بمؤلفات ابن العبري التاريخية والسياسية والدينية ؛ الا ان عدم انتشار هذا الادب قد جعل من هذا المؤلف آخر مؤلفيه المشهورين .

كانت الثقافة الارمنية آنذاك اعظم حيوية وأكثر تنوعاً . ما زال بعض الارمن يعيشون ، عند حدود الاناضول واذربيجان ، تحت سيطرة الامراء الاتراك ، وضم البعض الآخر منهم الى مملكة جيورجيا التي تأسست وتوسعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فشجع هـــذا الانصهار في دولة مسيحية ، وان يونانية الطقس ، على نشأة اول مركز للثقافة الارمنية حول بعض الاديرة في حوض الاراكس الاعلى . اضف الى ذلك ان أرمناً آخرين قد فروا الى كيليكيا امام الفتح التركي لأواسط آسيا الصغرى . فتأسست هنا، خلال القرن الثاني عشر، دولة صغرى مستقلة ساعدتها بيزنطية وفرنجة سوريا تارة وضايقوها اخرى ، بلغت اوج عزها في اوائل القرن التالي مع أميرها ليون الكبير وفتحت أبوابها واسعة امام المقتبسات اليونانية او اللاتينية، محافظة في الوقت نفسه على قومية متحذرة . اما مركز الاراكس ، البعيد عن التأثيرات الغربية ، فقد أنتج خصوصاً مؤلفات تاريخية والمجموعة القانونية الهامة الـــتي وضعها مخيطار غوش . ولكن مركز كيليكيا والفرات يعنينا مباشرة، اذ ان «متى الرهاوي» هو احد المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الاولى، وان للترجمة الارمنية لمجموعة القوانين الانطاكية الفضل في ايصال هـــذه الوثيقة الاساسية للقانون اللاتيني في الشرق .

ويعود لتأسيس دولة جيورجيا اخيراً بعث ادب هذا الشعب وفنه . فقد انضمت آنذاك الى

المؤلفات الدينية المستوحاة من اليونانيين المؤلفات التاريخيـــة ، والملحمة القومية التي وضعها « شوطا روستافيلي » ، والتي يـــبرز فيها الاثر الايراني . واستمرت الطوائف الارمنية في الوقت نفسه ، حتى تلك التي حرمت حق تشييد الكنائس ، في وفائها لتزويق المخطوطات . ولكن اسهامها الاعظم في تاريخ الفن يقوم حتى تاريخه في الدروس التي لقنها الارمن والجيورجيون على السواء للفنانين الروس وفناني البلقان ايضاً في الارجح .

اما النتيجة فهي ان حياة هذه الطوائف في وسط الجماهير الاسلامية قد ازدادت انعزالاً يوماً بعد يوم ، وهذا ما يفسر ضعف انتشار ثقافتها ؛ وقد شعر رجال الفكر المستنيرون من أبنائها بمخاطر هذا الوضع . فما ان اتضح ، في القرن الثالث عشر ، فشل الحمـــلات الصليبية للغرب اللاتيني ، حتى جرت بعض الاتصالات بين المرسلين الآتين من روما وكهنوت الطوائف الشرقية ، ولكن على الرغم من الاوهام الساذجـــة التي غرر موفدو البابوية من فرنسيسكان او دومينيكان انفسهم بها ، فان الاختلافات قد بقيت اعظم من ان يمسي التقارب مثمراً ودائماً ؛ وكان من شأن هذا التقارب ، لو حصل ، ان يهدد بالخطر التساهل الذي أفادت منه الطوائف الشرقيـــة لدى المسلمين الذين ربما كانوا اعتبروه تحالفاً سياسياً مع اعداء الاسلام. اما الموارنة ، الذين ضموا كلهم الى سوريا الفرنجية فقد عادوا كلهم منذ القرن الثاني عشر الى الوحدة الكاثوليكية ، دون ان يضحوا بشيء من استقلالهم على كل حال ، ولكن لم ينح نحوهم ، من الكنائس الاخرى ، سوى بعض الفئات الارمنية في كيليكيا . ثم تجددت هذه الاتصالات بعد الفتح المغولي ، الا انهـــا ، على الرغم من فائدتها ، قد انتهت الى فشل ذريع .

غسق بيزنطة

اذا ولّى انصار هذا التقارب وجههم شطر كنيسة روما ، دون كنيسة القسطنطينية ، فلأن الامبراطورية البيزنطية قد زالت عملياً من الوجود ، على الرغم من التماعتها الاخيرة في القرن الثاني عشر . فلا ريب في ان عيوبها الداخلية كانت مسؤولة الى حد بعيد عن الكارثة التي حلت بها من جراء الفتح التركي لآسيا الصغرى والتي اضيف اليها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر تقدم "بتشنيك في أعالي الدانوب وهجوم النورمنديين الايطاليين على ابيروس . ولكن البتشنيك محقوا ، والنورمنديين صدوا بعد زمن قصير . أما أتراك آسيا الصغرى الذين لاقوا صعوبات جمة في تنظيم فتوحاتهم ، فقـــد استطاع البيزنطيون – بفضل عضد الحملة الصليبية الاولى ايضاً – ايقافهم واقصاءهم عـــن مشارف النجد الاناضولي على البحر . فباتت بيزنطيـــة آنذاك سيدة المضائق وايجه واليونان وتراقيا وبلغاريا دون منازع ؛ ومن حيث هي حامية الصرب ، فان قوتها ، على هبوطها ، ما زالت تلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية . وقد استطاع مانوئيل كومنينوس ، في الربع الثالث من القرن الثاني عشر فرض احترام رأيه في الشؤون الدانوبية والتدخـــل في الدسائس الايطالية ولعب دور هام في الشرق اللاتيني. اجل لقد ثقلت وطأة تأثير الارستوقراطية العلمانية في داخل الامبراطورية : فقد ازدادت « مداخيل الحيطة » وأمست وراثية ، وضم العظماء اليهـــا موارد الاديرة التي قدمت لهم بمثابـــة مكاسب ؛ وكانت سلالة آل كومنينوس عوناً كبيراً لانتصار

الارستوقراطية التي انحدرت منها. ولكن خسارة آسيا الصغرى ، قد اضرت، في الوقت نفسه، اضراراً بالغاً بأعظم عائلات الامبراطورية ، فاستطاعت الدولة القاء الاهابـــة والخوف في قواها الهدامة . وهذا ما يفسر استقرار عهد هذه السلالة اذا ما قورن بالانقلابات المتعاقبة في القرن السابق : فقد خاضت بيزنطية آنذاك حروباً عديدة للذود عن حدودها ، ولكنها نعمت في الداخل ، على العموم ، بسلم نسبي .

بفضل هذا الاستقرار، سارت النشاطات الفكرية والفنية سيرها الطبيعي . فالتاريخ لا يزال حقلاً خصباً : فروت آنّا كومنينوس وقائع ملك ابيها ألكسيوس؛ وأكمل كيناموس روايتها حتى ملك مانوئيل ، وألف نيكيتاس خونياتوس بحثاً مفصلاً مستفيضاً في التاريخ البيزنطي منذ تولي يوحنا كومنينوس حتى بعيد الحملة الصليبية التي نظمت في السنة ١٢٠٤ ، بينما حظي موجز التاريخ العام الذي وضعه زوناراس ، بعد مرور زمن قصير على تأليفه ، بشهرة واسعة عظيمة . وكتب في الوقت نفسه ثيوفيلاكتوس الاوكريدي، المعاصر لالكسيوس، ثم ميخائيل خونياتوس واوستاخيوس التسالونيكي ، في اواخر القرن الثاني عشر ، وبلغة كلاسيكية وعلميـة ، رسائل وخطباً ومؤلفات دينية ملأى بالمعلومات المفيدة . ووصلت الينا ، بالاضافـة الى ذلك ، حاملة اسم ثيوذورس بروذروموس بنوع خاص ، مجموعـــات قصائد منظومة باللغة الشعبية تذكرنا بـ « فيّون » ، وان هذا اللون ، الجديد في بيزنطية ، سيكتب له البقاء . اما الابحاث الفلسفية فقد ضعفت بفعل حركة مماثلة لتلك التي عرفها الاسلام آنذاك : فان جسارات يوحنا الايطالي ، احـــد تلاميذ « بسلّوس » قد أقلقت الارثوذكسيين ؛ واحترز الناس من المستوحيات الوثنية ، التي اخصبت ذاك الاخصاب العجيب في الاجيال السابقـــة ، واذعنوا كل الاذعان لتعاليم الدين .

اما الفن فـــلم يصب بالمقابلة بأي وهن . فان قصر بلاشيرن الذي شيّده آل كومنينوس في اقصى « القرن الذهبي » ، والذي تبقّى منه الجزء المعروف اليوم بـ « تكفور – سراي » ، قد اثار الاعجاب على غرار « القصر العظيم » الذي اهمل شيئاً فشيئاً. وما زال البيزنطيون يشيدون الكنائس في الاديرة والابرشيات ، ككنيسة « الضابط الكل » في القسطنطينية . ويلفت الانتبـــاه بصورة خاصة ان اثر الفن البيزنطي ما زال يمتد الى ما وراء حدود الامبراطورية المنكمشة : فالبلدان السلافية التي اعتنقت الدين المسيحي حديثاً طلبت الى مهندسي العمارة اليونانيين تشييد كنائسها ؛ وفي ايطاليا الجنوبية وصقليا وضعت مواهب الفنـــانين المحافظين على التقليد البيزنطي في خدمة كبار البنائين من الامراء النورمنديين؛ واستوحت بعض أبنية الغرب اللاتيني نفسها كـ «سان ـ فروت في بريغو» ، بفعل تأثيرات غير واضحة ، بعض النماذج البنائية البيزنطية . واستغل مؤلفو وفنانو البلدان اللاتينية او السلافية ما تعلموه بحرية ، ولم يترددوا في البحث عن مصادر وحي اخرى في امكنة اخرى . وعلى الرغم من ذلك فقد حصل التوازن آنذاك بـــين بيزنطية التي ما زالت تنبض بالحياة ، وبين الغرب الذي اخذ يستيقظ من سباته .

ان التضاد لمدهش بين نشاطات الفكر هذه والانحطاط الاقتصادي الذي منيت به الامبراطورية اليونانية منذ اواخر القرن الحادي عشر . فلما كانت الفتوحات التركية قد حالت تقريباً دون الاستعانة ببحارة الولايات الآسيوية ، حين مسّت الحاجة الى اسطول للوقوف في وجـــه النورمنديين ، اضطر الكسيوس كومنينوس الى التحالف مع البندقية ، القوة البحرية الوحيدة في البحر المتوسط ، لقاء امتيازات وضعت في يدها عملياً احتكار تجارة الامبراطورية الخارجية (١٠٨٢) . ولم يجد خلفاء الكسيوس حلاً آخر لاضعاف نفوذ البندقية الا بموازنتها بامتيازات مماثلة يمنحونها الجنويين والبيزيين ويفيدون من المنافسات التي تقوم بين الطرفين. اما في الامبراطورية التي تناقصت مواردها الجبائية تدريجياً ، فقد تعاظم باطراد تأثير الجاليات الايطالية المقيمة في الاستانة ، وتعاظم معه تدخل اللاتين في السياسة البيزنطية : فدول الصليبيين التي لم تقم بعملية مفيدة ضد اتراك الاناضول ، قضت في الشرق على النفوذ اليوناني ؛ والجيش البيزنطي نفسه قد لجأ الى خدمات المرتزقة الغربيين الذين ازداد عددهم ازدياداً مطرداً ؛ وتعددت في العائلات المالكة كما في الارستوقراطية الزواجات المختلطة ، التي ادخلت على بلاط مانوئيل كومنينوس عادات نصف لاتينية. الا ان الشعب اليوناني لم ينجرف في هذا التيار، فأظهر اشمئزازه ، بتأثير من اكليروسه، من التدخـــل الغربي . فحاول مانوئيل اخيراً (١١٧١) ، بعد فوات الاوان ، التخلص من التجار الايطاليين ، مع انه لم يكن بغنى عنهم ؛ فجاءت محاولته بمثابة حرب معلنة في غير أوانها افضت، بعد وفاة الامبراطور ، الى تقتيل كافة لاتين القسطنطينية. وبذلك قطعت بيزنطية المستضعفة اتصالها بالغرب حين بدا رجحان كفة الغرب على كفتها في ميزان القوى .

جاءت النتيجة سريعة وغامضة ومسرحية. انتهج مانوئيل كومنينوس سياسة عظمة ارهقت رعاياه، دون ان تجدي فتيلاً على كل حال، اذ ان كارثة ميريوكيفالون في السنة ١١٧٦ قد أعطت البرهان القاطع على استحالة استعادة تركيا الآسيوية . فاستهدفت غضبة الشعب الارستوقراطية العسكرية واللاتـــين على السواء ؛ وعجز اندرونيكوس كومنينوس المغتصب ، وحكم سلالة « الملائكة » القصير ، من بعده ، عن تأسيس أي بناء دائم على الانقاض التي كدستها الحركة المعادية للاتين. فاستفاد النورمنديون والبلغاريون والصرب واتراك الاناضول من تصارع الاحزاب وقاموا في آن واحد بهجماتهم او بثوراتهم على الامبراطورية . واذا سعى « الملائكة » آنذاك للتعاون مع صلاح الدين على اللاتين، فقد فكرت فئات اخرى بالتعاون مع هؤلاء لاستلام الحكم. اجل نحن لا نعلم بالضبط مدى اطماع بعض قادة الحملة الصليبية الرابعة ، منذ مغادرتها الغرب ، ضد الامبراطورية البيزنطية . ولكن الواقع هو ان البندقيين وفرسان فرنسا الشمالية قد دخلوا القسطنطينية عنوة في اوائل السنة ١٢٠٤ وعملوا فيها نهباً واستلاباً وأقاموا على انقاض بيزنطية « امبراطورية لاتينية » ضعيفة .

قد يجوز ، لاعتبارات شتى ، التوقف بالتاريخ البيزنطي عند هذا التاريخ . ولا يعني ذلـك قط ان اللاتين استطاعوا تدويخ كافـــة الاراضي اليونانية : فلا يزال منها ، خارج سيطرتهم ،

منطقة « طرابزون » ومنطقة ابيروس و « امبراطورية » نيقيه بصورة خاصة التي يرجح ان الأتراك رأوا من الخير ابقاءها على شواطىء آسيا الصغرى الغربية، والتي توصل ملوكها ، بفضل جيش من الفلاحين ، الى توطيد هذا الملجأ الاخير لثقافة يونانية عرفت الازدهار آنذاك على يد « نيكيفوروس بلميدس » واضع دائرة المعارف . ولكن ما أوردنا ليس سوى بقاع متشتتة تسودها التفرقـــة نفسها التي تسود امارات الامبراطورية اللاتينية . اما الذين سيستفيدون من هذه العملية فهم دول البلقان السلافية في الدرجة الاولى ثم الاتراك في اجل لاحق بعيد . لذلك لم تخدم حملة السنة ١٢٠٤ قضية التقارب اليوناني اللاتيني قط ، بـــل اوجدت هوّة يستحيل اجتيازها بين فرسان الغرب والجماهير اليونانية المتكتلة حول كنيستها؛ ويمكن القول بهذا الصدد، ان الانشقاق الديني الذي لا يزال قائمـاً حتى أيامنا هذه انما يعود تاريخه الى السنة ١٢٠٤ لا الى السنة ١٠٥٤ .

روسيا قبيل الفتح المغولي

كان مقدراً للشعوب البلقانية ، بعد ان تحررت بسقوط بيزنطية، ان تبلغ ذروة قوتها في القرن الرابع عشر . ولكن هذا القول لا يصح في روسيا التي توقف تاريخها بقسوة ، على غرار الاسلام ، منذ الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، بفعل الفتح المغولي . كان التصدع ، في هذه المساحات السلافية الشاسعة ، قد لحق بامارة « كييف »؛ ولم يكن غريباً عن هذا التصدع نظام انتقال السلطة القاضي باعادة توزيـــع الاراضي، بحسب تسلسل معين، كلما توفي احد امراء العائلة المالكة التي مارست سيادة متضامنة. الا ان انحطاط الدولة « الكييفية » يردّ ايضاً الى توسع الشعب الروسي الذي اتجهت تجارتـــه، آنذاك ، شطر المانيـــا وقزوين بالتفضيل على القسطنطينية ؛ ويرد ايضاً وخصوصاً الى غارات سكان السهول البائرة من « كومان » او « بولوفتس » الذين طردوا سلافيي المناطق الجنوبيـــة وأرغموهم على استعمار السهول القليلة السكان التي يرويها الدنيستر، او منطقة الغابات شبه المقفرة، في الشمال الغربي ، التي تمتد حتى اواسط الفولغا . فنشأت عن هـــذا التشتيت شعوب مختلفة ، الاوكرانيون ، والروس البيض ، والروس الطوال . وتحررت آنـــذاك منطقتان : نوفغورود وبسكوف، في اقصى الشمال، اللتان اعطتا الجمعيات الاقليمية استقلالاً داخلياً وتنظمتا كجمهوريتين تجاريتين ما لبثت عامة الشعب فيهما ان قاومت اوليغارشية رجـال الاعمال والحكام ؛ ونظّم « اندريه بوغوليوسكي » في الشمال الشرقي ، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، في المنطقة الـــتي ستنمو فيها موسكو قريباً ، امارة « سوزدال التي احدثت انقلاباً في تاريخ ماض تمركزت فيه روسيا حول الدنيبر .

على الرغم من هذه التيارات المختلفة التي ترتسم بين الشعوب الروسية ، احتفظت « كييف » بمركزها الادبي : فانما وضعت في كييف نفسها ، في السنوات الاولى مـــن القرن الثاني عشر ، الـ « روسكايا برافدا » أي مجموعة القوانين الروسية ، وظهرت اليوميات المنسوبة لنسطور التي تشيد بمآثر اسطورية او واقعية أتتها السلالة القديمة . وفي « كييف » ملك على التوالي قسطنطين

مونوماكوس الذي ستتجسم الحكمة بخياله الشعبي، و « ايفور » ، بطل الحرب ضد «الكومان». وان ما يلفت الانتباه في كلما بلغنا من الادب المكتوب في ذاك الوقت، او من التقاليد الشفهية، هو عمق التضامن والوطنية الروسيين . ولذلك لم يكتف الادب بالنقل عن اليونانية ، بل انطلق انطلاقة قادته الى الاستقلال. ففي هذا العهد اخذ بعض الشعراء يشيعون روايات نصف اسطورية تعبّر عن الحكمة الشعبية، استهوت الفلاحين الروس حتى فجر القرن العشرين, اجل ان تحريرها قد حدث في عهد متأخر جداً ، وهذا ما يجعل الشك مخيّماً على صحة رواية « حكمة ايفور » الشهيرة . ولكن اذا صحت نسبتها الى القرن الثاني عشر فانها ترينا روسيا الناهضة قادرة على وضع ملحمة خليقة ، من حيث قيمتها الادبية ، بأعظم حضارات العصر . وبدا الاستقلال نفسه والعبقرية نفسها في الفن : فلم تعد روسيا القرن الثاني عشر، على غرار الدولة الكييفية القديمة ، مجرّد ولاية من ولايات الفن البيزنطي . فقد عرف مهندسو أبنية نوفغورود وبسكوف كيف يوفقون بين التأثيرات اليونانية وتأثيرات المانيا البلطيكية، كما عرف ذلك ايضاً رسامو الإيقونات ومزوقو الكتب . ونشأت بصورة خاصة في المنطقة التي سيطلق عليها اسم موسكوفيا ، أي في سوزدال وفلاديمير ، هندسة عمـــارة حجرية ، جديدة كل الجدة بغنى زخرفتها المصورة ، يستحيل علينا ان لا نرى فيها تقليداً للنماذج الارمنية والجيورجيـــة . ويبدو في كل مكان ، بالاضافة الى ذلك ، ان فنانين روسيين كثيرين قد حلوا محل الفنانين الاجانب وطبقوا دروسهم بحرية متزايدة .

بيد ان روسيا التي بدت حضارتها على وشك التفتح، لن تنجو، شأن الاسلام التركي الذي بدا مستقراً ، من كارثة جديدة : فقد دقت ساعة الغزو المغولي .

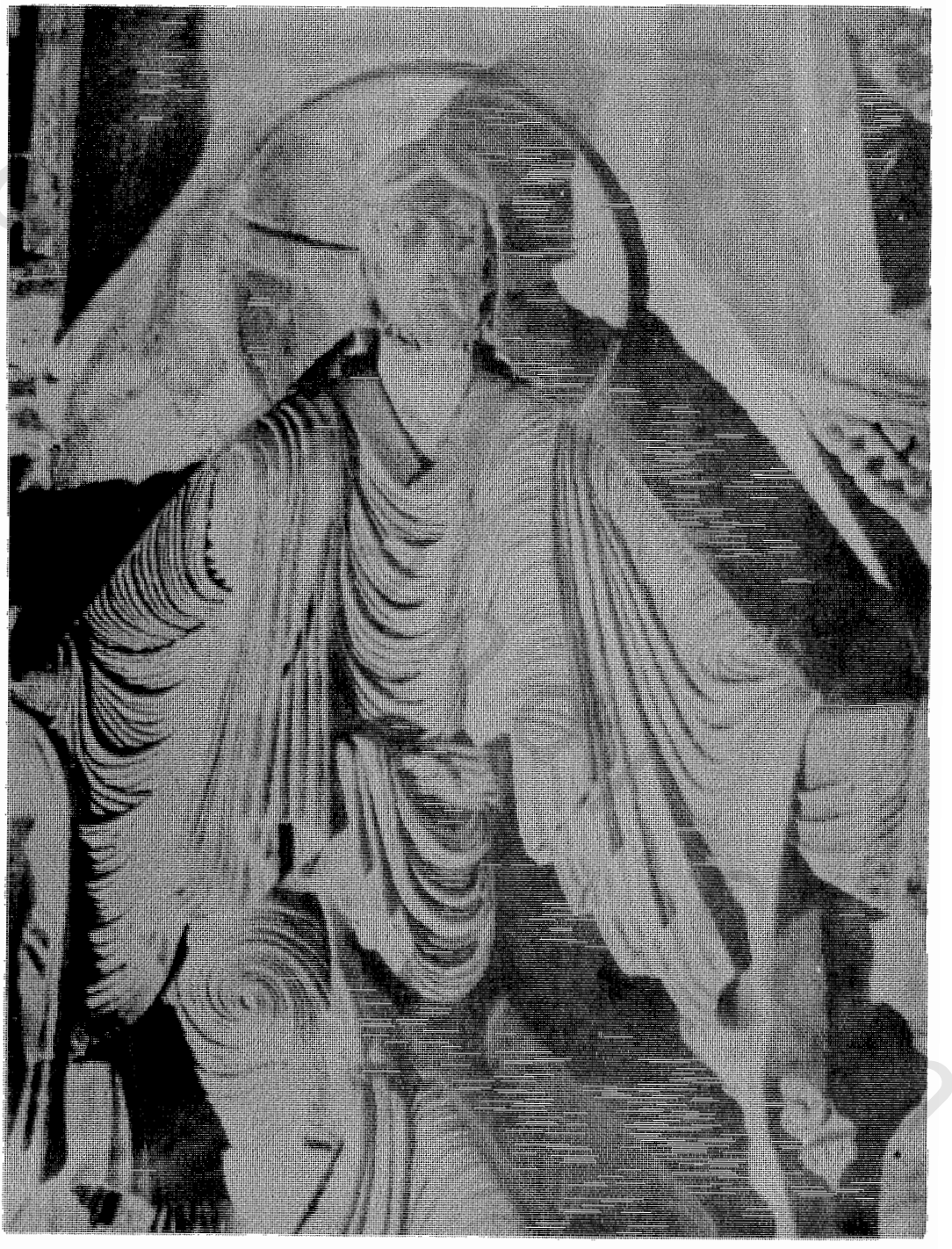

اللوحة ١٧ - المسيح في جلاله

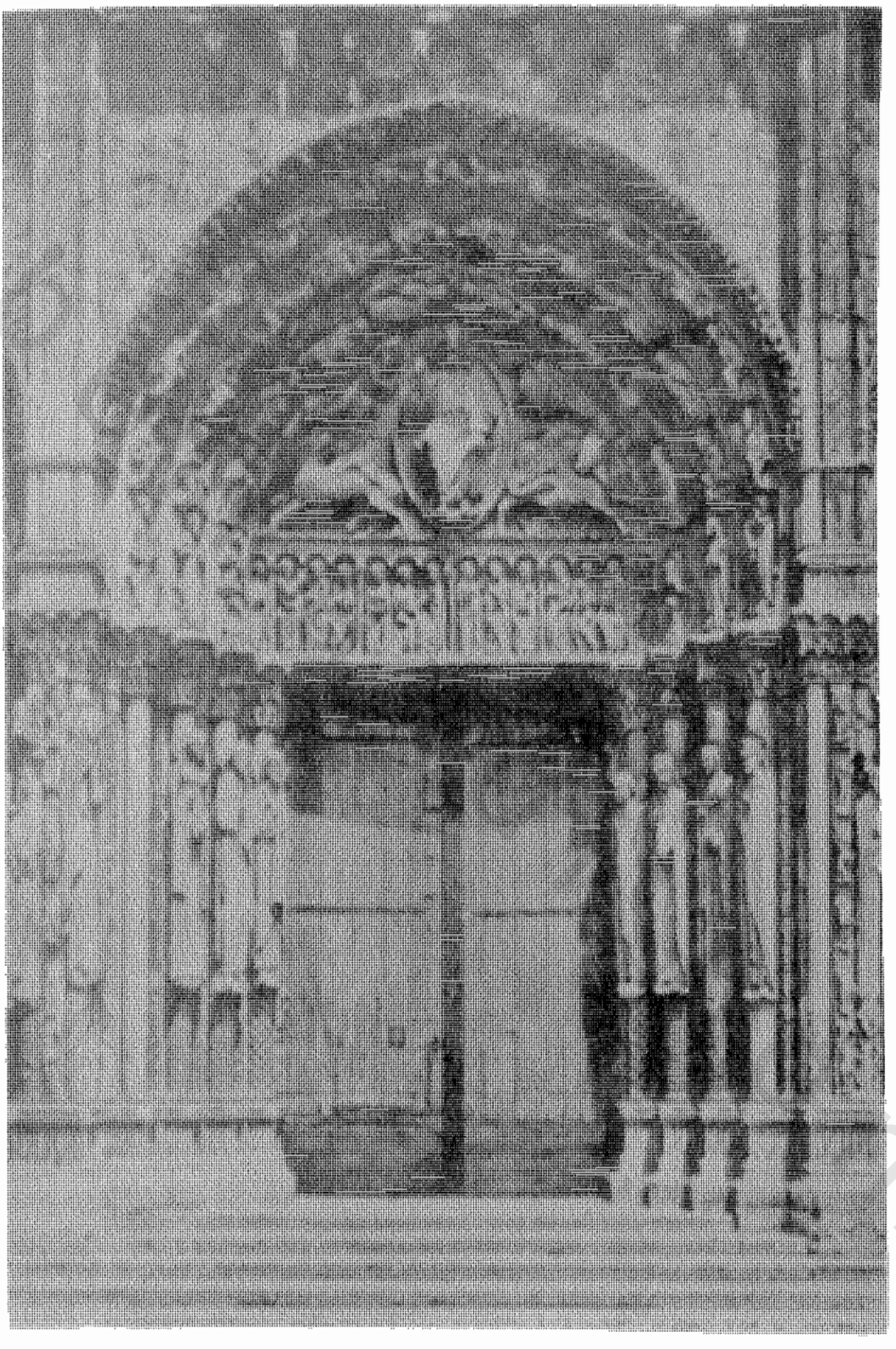

اللوحة ١٨ – الباب الملكي في كاتدرائية شارتر (القرن الثاني عشر) .

اللوحة ١٩ – رواق دير تورونيه (القرن الثاني عشر) .

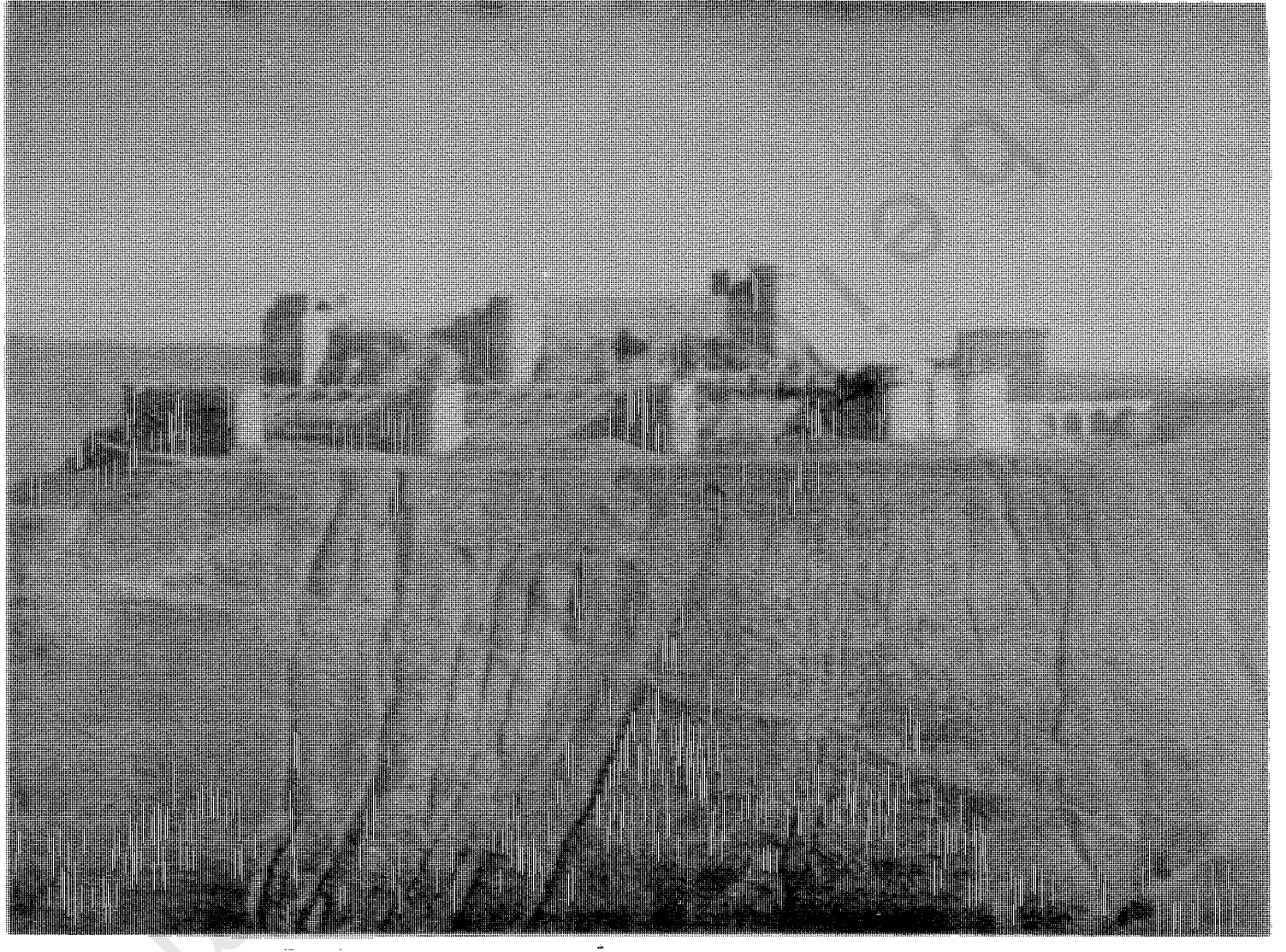

اللوحة ٢٠ – قلعة الفرسان (حصن الأكراد) ، قلعة صليبية في سوريا (القرن الثاني عشر) .

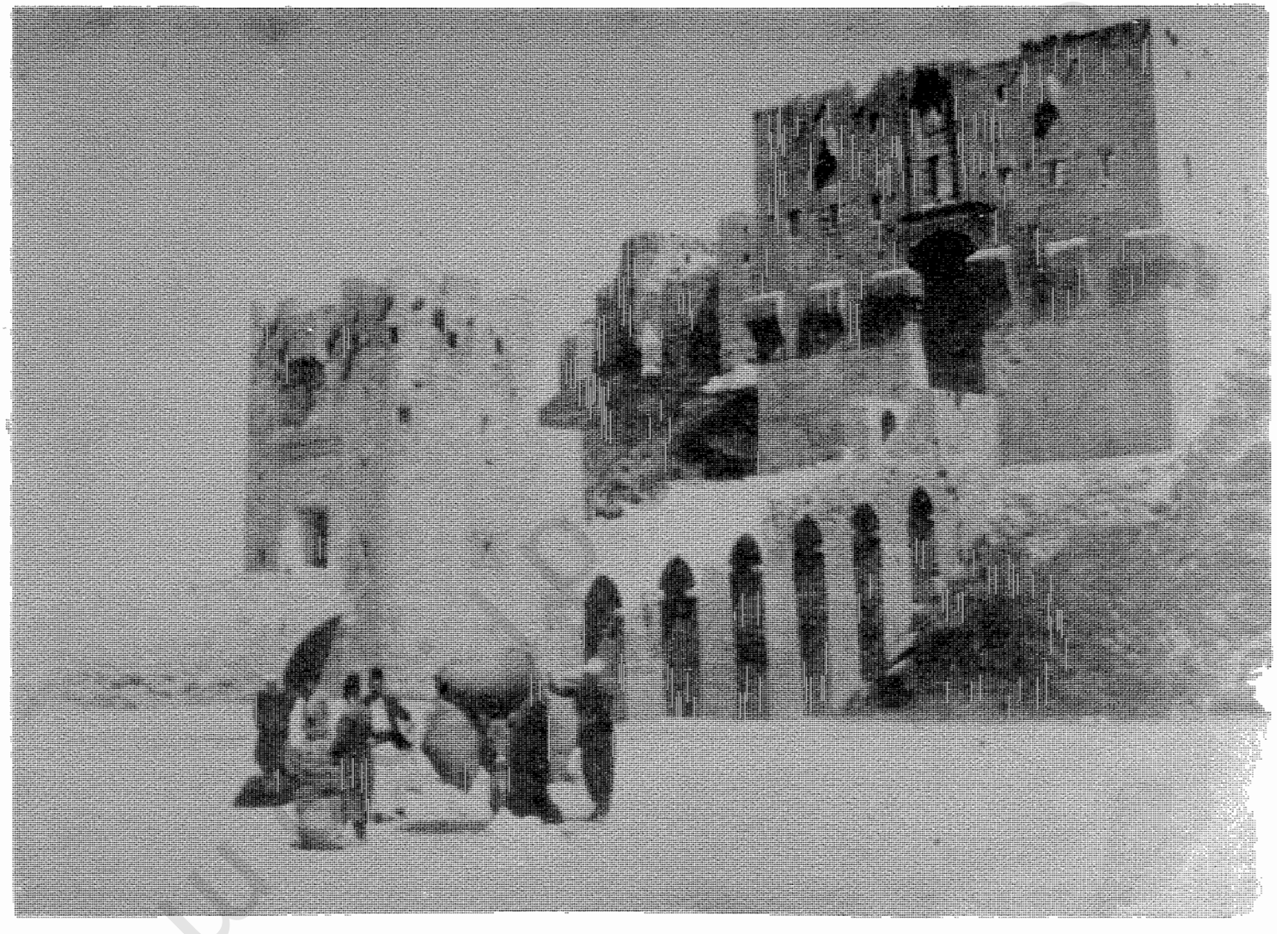

اللوحة ٢١ – قلعة حلب (سوريا) ، القرن الثاني عشر .

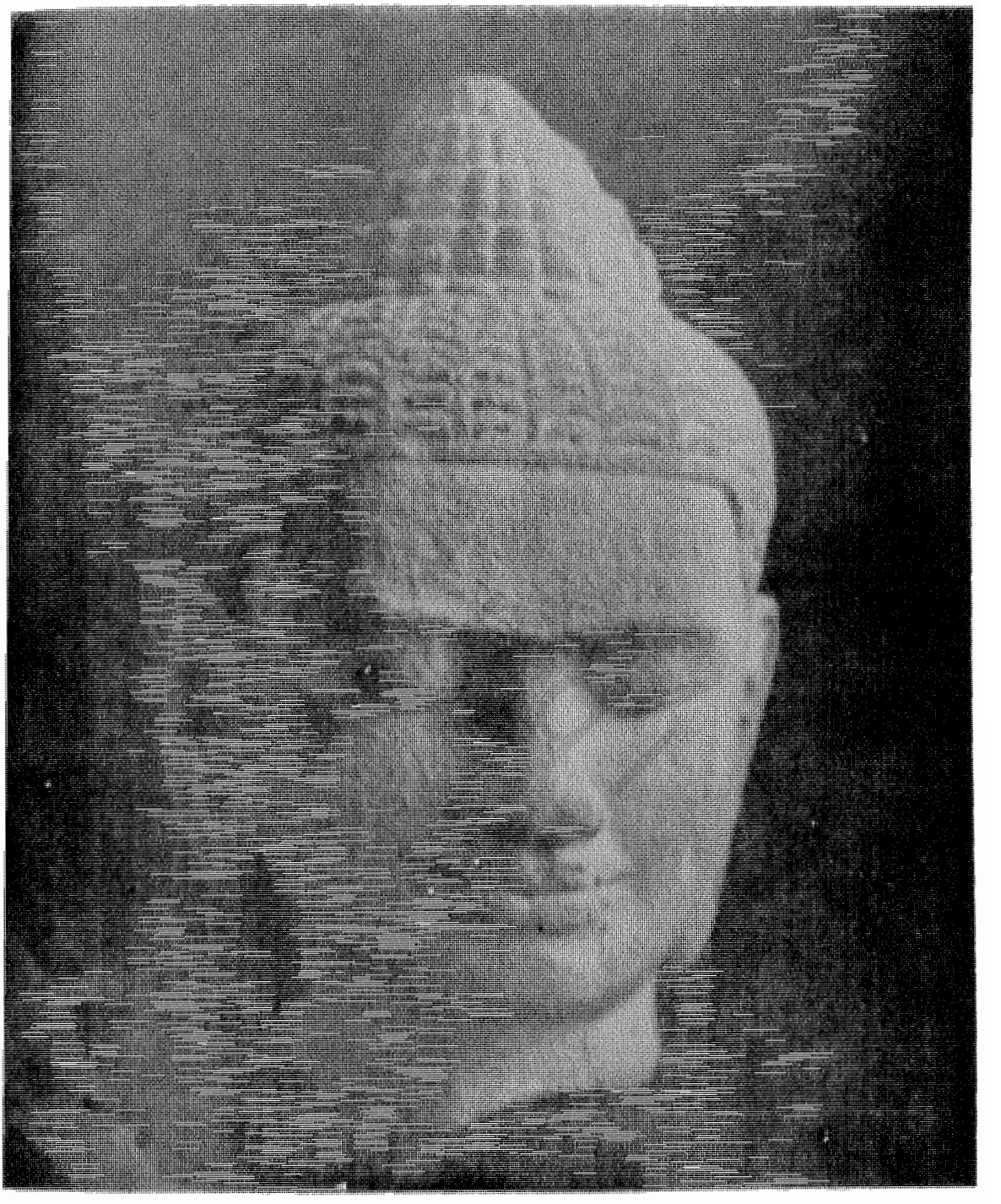

اللوحة ٢٢ - رأس بوذا خميري

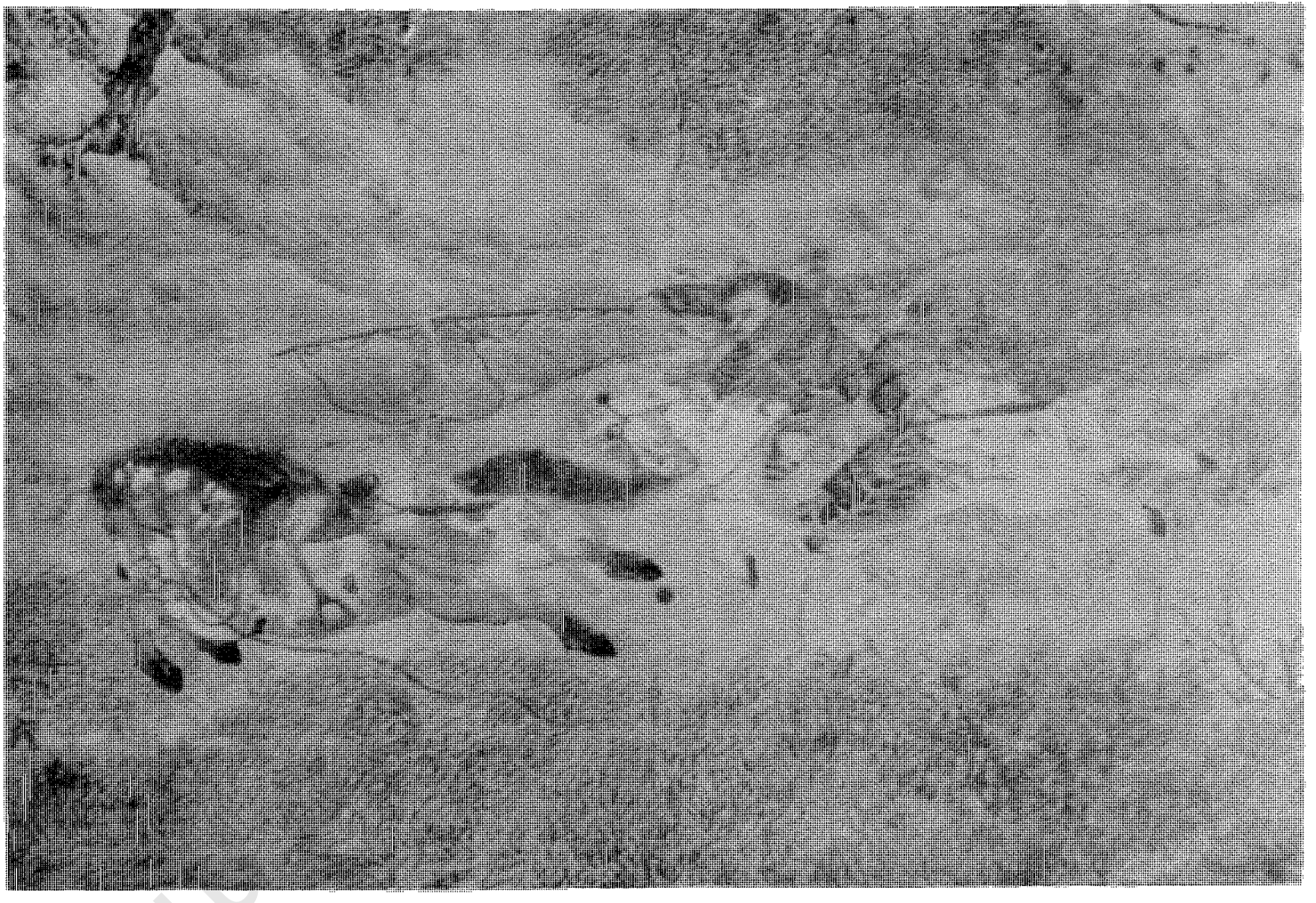

اللوحة ٢٣ – فارس مغولي يلاحق حصاناً هارباً .

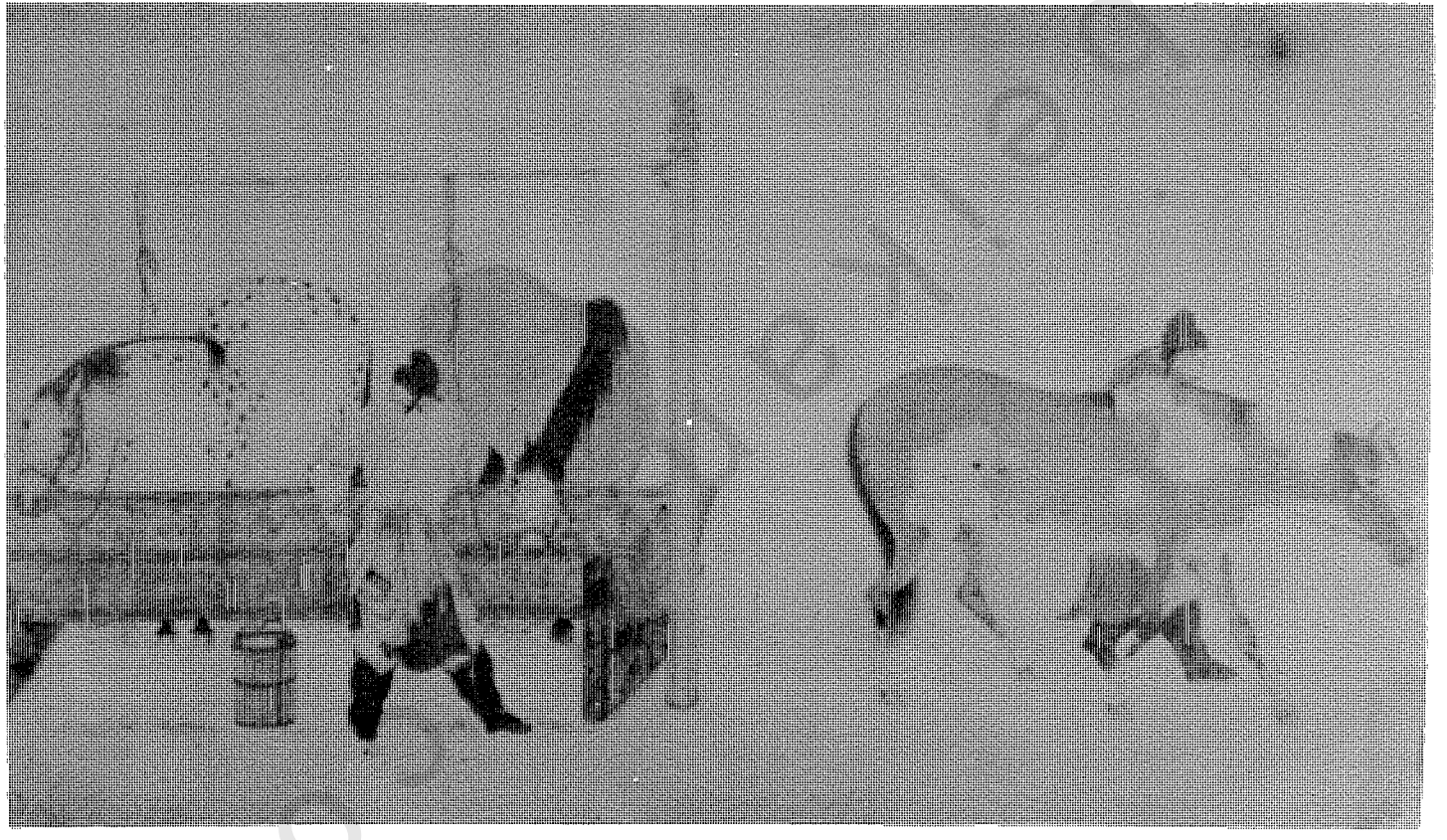

اللوحة ٢٤ – الاحصنة في المشرب

اللوحة ٢٥ – اعمال الحقول

اللوحة ٢٩ – سوق لنديت

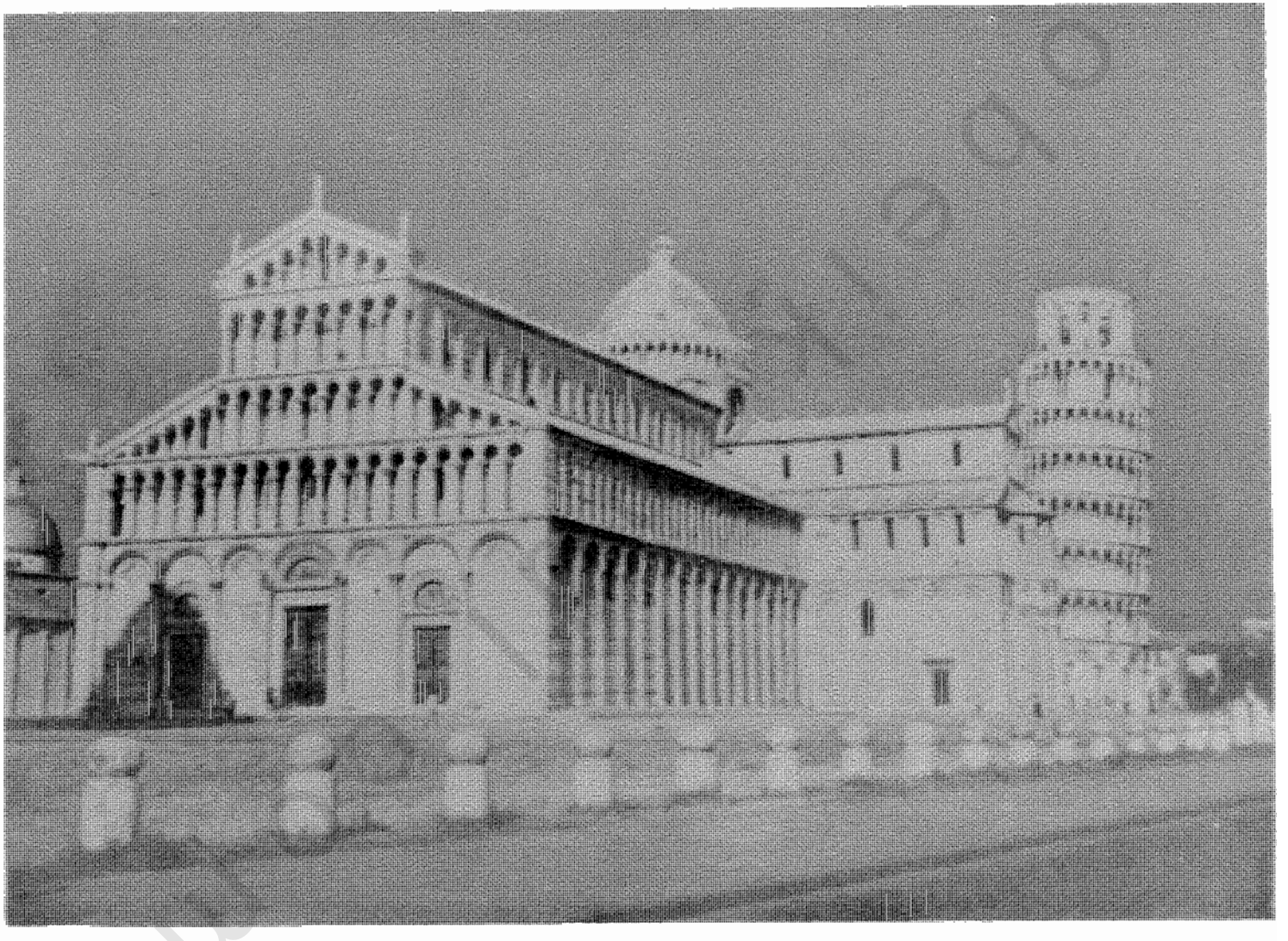

اللوحة ٢٧ – قبة بيزا وبرجها المنحني ، القرن الثاني عشر .

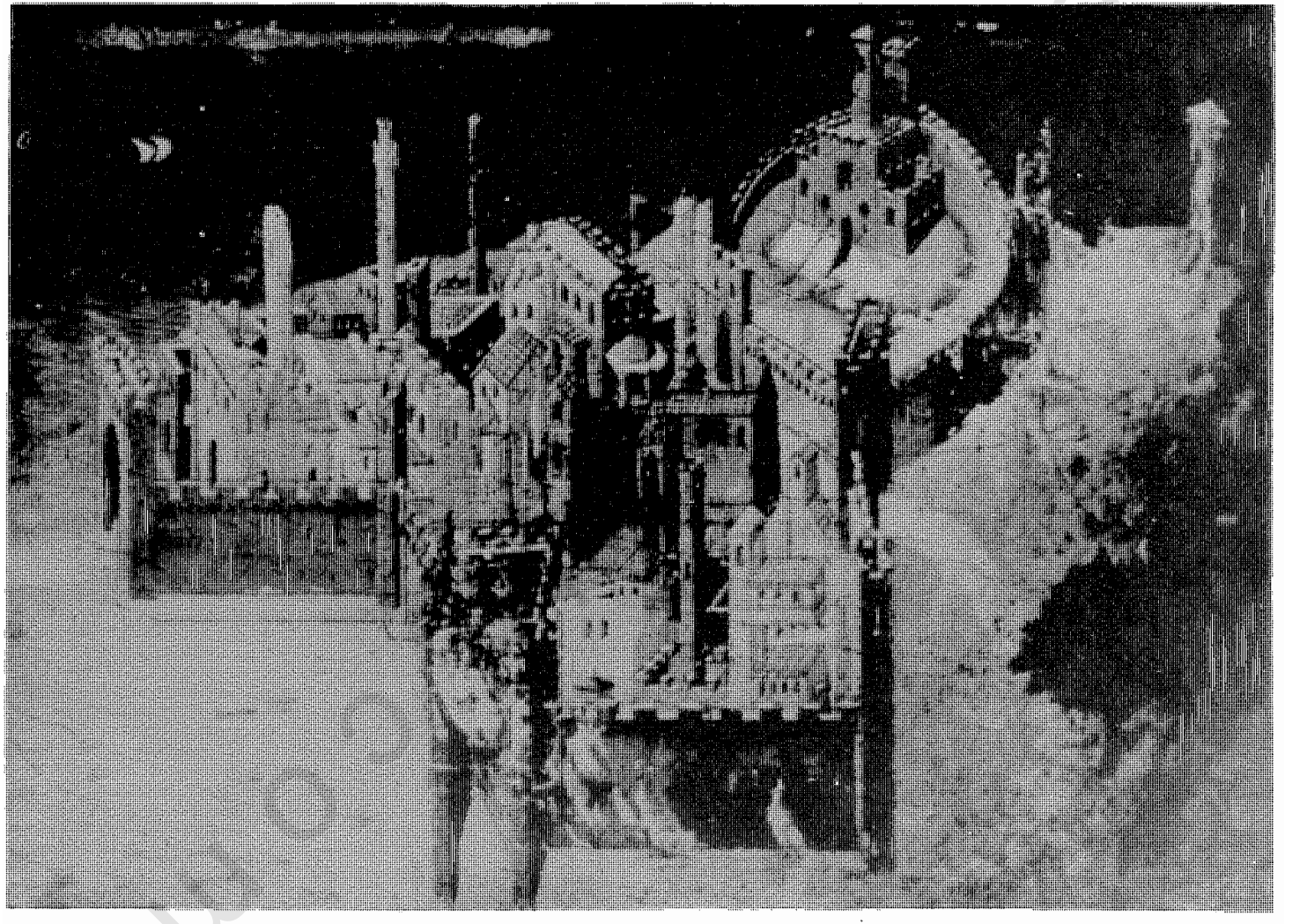

اللوحة ٢٨ – مدينة ايطالية في القرون الوسطى .

اللوحة ٢٩ – مدينة كركستون .

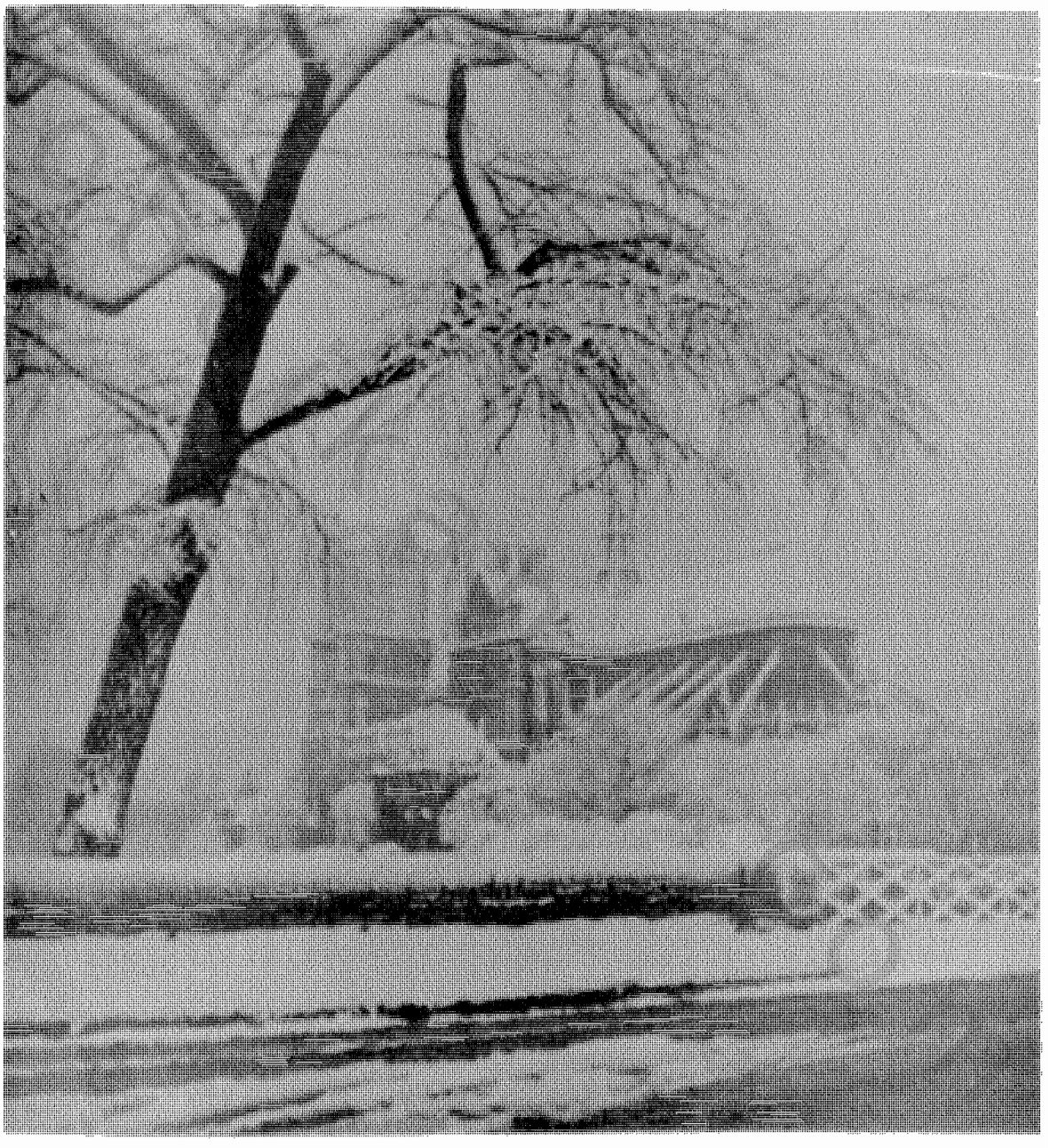

اللوحة ٣٠ – كنيسة نوتردام في باريس (القرنان الثاني عشر والثالث عشر) .

اللوحة ٣١ ملك واشي .

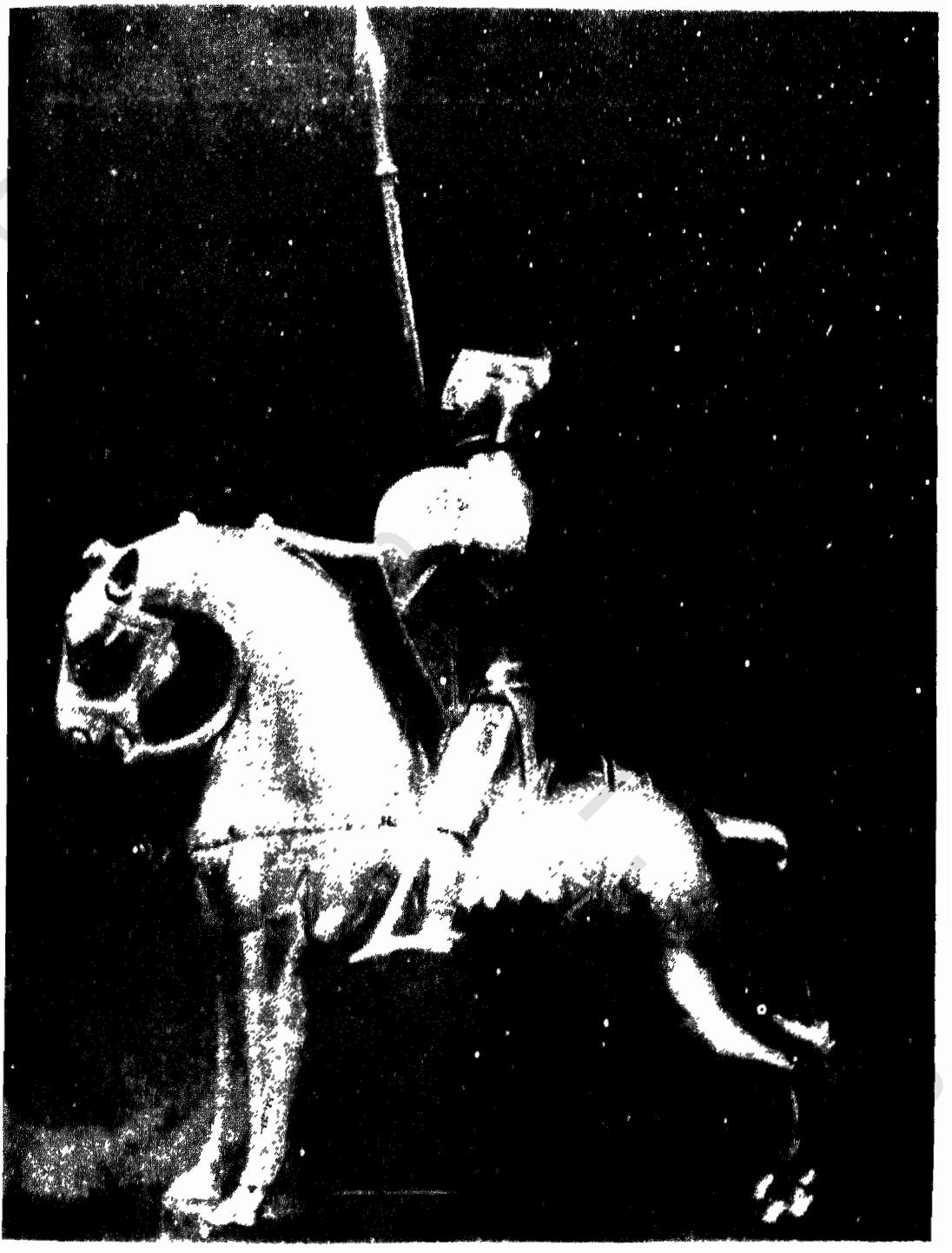

اللوحة ٣٢ – فارس [illegible]

الفصل الثالث

آسيا المغولية
(القرن الثالث عشر والرابع عشر)

ان الواقع الجديد الذي يميز آسيا في القرن الثاني عشر والذي رأينا في فصل سابق تحيزه البطيء ، هو ان الهند والصين قد فقدتا نفوذهما العريق في القدم على الدول الشرقية في هذه القارة الواسعة الاطراف . اجل كلتاهما تتيهان خيلاء ، استناداً الى ماضيها التاريخي الطويل ، بتحقيقاتها المدهشة في الحقل الفلسفي والديني وفي حقول الادب والموسيقى والفنون التصويرية . وكلتاهما لا تزالان الزعيمتين الروحيتين لبلدين احدث عهداً في آسيا الجنوبية الشرقية ، أي كوريا واليابان ، تساند مركزهما هذا تجارة لا تزال ناشطة . ولكنهما تشكوان كلتاهما من وهن داخلي هو النذير بانحطاط قريب .

آسيا قبيل التوسع المغولي

قسمت الهند عملياً الى شطرين بفعل الغزو الاسلامي الذي سار في اندفاعه نحو الشرق وبلغ البنغال التي أكمل فتحها في السنة ١٢٠٢ . ولم تحل الحروب الداخلية التي مزقت الدول الاسلامية الحديثة العهد وأفضت الى هزيمة الغزنويين امام الافغانيين الغوريين ، دون تقدم الفاتحين نحو الجنوب ايضاً . فانكفأت الممالك المحلية نحو « دكن » وتقاسمت شبه الجزيرة وانتقلت السيطرة من هذه الى تلك بحسب محالفة الحظ لهذه او لتلك في المعارك . اجل كانت المقاومة ضارية في وجه الغزاة ولكنها تأثرت بهذا الانقسام وهذه الحروب بين الاخوة .

وتجزأت الصين بدورها ايضاً بعد ان اعرض السونغ نهائياً عن استعادة ارث « التانغ » وآثروا في مدينتهم - المتحف «هانغ-تشيو» الانصراف الى الفن وعلم الجمال وعلم المعقولات . فخضعت كافة مناطق البلاد الشمالية لـ « كين » ، « الجورتشنات » الاذكياء الذين قوّضوا مملكة الـ « كيتنات » وحققوا السيطرة عليهم خلال القرن الثاني عشر ، وبلغ منهم انهم هددوا عاصمة « السونغ » فترة من الزمن . وفي منتصف هذا القرن ، بلغ عدد العواصم في الاراضي الصينية

obeikandl.com

ستاً على الاقل : « تا ـ تنغ » في الشمال (جيهول) ؛ « لياوو ـ يانغ » في الشرق ؛ « تا ـ تونغ » في الغرب، بكين في الوسط؛ كي ـ فونغ (تانكين) جنوبي مملكة الكين ؛ وهانغ ـ تشيو اخيراً، عاصمة السونغ . وكان من شأن الصلح غير الثابت المعقود مع الكين، الذين نقضوه تكراراً ، ان أتاح لهؤلاء السيطرة على اراض شاسعة قاست الامرّين من غزوات وحروب متتاليـــة دامت قروناً عديدة ؛ واذا انهمك بلاط السونغ بالمجادلات الادبية والفلسفية ، فان شعوب الشمال قـد اختبرت الحياة القاسية التي تعيشها بلدان خاضعة لحكام لا يزالون برابرة .

كانت النتيجة الاولى لهذا الانحطاط المزدوج تحرّر الدول الآسيوية الاخرى عملياً ان لم يكن نظرياً ، من سيادة الصين والهند . فسطع نجم الامبراطورية الخميرية آنذاك في عهد ولاية الملك « شوريافارمان » الثاني الكبير (حوالي ١١١٢ - ١١٥٢) ؛ اجل انه اغتصب الملك اغتصاباً ، ولكنه كان محارباً شجاعاً واداريا لامعاً ضم الـ « سيام » الوسطى (مملكة لوبوري) الى مملكه، وأرغم الـ « شمبا » على محالفته لمحاربة « داي كوفييّت » (انام) وشيّد معبد « انغكورفات » المدهش ، وهو افضل طراز للمعبد - الجبل ، المكرّس لـ « فيشنو » ، والمعدّ لأن يكون ضريحاً ملكياً : وفي كمال هذا البناء وجمال زخرفته العظيم ما يجعل منه رائعة من روائع الفن العالمي . ثم سطع كذلك ، بعد كسوف نجم عن هجوم الشمبا ، في ايام جايافارمان السابع (أواخر القرن الثاني عشر) ، ولعله أشهر ملوك كمبوديا ، الذي جهز المملكة وعاصمتها بأفسح معابدها ، وأنجز العديد من الاعمال العمرانية ، وأسس المستشفيات وسما بالسلطة الامبراطورية حتى ذروتهـــا . وتناقصت بالمقابلة قوة الشمبا الـــتي أفضى اندفاع « انام » نحو الجنوب الى حصرها في الولايات الجنوبية من الهند الصينية ، فانكفأت التأثيرات الهندية ، بالفعل نفسه ، امام حضارة صينية الطابع . على الرغم من هذا الوضع البائس الذي جعـــل الشمبا تواجه التقدم الانامي في الشمال والقوة الخميرية في الغرب والجنوب، نراها محافظة على نزعتها الى الحرب ومستمرة في شن الغارات، براً وبحراً ، على كافة جيرانها . الا ان السيام قد بقيت عراة : فبينما توسع الـ « طاي » ، الآتون من الشمال، حتى اواسط البلاد الخاضعة آنذاك لسيطرة الخيريين ، استطاعت مملكة « هاريبونجايا » الابقاء على حضارتها المونية المتأثرة بالحضارة الهندية تأثراً عميقاً . وانطفأت في « بورما » سلالة الملوك العظام الذين دفعوا بلادهم الى الامام في القرن الثاني عشر ؛ ولكن التقاليد الثقافية ، على الرغم من الفوضى السياسية ، قد انصانت بفضل البوذية والباب الصغير » التي كانت بورما مركزها المفضل . وبقيت الجزر اخيراً مقسمة الى ثلاث ممالك : مملكة الشيلندرا اسياد « كريفيجايا » وأتباع الـ « شولا » اسياد الهند الجنوبية ؛ ومملكة « سورابايا » (جافا الشرقية) التي لا نعلم عن تاريخها سوى النزر اليسير ؛ ومملكة « قاديري » ، وهي أقوى هذه الممالك وأعظمها نشاطاً ، التي نتبين ان ثقافتها الهندية تخضع تدريجياً للتقاليد المحلية .

اما اليابان، التي سبق ورأينا انها عاشت طوال قرون عديدة من المستوردات الصينية ، والتي كانت آخذة في العودة الى عبقريتها الخاصة في الحقل الفكري والفني ، فما زالت خاضعة لسيطرة

عائلة الـ « فوجيوارا » القوية . واذا ما سادها الاضطراب ، في القرن الثاني عشر ، بفعل منازعات العائلات الكبيرة الطامعة بالسلطة ، واذا ما طرأت على السلالة الامبراطورية تبدلات خطيرة ، واذا ما فرض نظام « الشوغونا » السياسي الجديد قوانين صارمة ، فان الانطلاقة لن تتوقف الا في السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر ، والاختلال الذي سببه هـــذا التوقف سيحدث في الزمن حين يبرز خطر الغزو المغولي. الا ان هذه المرحلة هي ايضاً الفترة التي أخذت فيها الصوفية « زن » ، وهي في اول عهدها ، تطبع الثقافة اليابانية بطابعها الخاص المميز .

يتضح من ذلك ان البذور التي ألقتها الهند والصين في كافة البلدان الشرقية والجنوبية الشرقية قد أنبتت حضارات جديدة – الخيرية والجافانية واليابانية – وجعلت بعض الشعوب المتخلفة تعي حقيقتها وطاقتها . الا ان الهند والصين قد افتقرتا الى القوة اللازمة لبسط سيطرتها عـــلى الشعوب المحيطة بهما ؛ لا بل تعسّر عليهما مقاومة ضغط امبراطورية اسلامية تحركها عصبية الحرب المقدسة وعالم بدو سائر في طريق التنظيم .

ماضي عالم البدو

منذ العصور القديمة ، جابت جماعات من البدو الرحل منطقة الاراضي البائرة الشاسعة التي تؤلف شطراً هاماً من اوراسيا . وقد انتسب هؤلاء بلهجاتهم الى الاسرة اللغوية الالتائيـــة أي التركية المغولية . ولكن مساكنهم نفسها فرضت عليهم ، منذ الوف السنين ، نمطاً حياتياً راعوياً اتسم بطابع بدائي غريب الى جانب الحضارات المستقرة التي عاصرتهم . استهوت قبائلهم منذ القدم الاراضي الزراعية المتاخمة لبوراتهم فتجمعت شيئاً فشيئاً واكتفت في فترة من الزمن بشن غارات صاعقة وحشية على جيرانها ، ثم تكتل عدد كبير من هذه الجماعات بصورة مفاجئة وقام بغزوة رهيبة فرّ امامها السكان المزارعون الذين تحولت مزروعاتهم الى مراع على يـد بدو رحل لا يهتمون الا لزواملهم ومواشيهم . بهذا المدّ والجزر وهذا الكر والفر قام تاريخ البلدان المتاخمة للبورات الاوراسية : البدو يرسمون البورات في الاراضي الزراعية ، والفلاحون يرسمون اراضيهم الزراعية عند حدود البورات . الا ان نوع حياة سكان الحدود ، وهو شبيه بحيـــاة البدو ، واختلاط القبائل في الاراضي التي سلكتها في تنقلاتها ، قد سهلا الاتصال بين البدو الرحل والسكان المقيمين . ومع ذلك فان سكان البورات ، الامناء لحياة العرسان والرعاة القاسية ، قد استهوتهم ثروة الحضارات المتطورة وتفخلها . واذا هم عندوا في تقويضها ، فان بعضهم قد تأثروا بسحرها وتكيفوا احياناً بحضارة المقيمين : فتصيّن البعض ، كالمغول الكيتات ، الذين استولوا في القرن الحادي عشر على شطر من الصين الشمالية وجعلوا من بكين مقراً لهم ، وتأثر البعض الآخر بالحضارة الايرانية ، كالاتراك الـ « ويغور » ، الذين اعتنقوا المانوية وتعلموا اصول الادب فغدوا المربين الحقيقيين للدول التركية – المغوليـــة الاخرى ورفضوا العودة الى الحياة البدوية .

لقد برهنوا احياناً عن اخلاصهم في محالفة الدول الكبرى الـــتي ارتأت طلب مساعدتهم

او أرغمت على طلبها ، ولكنهم كانوا في الغالب تهديداً خطيراً ودائماً : فقد أتاحت لهم خيولهم الصغيرة القيام بهجمات صاعقة ، ودرجوا على ان لا يتركوا وراءهم الا الخراب والدمار ، فكانوا أعداء مرعبين . اجل لم يتوصلوا بعد الى توحيد جماعاتهم القبلية المتشتتة في البورات . ولكنهم توصلوا الى تأسيس امبراطوريات سريعة الزوال تعاقبت عليها تعاقباً مطرداً على مر الزمن الهيمنة التركية والهيمنة المغولية . وغالباً ما قوض فيها اقل الناس تحضراً الممالك التي توصل أكثر الناس تطوراً الى تأسيسها . لذلك بات لزاماً علينا هنا القاء نظرة سريعة على هذا التاريخ منذ غزوات القرن الرابع الكبرى التي بلغت امتداداتها اوروبا ، مع اتّسيلا ، والهند ، مع ميهيراكولا . ومن شأن هذه العجالة ان تساعد على فهم نشأة عمل جنكيز خان وطابعه المميز .

في القرن السادس ، استقرت فيما بين الصين ومصاب الدون ثلاثة شعوب كبرى : الـ « جوان ـ جوان » في منغوليا ، من منشوريا حتى « طرفان » ، و « الهون الهفتاليون » ، من شمالي منطقة قراشهر الى مرو ومن الآرال الى البنجاب ، والهون الاوروبيون ، وهم من العرق التركي في الارجح ، حول بحر آزوف ومصب الدون . الا ان الجوان ـ جوان وهفتاليي تركستان ردّوا الى الوراء ، في السنة ٥٥٠ ، على يد الـ « تو ـ كيو » مؤسسي الامبراطورية البدوية الاولى التي عرفت تنظيماً على بعض الاستقرار . اجل لقد انقسم التو ـ كيو الى مملكتين تؤمين امتدت أراضيهما من منشوريا الى خراسان ، وكان هذا الانقسام ، بالاضافة الى فوضويتهم التقليدية مدعاة لضعفهم . وكان للمقيمين منهم في الغرب حدود مشتركة بينهم وبين بلاد فارس الساسانية التي التمست بيزنطية مساعدتهم عليها فحافظوا على استقلالهم حتى اليوم الذي استطاعت فيه سلالة « تانغ » الصينية القوية سحق اخوانهم في منغوليا ، فبسطت حينذاك سيطرتها عليهم . ثم حلّت محلهم امبراطورية تركية اخرى هي امبراطورية الويغور الذين اقاموا الى الجنوب من بحيرة « بيقال » ، جاعلين من « قره بلغاسون » عاصمة لهم ، وسيطروا ، حول طرفان ، على شطر من تركستان . ثم غدا الويغور اهل قرار وضعفوا بفعل تحضرهم ، فانتزعت عاصمتهم منهم في السنة ٨٤٠ ، على يد « الكرغيز » ، وهم من الاتراك الهمجيين . كان الـ « آفار » ، في هذه الأثناء ، قد خلفوا الهون في البورات الروسية وأقاموا بين الدنيستر والدانوب ، بينما استفاد الـ « شا ـ تو » من الاتراك المتصينين العائشين حياة بدوية حول « ها ـ مي » عند طرف البورات الآخر ، من ضعف التانغ ليستولوا على شمالي غربي الصين (٨٠٨) . وعادت منغوليا ، في عهد « الكرغيز » ، وحتى السنة ٩٢٠ ، الى همجيتها الاولى ، بينما تمكن الويغور ، على الرغم من ضعفهم ، من تثبيت أقدامهم في تركستان .

في أوائل القرن العاشر طرد الكرغيز بدورهم وأبيدوا على أيدي برابرة آخرين من العرق المغولي ، هم « الكيتات » . كان هؤلاء قد حاولوا ، لثلاثة قرون خلت ، التسرب الى الاراضي الصينية ، ولكن التانغ ردوهم الى الوراء بضراوة ، فاستفادوا آنذاك من انهيار القوة الصينية ودخلوا بقيادة رئيس جريء وراء الجدار الكبير وأقاموا على العرش الامبراطوري قائداً صينياً

فرضوا حمايتهم عليه ، فكان ذلـــك مقدمة لاستيطان العديد من البرابرة في الصين التي ستتولى جماعاتهم فتحها. وقد دامت اقامة الكيتات زمناً طويلاً: فتصيّنوا وحملوا اسم « كين » (ذهب) الصيني ، وأغاروا تكراراً ، طيلة قرنين ، على حدود الصين الجنوبية دون ان يفقدوا شيئاً من طاقتهم الحربية . ولهذا فان تاريخهم يختلف بعض الشيء عن تاريخ معاصريهم « الجريّين » الذين سبق ورأينا انهم وصلوا الى اوروبا الوسطى في اواخر القرن التاسع وشنوا غارات مدمّرة ، وان متفرقة ، على بعض ربوع الغرب المسيحي قبل ان يردوا نهائياً الى سهل الدانوب ويستقروا ويعتنقوا الدين المسيحي ويؤلفوا بعد ذلك سوراً منيعاً للمسيحية في وجه الموجات الاخـــيرة لغزوات البدو المتدفقين على اوروبا . وفي الواقـــع اقام برابرة آخرون ، في عهد متأخر ، بين الفولغا وقزوين: ففي هذه الرقعة من الارض التي يتلاقى فيها البيزنطيون والعرب من تجار الفراء، والتي لجأ اليها العديد من اليهود هرباً من اضطهادات الامبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس، يبدو ان الخزر اعتنقوا الدين اليهودي . فردوا الى الوراء في السنة ٩٦٥ على يد امير روسي من « كييف » ، ثم سحقوا في السنة ١٠١٦ على يد الامبراطور باسيليوس الثاني ، ولم يتلاشوا نهائياً الا في السنة ١٠٣٠ . في هذه الاثناء ، نجح الاتراك الغربيون ، او القراخانيون ، في اجتياز دولة السامانيين الاسلامية ـ وهؤلاء ايرانيون سبق ورأينا كيف سيطروا سيطرة واسعة ، سريعـة الزوال ، على البختيـار ، ومنطقة ما وراء النهر ، وخوارزم وخراسان وسيستان ـ وانتزعوا منهم منطقة ما وراء النهر التي ضموا اليها قشغاريا فتركوها بأن نشروا فيها الدين الاسلامي الذي كانوا قد اعتنقوه .

بعد تلاشي الخزر، احتفظ « الكيتات » والقراخانيون بمواقعهم طيلة القسم الاكبر من القرن الحادي عشر . ثم ادمج القراخانيون ، حوالي السنة ١٠٧١ ، في الامبراطورية السلجوقية الـتي كان مؤسسوها ، المنحدرون من الاوغوز المغمورين ، قد اعتنقوا الاسلام ديناً : فانفصل تاريخهم منذئذ، كما سبق ورأينا ، عن تاريخ عالم البدو ، مع ان ذهنيتهم التركانية المتأصلة ستبرز تكراراً في تصرفاتهم . وفي الوقت نفسه ، اقام شعب تيبتي في « الاوردوس » و « الألاشان » ؛ فأخضع هؤلاء الرحـــل الآخرون ، الذين عرفوا باسم « سي ـ هيا » ، شمالي غربي الصين بينما احتفظ « الكيتات » بشماليها الشرقي .

خلال القرن الثاني عشر ايضاً ، جرت تنقلات الجماعات البدوية عند طرفي عالم البورات . ففي سهول روسيا الجنوبية ، حـــل محل « الخزر » « البتشنيك » الذين سبق وعلمنا أي خطر شكلوه على حدود الامبراطورية البيزنطية من جهة الدانوب ، الى ان قضى عليهم الامبراطور يوحنا كومنينوس (١١٢٢). ثم جاء « الاوغوز » الذين عاثوا فساداً بدورهم في البلقان وخلفوا الـ « كبشاك » . وأحدق الخطر من جهة ثانية بصين السونغ ايضاً ، اذ هدّدها « الكيتات » في الشمال الشرقي ، و « السبي ـ هيا » في الشمال الغربي. فكان خطأ الامبراطور «هواي ـ تسونغ»، وهو شاعر افضل منه سياسي ، محاولة منه لاخراج الكيتات من بكين ، في الاستعانـــة

بالـ « جورشات » الذين تشدهم أواصر النسب الى المنشوريين الحاليين. فلم يكتف انتصاف البرابرة هؤلاء بمنغوليا الداخلية ومنشوريا اللتين عينهما لهم « هواي ـ تسونغ » . فبعـــد ان قوّضوا امبراطورية « الكيتانات » ، الذين كانوا قد ركنوا الى التمقل والهدوء بعد ان تعوّدوا الحيـــاة الصينية ، بسطوا سيادتهم على كافة أنحاء الصين الشمالية مندفعين بحملاتهم حتى بلاد السونغ التي لم يصدوا فيها الا بصعوبة .

شملت سيطرة الجورشات ، من ثم ، عند فجر القرن الثالث عشر ، وقبيل مغامرة جنكيز خان المظيمة ، كافة نواحي منشوريا والصين الشمالية ، بينما احتفظ السي ـ هيا بالمناطق الشمالية الغربية . واقام الويغور ، بعد ان باتوا اهل قرار ، في واحات تاريم وكوكا ، وطرفان ، الـتي يبدو ان ازدهارها قد تأخر بفعل تراكم الرمال . وعاش القراخيطاط ، المتصينون والمتنصرون ، عيشة البدو الرحل في الشطر الاخر من تركستان ، من « ها ـ مي » الى «الآرال» و «خوجند» ، باسطين حمايتهم على المنطقة القائمة بـين أعالي نهر ينيسايي ونهر « آمو ـ داريا » . وحلّت ، وراء هذا النهر ، امارة الخوارزميين ، وهم اتراك اعتنقوا الاسلام ، محل السلجوقيين في منطقة واسعة الاطراف ضمت ، بالاضافــة الى خوارزم نفسها ، خراسان ومنطقة « كابول » وغزنه وبلاد فارس كلها حتى جيورجيا . اما شمالي الهند اخيراً فقد احتله الغوريون الافغان الذين تغلبوا على الغزنويين . وشمل العالم التركي كافة أنحاء الشرق الادنى الاسلامي ؛ وتوسع الاتراك ـ المغوليون في روسيا والبلقان حتى سهول الدانوب .

هذه هي الفسيفساء الغريبة التي كوّنها السكان الرحل ـ وقد أمسى بعضهم اهل قرار ـ حين ظهر جنكيز خـــان : تنقلوا تنقلاً مستمراً منذ قرون ، دون ان يربط بينهم تلاحم حقيقي ، وأسسوا ممالك وامبراطوريات غير واضحة الحدود وسريعة الزوال نسبياً . لم تعوض وحدة اللغة عن تعدد المعتقدات والكيانات السياسية ؛ تأثروا بالحضارة الصينية تارة وبالحضارة الايرانيـــة اخرى او بقوا امناء للتقاليد التركية ـ المغوليـة ، واهتدوا اتفاقاً ، بحسب تنقلاتهم المختلفة ، تارة الى البوذية او الكونفوشيوسية ، وطوراً الى المسيحية النسطورية او المانوية او الاسلام او اليهودية . كانت تحالفاتهم سريعة الزوال ، ولم يتأثروا بتقدم الحضارات بل حافظوا في الغالب على عاداتهم الهمجية .

تكوّن الامبراطورية المغولية

ان خضوع هذا العالم البدوي المتشوش لارادة جنكيز خان قد أعد ، والحق يقال ، منذ زمن بعيد . فمنذ القرن العاشر تحرّر المغول ، بفضل تغلب الخيطاط على الاتراك الكرغيز ، من الوصاية التركية التي فرضت عليهم منذ سقوط الجوان ـ جوان . اضف الى ذلك ان تأسيس امبراطورية القراخيطاط في الربـع الاول من القرن الثاني عشر ، قد مثلت سلفاً ، على الرغم من ضعف رؤسائها ، موجة الغزوات البدوية الجديدة الظافرة قبل حصولها بمائة سنة : فهي الامبراطورية المغولية الاولى التي اقامت

بعيداً عن مناشئها الاصلية ، في منطقة هامة من الاراضي الخاضعة حتى ذاك العهد لجماعات من المقيمين .

ولكن قبائل مختلفة جداً ما زالت تتنازع البلدان المغولية حوالي منتصف القرن الثاني عشر : التتر ، والمغول بحصر المعنى ، والكونجيرات ، والاويرات ، والماركيت . وأقام ابعدَ الى الغرب ، في رقعة غير محددة تماماً ، الكرابيت الذين عاشوا عيشة بدوية واهتدوا الى النسطورية منذ اوائل القرن السابق ، والنيمان ، ولعلهم من اصل تركي ، الذين اعتنق بعضهم النسطورية وبقي البعض الآخر أميناً للسامانية . واذا حقق الكرابيت والنيمان ، كما يبدو ، بعض مظاهر الحضارة السطحية ، فان مجموع البلدان المغولية قد استمر منذ سيطرة الكرغيز في حالة همجية ظاهرة . ليس هناك من مجموعات سكنية كبيرة ، ثابتة او متنقلة ، محاطة بالاوتاد ، على غرار « مدن » « الويغور » او « التو ـ كيو » ؛ بل دساكر حقيرة ومعسكرات تتجمع فيها بعض العائلات او تقيم فيها عائلة واحدة في اغلب الاحيان . فتفسخ المجتمع ، المبني على القبيلة وفروعها ، حتى عاد الى مستوى العائلة . ثم تفككت العائلة نفسها ايضاً بفعل الفوضى السائدة .

ارتسمت عند أكثر هؤلاء البدو الرحل تأخراً ، في منغوليا الداخلية ، بعض محاولات التوحيد على ايدي جدود جنكيز خان أنفسهم . فقد جمع احدهم ، المدعو قايدو ، عملاً بطريقة اعتمدها الفاتح فيما بعد ، حول قبيلته الخاصة ، ـ البرجيين ـ العائلات التي طلبت حمايته فأسس بذلك « المملكة » المغولية الاولى وأسند ادارتها الى حفيده « كابول » الذي خلفه ابن عمه « امباكاي » ، ثم ابن هذا الاخير ، كوتولا . اشتد ساعد المغول شيئاً فشيئاً فأقاموا علائق صداقة « بالكيتات » ، أبناء جلدتهم المتصينين والمتحضرين . ودعي كابول الى بلاط بكين الامبراطوري فأدهش ضيوفه ، الذين لم يشتهروا برقتهم ، بتصرفاته الفظة وقابليته النهمة . ولكنه ، على الرغم من الهدايا التي أسبغت عليه ، قد تحسّب لكين ينصب له ، وامر فيما بعد بتقتيل موفدي الامبراطور وانقلب على الكيتات الذين لم يقاوموه ، بسبب انشغالهم بمحاربة السونغ ، الا مقاومة ضعيفة ، وتخلوا له اخيراً عن بعض المراكز المحصنة في شمالي النهر « سي ـ بنغ » وتعهدوا له بتقديم خرج سنوي من الابقار والاغنام والحبوب (١١٤٧) . ثم تخاصم المغول وأشقاؤهم التتر ، فتحالف التتر والكيتات وأحرزوا عليهم نصراً سريعاً ، فزالت « الملكية » المغولية في الصراع وعادت القبائل والاحزاب الى تجزئها الفوضوي .

في هذا التاريخ تقريباً (١١٦٧) ، أبصر جنكيز خان النور في سرادق العائلة المنصوب على ضفة نهر « الاونون » اليمنى . كان أبوه « ياسوغاي » ، وهو ابن شقيق الخان « كوتولا » ، رئيساً على فئة « الكيتات » في قبيلة البرجيين ؛ وكان قد اختطف زوجته من بلاد « الماركيت » . حارب التتر الى جانب عمه وقتل احد زعمائهم ، « تاموجين ـ اوغا » حوالي السنة ١١٥٥ ؛ ثم تدخل في خلافات الكرابيت الداخلية وفاز بصداقة خانهم طغريل الذي ساعده على استعادة سلطته على شعبه .

أطلق على بكر أبنائه الاربعة اسم « تاموجين » تخليداً لذكرى انتصاره على الزعيم التتري. ولكن المنية قـــد أدركته ، على اثر سم دسه له التتر ، حين لم يتجاوز تاموجين سنه التاسعة . فانتزعت مواشيه من ارملته وأبنائه القصّر الذين آلت حالتهم الى البؤس والشقاء. اما تاموجين فقد التجأ ، بعـــد طفولة قاسية وغير مستقرة خلقت فيـه جلداً نادراً ، الى حليف ابيه ، خان الكرابيت الذي جعـــل منه صاحب اخاذة تابعاً له. واتاح له ذكاؤه العملي الفطري ودهاؤه وطموحه ومهارته جبر الشؤون العائلية ، ثم محاولة تجديد الملكيـــة المغولية لمصلحته، وحمل لقب الخان ، الذى لم يحمله ابوه .هللت له القبائل التي جمعها حوله فاختار لنفسه (١١٩٦) اسم « شنكيز خان » الذي جعلنا منه جنكيز خان استمر في استغـــلال تحالفه المجدي مع طغريل ، فنظم حملة على التتر ، تلبية لطلب الكيتات ، مما اتاح له جني الالقاب الشرفية الصينية ، ثم اقتص من اعدائه الشخصيين ، واخضع العديد من القبائل المجاورة لسلطة الكرابيت . الا ان تعاظم قوة طغريل قد اثار بعض الانتفاضات ولا سيا ثورة بعض القبائـــل المتحالفة بقيادة رئيس نودي به امبراطوراً (غور – خان) على منغوليا . ولكن الغلبة تحققت في النهاية لجنكير خان الذي ساانده طغريل. فهزم واخضع، على التوالي، «التايشيوت» – الذين تشدهم اواصر نسب الى قبيلته – والتتر (١٢٠٢) ، والماركيت ، والعديد من جماعات اخرى دونهم شأناً . لمس حينذاك من نفسه القدرة على الانقلاب على الكرابيت ، الذين قبلوا بالخضوع له ، بعد ان قتل طغريل ، على الرغم من انتصارهم عليه في معركة ضارية . ثم جاء دور النيمان الذين استتبعت هزيمتهم خضوع« الاويرات »« والماركيت »المنشقين والكرغيز(١٢٠٧) وغيرهم.

بعد ان توحدت منغوليا كلها تحت سيطرته ، تولى جنكيز خان ، الذي نودي بهـــا خاناً اعظم (كاهان) ، تنظيم الدولة والجيش وباشر فتح الدول المتحضرة . بدأ بالصين الشمالية ، مهاجماً السي – هيا (١٢٠٩) اولاً ، وشانتاً بعد ذلك حرباً على الكيتات ستدوم خمساً وعشرين سنة . وقبل ان ينجز احتلال الصين الشمالية ، اندفع غربـــاً ضد القرا – خيطاط (١٢١٨) وخورازم (١٢٢٠) ، ضامّاً الى سلطته كافة المناطق الخاضعة لرقابة هذه الامـــاره الاخيرة : مناطق ما وراء النهر ، وافغانستان ، والقسم الاكبر من ايران . وارسل اثنين من خيرة قواده الى المناطق القزوينية، فاجتاحا جيورجيا واذربيجان واحرقا مدينة همذان،واصطدما «بالالين» شمالي القفقاس ، واخيراً هزما « الكبشاك » (١٢٢١) وامير « كييف » (١٢٢٢) .

اسس جنكيز خان ، في اقل من عشرين سنة – فهو قد مات في السنة ١٢٢٧ – امبراطورية شاسعة امتدت من بكين الى الفولغا . ثم جاء ابنه الثالث ، « اوغوداي » ، الذي كان قد عينه خلفاً له . وتابع بدوره توسيعها ، فانجز القضاء على الكيتات في مناطق الصين الشمالية الشرقية ، وفتح كوريا ، ودخل في حرب طويلة الامد ضد السونغ سيجني ثمارهـــا خلفه الثاني ، وتولى استعادة بلاد فارس الغربية التي كان قد انتزعها وريث الامبراطورية الخوارزمية . وبلغ بعض

قواده في اندفاعهم ، جيورجيا وأرمينيا ؛ وارسل غيرهم ضد اوروبا : فان بلغاريا وروسيا الجنوبية واوكرانيا وبولونيا ومورافيا وهنغاريا وكرواتيا ، وحتى شواطىء الادرياتيكي ، قد عرفت على التوالي ، بين السنة ١٢٣٦ والسنة ١٢٤٢ ، اعمالهم التخريبية وقساواتهم التي لا توصف . اجل ، لقد حملتهم وفاة اوغوداي والتنازع على خلافته على الارتداد الى الوراء حتى الفولغا ؛ ولكنهم كانوا قد وسموا الامبراطورية حتى ابواب اوروبا الوسطى .

وحالت مدة ولاية الخان غويوك القصيرة (١٢٤١ – ١٢٤٨) دون تحقيق فتح الدول المسيحية ، وهو مشروع قد راوده كما يبدو . ثم انصبت جهود الفتح المغولي من بعده على الشرق الاقصى . فتولى ابن عمه « مونكا » (١٢٥١–١٢٥٩) في الدرجة الاولى امر اصلاح ادارة الامبراطورية ؛ الا ان عمله لم يحل دون تفسخها بعد وفاته . وانهى اخوه « كوبيلاي » الحرب ضد السونغ ؛ وتخلى المغول هذه المرة عن الاساليب التدميرية العزيزة عليهم ونهجوا نهجاً جديداً نظموا بموجبه البلدان المحتلة تنظيماً منطقياً وحموا الزراعة ودرسوا المعاضل الادارية الاجتماعية . وبعد انهيار السونغ نهائياً في السنة ١٢٩٧ ، اسس كوبيلاي ، وهو اول اجنبي سيطر على امبراطورية عمرها ١٥٠٠ سنة ، سلالة « يُوان » وتبنى سياسة اباطرة الصين التقليدية . فاوجب على اصحاب الاشاذات الذين كانوا خاضعين لهذه البلاد ان يخضعوا له ايضاً ، ووطد السيادة المغولية على كوريا ، وحاول تكراراً الاستيلاء على اليابان ، ولكنه اضطر للعدول عن مشروعه بعد ان افنى احد الاعاصير افراد فرقه الغازية افناء تاماً . ولم يكن اوفر حظاً مع انام وشمبا اللتين فرض عليهما – وعلى بورما ايضاً – حماية غير ذات اثر تقريباً . وتوفق ملك « قاديري » بفضل الحملة التي وجهها على جاوا في السنة ١٢٩٣ الى الالقاء بالغزاة في البحر ، فتعاظمت قوته بعمل الانقاذ هذا واسس امبراطورية « ماجا باهيت » .

كان واضحاً من ثم ان الامبراطورية المغولية قد بلغت حدودها القصوى ؛ وكانت الحروب الاهلية ، من جهة ثانية ، قد اندلعت في منغوليا نفسها ، فاضطر كوبيلاي الى تأديب ابناء جلدته حتى يعيدهم الى النظام . وقد اصبحت بكين في عهده عاصمة امبراطورية شاسعة امتدت حتى الدانوب والفرات . اجل لقد بقيت هذه الامبراطورية تحت سلطة الخان الكبير المقيم في الصين ، ولكن الحكم المباشر في كل « ولاية » اسند الى خان ايضاً : فقد حكم بلاد فارس ، مثلاً ، هولاكو ، اخو كوبيلاي ، (١٢٥٦ – ١٢٦٥) وافراد ذريته من بعده .

مميزات الحضارة المغولية

لم تخضع الحضارة ، على ما نعلم ، خضوع حضارة المغول للمستلزمات الجغرافية والاقليمية . فكانت اقامتهم في البورات الشاسعة عرضة لتبدلات قصوى في حالة الطقس : ربيع قصير ، وصيف شديد الحرارة والجفاف وشتاء شديد البرد ؛ وكسحت هذه المساحات ارياح عاصفة لا تصادف في طريقها ما يعيقها . فكان هذا المناخ القاسي كفيلاً بتقوية صحة الاقوياء ، وبالقضاء على الضعفاء في سن مبكرة . ولا عجب من ثم

obeikandi.com

اذا كان الشعب المغولي، سواء اقام في البورات ام في الغابات ، شعباً جليداً قوي الشكيمة . وكان طبيعياً ان تفضي حياة القناصين الشظفة ، في مداخل الغابات ، او الرعـــاة في قلب البورات ، الى تطوير الاجساد وفاقاً لمقتضيات البيئة : جذع ضخم وقفص صدري نام فوق سيقان قوّسها ركوب الخيل ؛ بصر حاد ، ورشاقة عظمى . يأكلون اللحوم ويستهلكون الالبان ويميلون الى احتساء المسكرات . يتميزون بالمرح والشجاعة ، وبوحشية لا توصف احياناً ، ويبرهنون في الغالب عن ذكاء ودهاء وحتى عن قابلية للتقيد بالقوانين .

تألفت معظم القبائل من الرعاة . اما القناصون ، الذين يحتقرون الرعاة ، مـع انهم دونهم تحضراً ، فلا يمتلكون ماشية وخيولاً ، بل يعيشون من القنص ومن بعض الصناعـات البدوية ، كالنجارة والحدادة . يحتذون النعال الخشبية (شانا) شتاء ويتوكأون على عصي طويلة للسير او التزلج على الثلج ، ويحتـذي بعضهم نعالاً من العظم الصقيل تساعدهم على التزحلق على الجليـد واللحاق بالحيوانات . يبنون اكواخهم من اغصان الشجر ويغطونهـــا بقشور شجرة تعرف بالبتولة ، ويستطيعون نقلها جاهزة على العربات .

اما القبائل الراعوية ، فرغم ، بحسب تقلبات الطقس في البورات وحالة المراعي ، عـــلى انتجاع الكلأ دورياً وعلى العيش عيشة بدويـة . في الشتاء ، تنزل القطعان الى البورات حيث المناخ اقل برداً وتبقى فيها طيلة اشهر الربيع لان اعشاب البورات آنذاك خير ما تأكله الماشية ؛ ثم تعود في الصيف الى منحدرات الجبال حيث المناخ اقل حرارة . ولاجل هذه الجولات الطويلة يصمم كل شيء في المساكن الوقتية من زاوية سهولة الانتقـال . تنضد العربات في دائرة فتؤلف سوراً . اما المظال ، التي غالباً ما تبقى جاهزة فوق العربات ، فعلى نوعين : بعضها (جير) مستدير ومصنوع من لبد ويركب على هيكل متحرك من قضبان والواح خشبية حول قضيب وسطي يعتبرونه مقدساً ؛ ويثبت في اللبد انبوب صغير للتهوية وتصريف الدخـان ؛ والبعض الآخر (ميخان) عريض وقليل الارتفاع ويغطى بالصوف ، بينما تمتاز مظلة الرئيس بلونهـــا الابيض او المذهب .

تجهز العربات الخشبية بمحملين كي تنقل ، بالاضافة الى المؤن ، بعض الادوات البدائيـــة كالاوعية الخشبية ، والقدور ، والدلاء الجلدية ، والقرب ، والمنافخ ، وتغطى بلبد اسود يمنع تسرب المياه ، ثم تجرها الثيران فتصر وترتج في سيرها على الطرقات . تتكدس فيها العائلات وصغار الحيوانات العاجزة عن قطع المسافات الطويلة سيراً على الاقدام . ثم تليها القطعان التي يحيط بها فرسان يمتطون جياداً صغيرة متشعثة الرؤوس مجهزة بسروج جلدية ليست دون ممتطيها حيـاة ونزقـا . ويختلط في القطعان ، التي تهيجها النـعر ، الاحصنـــة والافراس والثيران والعجول والابقار والكباش الداجنة والاغنام والنعاج وحتى الابل احياناً .

لا يتقيد المغول بنظام معين في مأكلهم بل ينتقلون ، شأن كافة البدو الرحل ، من التقتير الى الافراط في تناول الطعام . فكل عيد وكل حدث سار مناسبة لاقامة الولائم . يتغذون من لحم

الحصان او الضأن مسلوقاً او مشوياً ، واللبن الخاثر (ترك) ، والثوم والبصل ، ونوعاً من الزبدة المضروبة في أوعية خشبية بواسطة عصا مجهزة جزئياً بقطعة من جلد ؛ اما اذا مسّت الحاجة ، فانهم يكتفون بالقبيراء والمنبيات البرية والجذور الصالحة للأكل . يشماون باحتساء لبن الفرس المختمر (كوميز) ، الذي يحرصون على التزود به اذا ما اضطروا الى السفر عدة أيام متوالية . تشعل نيران المعسكر بالزناد وتضرم بالمنافخ وتغذى بالاخشاء المجففة والاشواك والجذور . قبيل حلول فصل الشتاء ، تنحر الاغنام وتدخر لحوماً مبردة ، ويحفظ كذلك الحليب المجفف المسحوق . ولا يتوفر الطحين الا للقبائل التي تعيش حيـــاة البدو الرحل على طرق القوافل ، كقبيلة « الماركيت » مثلاً .

ومن حيث هم رجال حرب وقناصون وصيادون ورعاة ، فقد اتقنوا استعمال القوس والسهام ، الموضوعة في حقيبة جلدية واحدة شبيهة بتلك التي اعتمدها الغز ، والسيف المعقوف ، والرمح الحديدي . يتمارنون منذ الطفولة على صنع الاقواس والسهام من خشب شجر الدراق او العرعر ويجهزونها برؤوس من المطلم أو من خشب الشربـــين . ويجهزون بعض السهام برأس حديدي رهيب يحصلون عليه لدى حدادي قبائل الغابات ويطلونه بالسم احياناً . اما الطرائق الـــتي يعتمدونها في القنص فهي التالية : اخراج الحيوانات من مخابئها ومحاصرتها قبل القضاء عليها ، الاستعانة بالبيزان والشواهين والصقور لقنص الطيور ، استخدام الوهق في قنص الحصان البري والحمار البري والكبش ، او اللجوء الى الجياد والاقواس في مطاردة الايائل والاوعال والظباء . يعرفون كيف يخرجون اليرابيع من الارض بواسطة اداة حديدية وينصبون الشراك للحيوانات ذات الفراء ، ويطردون الدببة من مآويها ، ويصطادون بالشباك اسماك البحيرات والانهـــار ، وتساعدهم في القنص ، كما في الحرب ، كلاب مشهورة بشراستها . فوق المعسكر تحلّق أسراب من غربان الزرع ، وتطوف حوله ، ليلاً ، الذئاب والثعالب وحتى الانمر .

بعد اقامة المعسكر لقضاء الليل ، ينظم العسس حول النيران ؛ يلعب السيس بالكعاب او يصغون الى الروايات التي يتناقلها اهل البورات . ويتحول المعسكر ، في مكان الاقامة الفصلية ، الى « مدينة » ؛ فيتألف حينذاك من دوائر عربات عديدة ؛ تنصب المظال في الارض ؛ وتؤلف مظال الرئيس وحرمه ، على بعض المسافة من المظال الاخرى ، قصراً بدائياً يرتبط به ، بالاضافة الى الخدام والعبيد الكثيرين ، قطيع خاص ومراع خاصة . ينصرف المغول ، في اوقات فراغهم ، الى صنع اللبد والسيور والحبال والسروج وعُدد الخيل والجعاب والاسلحة والهياكل الخشبية للمظال والعربات ، ويعدون اخيراً الجلود والفراء .

يعترف تاريخ اليُوان السري « بان رائحة كريهة تنبعث من الملابس السوداوية اللون الـــتي يرتديها المغول » ؛ ومرد ذلك الى انهم يغطون اجسامهم بالجلود والفراء والى ان الاغنياء بينهم يبطنون معاطفهم الشتوية بجلود السمامير والثعالب والقواقيم والسناجب ؛ فهم لن يرتدوا الحرير والمنسوجات المقصبة في فصل الصيف قبل ان يفتحوا بـــلاد الصين . يرسل الفتيان والفتيات

obeikandi.com

شعورهم ويتركونها تتدلى على آذانهم . ويجز الرجال شعر رؤوسهم ما بين الاذنين ويحلقونه فوق الجبهة بعرض ثلاثة اصابع بين هدبين ، ويجدلون ما تبقى منه ويعقدونه وراء الاذن محتفظين بذؤابة تتدلى فوق الحاجبين . وتعتمر النساء المتزوجات قبعة غريبة الشكل مصنوعة من قشور الشجر يبلغ ارتفاعها قدمين صينيتين ، يغطينها احيانـــاً بقماش صوفي، او حريري ، للدلالة على الثروة ؛ وتنتهي القبعة بذيل طويـــل شبيه « كيو تشانغ ـ تشوين » (١٢٢١) بالاوزة او ذكر البط .

كان هؤلاء المحاربون الجسورون الروّاغون في حالة تأهب دائم بغية الدفاع عن انفسهم ضد الحيوانات المفترسة او القبائل المجاورة وكانوا يترصدون مجيء العدو الذي يعلمون به اذا ما رأوا غمائم الغبار ترتفع في الافق او الصقوا آذانهم بالارض . ويجتمع هؤلاء الفرسان حول راية الحرب التي ترافقهم في كل المعارك والتي هي لهم موضوع عبادة . يعتمدون على مطايا ليست دونهم قوة ـ تحكتفي باعشاب البورات ـ ويعرفون كيف يدارونها ، ويستطيعون الحصول منهـا على اكبر مجهود ممكن اذا ما استعملوا معها السياط : فالحصان رفيق الانسان ، وتضفي عليـه الروايات المغولية شخصية حقيقية . يتدرع المغول ، للاعمال الحربية ، بملابس وقـاية من الجلد المسلوق ، وينقضون على الاعداد انقضاض الصاعقة ، ولا يترفقون بالحياة البشرية . وهم بالاضافة الى ذلك نبالون مخيفون ، بل « امهر النبالين المعروفين في العالم » كما يقول ماركو بولو . تتحول جيوشهم ، المتعودة حياة الصحراء ، بقدرة نادرة على تحمل المشاق وتكتفي بلبن الفرس ، الذي يشربـــه الفرسان من القرب المعلقة بالسروج ، والمنبيات البرية ، والطرائد التي يقتنصونها في رحلاتهم . يسهرون وينامون على صهوات خيولهم ، ويقطعون مسافات طويلة دون توقف . ويستطيعون اذا ما نفدت مؤنهم ، تأمين معيشتهم لمدة عشرة ايام ، بامتصاص دم جيادهم ، التي يفتحون احد عروقها ثم يشدونه بمشاقـــة الحرير او الكتان ، او باذابة بعض الحليب المجفف في قليل من الماء .

يعتصمون ، اذا ما فوجئوا بهجوم ، وراء عرباتهم المحفاة بالدغال ، او يهربون ويرشقون مهاجميهم ، اثناء هربهم ، بالسهام ، لانهم يتقنون الالتفات نحو ردف جوادهم السائر بهم بسرعة : وقـــد اعتمد الغز والفارتيون هذه الطريقة المخيفة من قبلهم . يلجأون بسهولة الى خدمات الجواسيس والجنود الملتحقين بهم من الاعداء ، ولا يرون في الحرب سوى طرف للتقتيل والسلب والنهب . يخضعون الاسرى لاعذبة وحشية : ولا يستفيد من عقوبة الموت خنقاً ، بدون اراقة دمـــاء ، سوى اولئك الذين يكنون لهم بعض الاعتبار ، لانهم يعتقدون بان الروح تقيم في الدم . ولما كانوا ، شأن كافة البدو الرحل ، لصوصاً ونهابين وقطاع طرق ، فانهم يأتون باستمرار اعمالاً ثأرية لا يكفر عنها ، مبيدين عائلة بكاملها دونما تبكيت ضمير ، مستولين على المواشي ، مخربين المواد والادوات ومضرمين النار في مراعي اطراف النزاع المغلوبة على امرها . وتوزع غنائم الحرب ، شأن الطرائد المقتنصة ، بين الرؤساء والقادة والمحاربين .

المجتمع القبلي

خضع المجتمع البدوي ، في هذا العالم المهدد بالاخطار ، خضوعاً مبدئياً على الاقل ، الى تسلسل سلطة منظمة جداً يؤلف التكتل داخل القبيلة عنصرها الاساسي ، وهو يضم العائلات المنحدرة من جدّ واحد التي يعتبر جميع اعضائها بان ما يجمعهم هو صلة النسب الشرعي . يحظر من ثم اختيار الزوجة من التكتل نفسه ؛ ولما كانت صلة القربى من جهة الاب قد شملت ، بسبب المتفرعات العائلية ، عدة تكتلات مجاورة ، توجب البحث عن الزوجات من التكتلات التي لا جد مشتركاً بينها وبينهم ، والتي غالباً ما تكون مع مواشيها في مراع نائية جداً ؛ وغالباً ما يبحث رجال تكتل معين عن الزوجات في التكتل نفسه الذي لا تشدهم اليه اواصر القربى . ولذلك فان العناية تبذل في نقل حقيقة روابط النسب ، شفهياً ، من جيل الى جيل . ويرافق هذا الزواج من الغريبات تعدد الزوجات ايضاً ، الا ان الزوجة الاولى تعتبر ابدا الزوجة البكر او الزوجة الرئيسية . اختطاف الزوجات عادة دارجة غالباً ما تؤدي الى اعمال ثأرية . وقد يحدث ان يكون الزواج موضوع مفاوضات بين العائلات – ويكون اذ ذاك تكملة مفيدة للتحالف بين التكتلات – ، فاما يهب الآباء ابناءهم قبل سن البلوغ بزمن طويل ، فيذهب الخطيب في هذه الحالة ويعيش في عائلة عروسه ، واما يتفق اليافع مع اهل الفتاة فيبادلها الهدايا – عجل او جلود سمامير سوداء – ويدفع لها فدية ، في حين تقدم العروس ، بالاضافة الى مهرها وخدامها ، هدية تعدها والدتها لحماة ابنتها .

العائلات كبيرة ابداً ، وولادة الصبي حدث سار جداً ؛ يطلقون على المولود الجديد اسم اول شيء وقع عليه نظر امه بعد الوضع ؛ ثم يسبغون عليه بعض الهدايا : دثار ، وفراش من جلد السمامير ، وقمط مبطنة بالفرو . كل الاولاد ، حتى اولاد النساء الثانويات ، يعتبرون شرعيين ، ويعاملون معاملة الاخوة والاخوات ويربون معاً تربية واحدة . يضاف اليهم اولاد بالتبني من الايتام ، والمخذولين ، والمفقودين ، وحتى من ابناء الزنى ؛ بيد ان ابناء الزنى الذين يشتبه بانهم ينحدرون من اب غريب عن التكتل يحرمون من الاشتراك في الذبائح ؛ وطبيعي انهم يقصون عن التكتل ، فيرغمون في اغلب الاحيان ، على تأسيس تكتل آخر . ولكن الاولاد المتبنين ، وان كانوا غرباء عن التكتل قانوناً ، يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الاولاد الشرعيون .

يعيش الاولاد كلهم مع والديهم حتى زواجهم . الا ان الابن الثاني وحده ، حتى بعد زواجه ، يبقى في خباء ابيه ، لانه هو الذي يصبح ، بعد وفاة ابيه ، حارس الدار ، ويرث خباءه وزوجاته والادوات والمواد والمراعي العائدة له . ويتقاسم الآخرون ما تبقى من الاملاك ؛ اما المتبنون فلا يصيبهم سوى قنوة وضيعة ، ولكن البكر يحصل على حقوق خاصة تشده الى عبادة التكتل . ونغفي عن البيان ان كثيراً من البدو ، حتى في الطبقة الارستوقراطية ، يؤولون الى الاملاق ولا يستطيعون الحصول على نصيبهم من الارث اذا لم ينتزعوه بالقوة من انسبائهم الاغنياء الجشعين .

ان للنساء ، اللواتي تعود الاعمال المنزلية اليهن ، دوراً عظيماً جداً في هذا المجتمع : فهن ينصبن ويفككن المظال ؛ ويقدن العربات ويحلبن المواشي ويضربن الزبدة ويمددن الحليب المجفف ويساعدن الرجال في اعداد الجلود وصنع الاحذية وجمع اللبد ويشترين بالمقايضة كل ما هو ضروري للمنزل . ويرافقن القادة احياناً في الحروب ويقمن ابان المعركة باعمال الرجال . ولذلك فان هؤلاء كثيراً ما يطلبون مشورتهن ؛ وقد حفظ التاريخ اسماء من كان لهن الرهن في مقررات بعض القادة . يضاف الى ذلك ان الامرأة ، بعد ترملها ، تؤمن الوصاية على اولادها القصّر ، وتتصرف تصرفاً مطلقاً بممتلكات العائلة ، وتتولى ادارة المعسكر وتقود المحاربين احياناً .

وقد تقوم اخيراً ، عن طريق اقسام اليمين ، بعض الاخوّات ، خارج نطاق العائلة ؛ فقد يحدث ان يعقد رجلان ، ينتسبان على العموم الى تكتلات مختلفة ، اتفاق صداقة يرطده بالضرورة تبادل الهدايا ويحتفل به بوليمة ورقصات طقسية ؛ وبعد ان يصبحا « اخوين حلفين » ، يلزمان بتبادل المساعدة في شتى الظروف .

النظام الاجتماعي قبل الامبراطورية

يتألف مجتمع المغول الرحل من اربع طبقات متميزة : الارستوقراطية الحاكمة ، والرجال الاحرار او المحاربون ، وعامة الشعب ، والعبيد الذين يشملون ، الى حد ما ، الخدام والصناعيين اليدويين .

يختطف العبيد من تكتلهم اثناء حرب خاسرة او غزوة يسلب فيها الفتيان والجياد على السواء ، وينضم الى صفوفهم بعض المساكين الذين يهبون انفسهم لتكتل غير تكتلهم ، او بعض ابناء عامة الشعب الذين يقدمهم آباؤهم لأحد القادة او احد المحاربين اعترافاً بخدمة مؤداة . يصبحون كلهم جزءاً من املاك العائلة التي تقتنيهم ، ويوزعون مع الاملاك او يدخلون في مهر الفتيات ويرافقونهن عند ازواجهن . عبوديتهم وراثية ولا تزول الا بالاعتاق . وقد يحدث ان تستعبد قبيلة كاملة اذا ما غلبت على امرها ، بما تخضع قبائل اخرى ، اعلاء ارادتها ، الى قبائل اعظم شأناً . حياة العبيد قاسية ، ولكن عملهم لا يختلف قط عن عمل الخدام الذين ازداد عددهم بازدياد ثروة الارستوقراطية .

تتصرف عائلات عامة الشعب بممتلكات فردية ما عدا المراعي وربما القطعان فهذا مختلف عليه - المشتركة بينها في التكتل . ويرجح انها ملزمة بتقديم بعض الخدمات والاتاوات للقادة .

المحاربون او « الرفاق » ، وهم شبيهون بمتطوعي الجيوش الجرمانية ، يأتون عادة من تكتل غير التكتل الذي يدخلون في خدمته ، دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم . يمثلون بالطبقة الحاكمة في المجتمع المغولي ويرتبطون بزعيم التكتل او بالنبلاء المتحكمين باتباع كثيرين ، ولكن لهم الحرية في ترك خدمتهم والانتقال الى تكتل آخر دون ان يتهموا بالخيانة . يؤلفون حرس السيد الخاص وينفذون بهذه الصفة المهام الخطيرة الفجائية ، فيختطفون اجمل نساء القبائل المجاورة ويستولون على الخيول ويسيرون بها نحو المعسكر ، ويشتركون في المعارك ؛ يعينون قادة على جيش التكتل الذي لا يجند الا في حالة الحرب . يستخدمون كذلك مندوبين

وسفراء وموظفين اداريين ، ويتحولون ، بعد اعـــادة السلم ، الى خدام ويدخلون في حاشية الزعيم الذي قد يغدون مستشاريه واصدقاءه الخلص والذي يتوجب عليه حمايتهم على كل حال : فهو ملزم باسكانهم واعالتهم واكسائهم وتسليحهم ، ومضطر بالتالي الى شن المزيد من الغزوات .

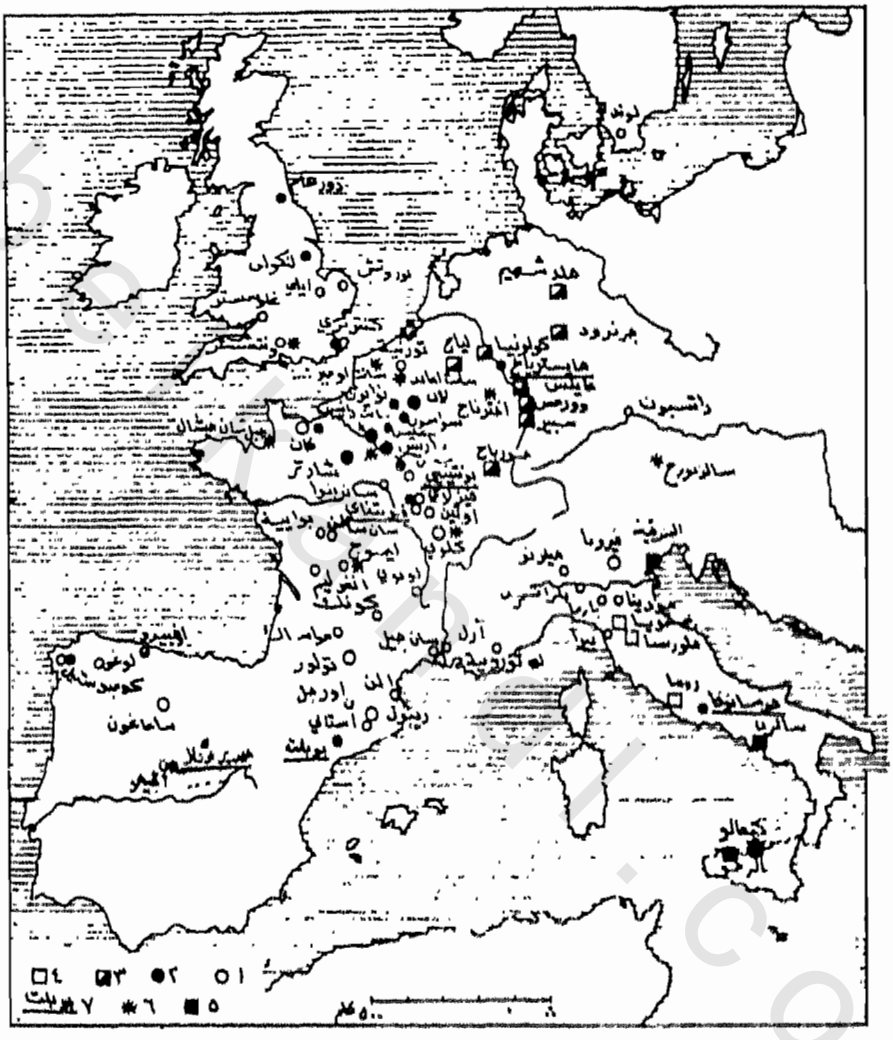

الشكل (رقم ١١) ـ الفن في العرب (١٠٧٥ ـ ١٢٠٠)
١ ـ الفن « الروماني » ٢ ـ الفن القوطي ٣ ـ التقليد الكارولنجي ٤ ـ التقليد الروماني
٥ ـ التأثير البيزنطي ٦ ـ مصانع تزويق المخطوطات ٧ ـ الابلية السيسترسية

وتضم الارستوقراطية اخيراً العائلات ، المتماوتة الثروة ، التي توصل زعيمها ، بقوتـــه او مهارته او بصيرته او ثروته ، الى فرض قبوله في فئة المقتدرين . تستطيع هذه العائلات ، بقيادة زعمائها ، التمتع بمزيد من النفوذ بارتفاع عدد مؤاكليها وزبنها ؛ فتنزع من ثم الى الاستقلال عن التكتل ، والانفصال عن الذين يضايقونها ، وجمع كل من قد يعود عليها بالفائدة حول زعيمها ،

مشعّبة بذلك تركيب القبيلة . فهي قد شعرت ، قبـــل ان يحقق جنكيز خان توحيدها تحت سلطته ، بضرورة الاتحاد تحت قيادة الزعماء الذين يختارهم مجلس القبيلة لفترات معينة ، كالحرب والصيد المثمر مثلاً ، والذين لا يمكن من ثم ان تصبح سلطتهم وراثية .

يؤلف مجموع التكتل ، من الزعيم حتى العبيد ، وحدة وثيقة العرى ، عرفت باسم «اولوس» الذي يعني على وجه التقريب « التراث » او « المُلك » . ويمتلك ارضا (يورت) تسرح فيهـــا قطعانه ويتقوت هو بما هو ضروري لحياته ، ولا يعرف من انواع التبادل سوى المقايضة البدائية. للزعيم يعود امر معرفة المراعي المخصصة للتكتل وحدود أراضيه ، وتحديد مواعيد التنقلات واقامة المعسكر ، وتعيين الطرقـات الواجب سلوكها او تجنبها وادارة عمليات القنص لتوفير المواد الضرورية لأود التكتل .

النظام الاجتماعي في ظل الامبراطورية

منذ ان ارتقى جنكيز خان الى مقام الخان الأعظم ، توطد التسلسل الاجتماعي ، ولكنـه ارتدى في الوقت نفسه طابعاً اقطاعياً : غدت الامبراطورية « الاولوس » المغولي ، و « الشعب ـ الدولة » ، كما غدت تراث التكتل الامبراطوري. وغدا افراد هذا التكتل ، وكلهم أنسباء الامبراطور امراء امبراطوريين ؛ فمجلسهم هو الذي ينتخب الخان الأعظم ، ولا يحق لأحد سواهم ان يعين خليفة للامبراطور . يطمعون ايضاً في امتلاك « اولوس » خاص بهم ، ويصبحون بذلـــك اصحاب الأخاذات الكبرى في الامبراطورية ، ويخضعون ، حين التنصيب ، لواجب السجود تسع مرات على ان تمس جبهتهم الارض كل مرة . اجل للخان الحق في ان يسلخ كل او بعض تراثهم الذي هو عظيم جداً على العموم : جمهور كبير من السكان ، الاراضي الضرورية لتجولاتهم ، وخصوصاً المداخيل الضرورية لتعهد المنزل الاميري التي توفرها الأتاوات المفروضة على اهـــل القرار في البلدان المحتلة حديثاً . وتوزع هذه « الاقطاعات » من جهة ثانية دونما نظر الى التجمع الجغرافي لأن الامبراطورية ، بحسب ذهنية البدو ، واحدة لا تتجزأ .

توزع الاقطاعات ايضاً على خدام الامبراطور الأمناء ومرافقيه وعلى الارستوقراطيين والمحاربين الملتفـــين وراء الامراء الامبراطوريين الذين يحملون جميعهم اسم الزعيم (نوايان) : وتتألف الاقطاعات من بعض العائلات وما يعود اليها من مراع؛ وقد تصبح هذه الاقطاعات «اولوس» اذا ما امتدت وتوسعت . يقيم المستفيدون من هذه الانعامات في وسط أتباعهم ولكنهم يستمرون في خدمة زعيمهم مع المجندين الذين يخضعون لارادتهم ؛ واذا هم ألزموا بالاخراج وبوضع مجنديهم تحت تصرف الامير الامبراطوري وباحتفال التنصيب امام الامبراطور ، فان لهم ملء السلطة على مرؤوسيهم ، وينظرون في الدعاوى ، ويوزعون المراعي ، ويتولون ، بالوراثة ، قيـــادة الجيوش المقسمة ، بحسب أهميتها ، مئات والوفاً (حتى عشرة آلاف رجل) ، ويحتلون افضل مركز في عمليات القنص ، ويستأثرون بأحسن الطرائد المقتنصة ، ويفرضون اخيراً الأتاوات

وأعمال التسخير على عائلات اتباعهم. وباستطاعتهم تعيين مرؤوسيهم العسكريين ايضاً، فيكتفي الامبراطور اذ ذاك بالموافقة على اختيارهم ، وفرض حماية على بعض المواقع في اراضيهم يدفن فيها

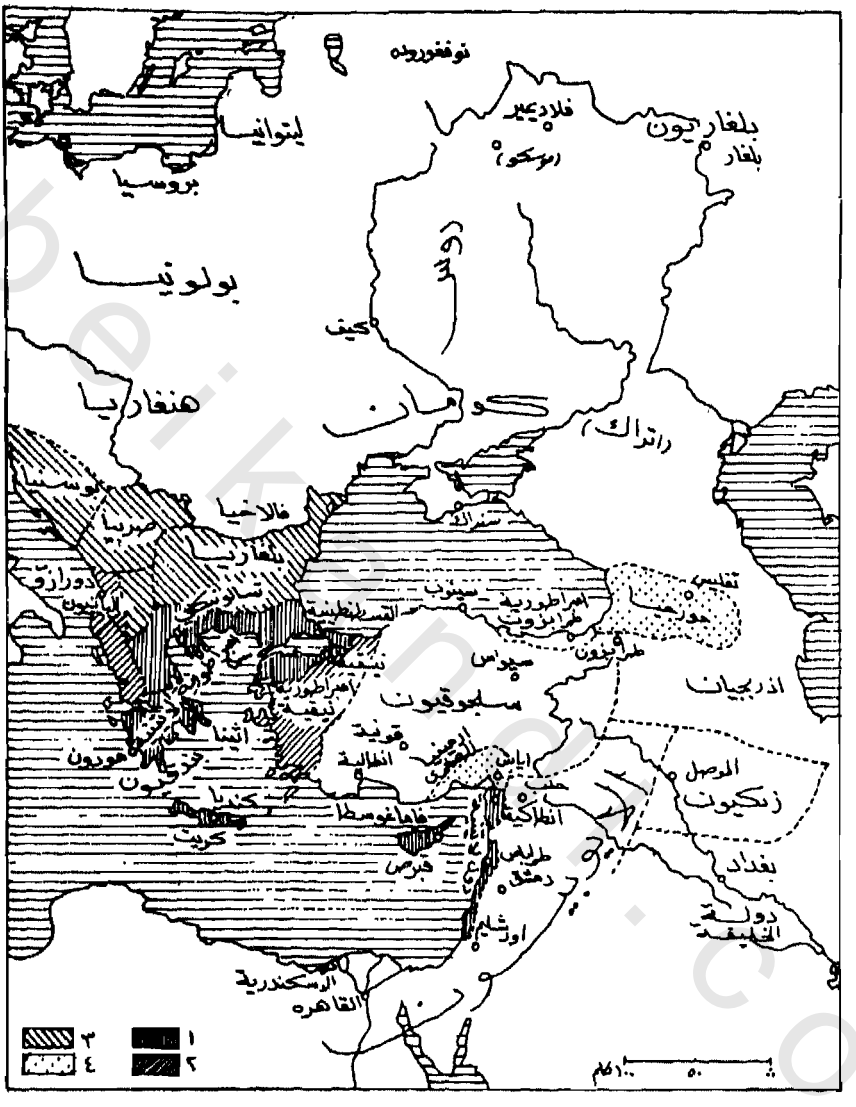

الشكل (رقم ١٢) ـ الشرق الادنى واوروبا الشرقية في اوائل القرن الثالث عشر
١ ـ الدول اللاتينية ٢ ـ الدول اليونانية ٣ ـ دول البلقان السلافية ٤ ـ الدول الارمنية والجيورجية

أعضاء التكتل الملكي او تخصص للقنص. الا انهم ، بالمقابلة ، يخضعون خضوعاً عميقاً للامبراطور ولسيد عهدتهم اللذين لا يمكنهم ترك خدمتها كما لا يمكنهم بيع اقطاعتهم ؛ اما سيدهم فيستطيع حرمانهم من هذه الاقطاعة وتسليمها لغيرهم ؛ كما يستطيع حرمانهم من قيادتهم العسكرية دون

ان يقبل بأية مراجعة او شفاعة . ولكن مركزهم يكرس رسمياً بكتاب توليـــة ، او ببعض الالقاب الشرفية - كلقب « حامل الكنانة » الذي منحه جنكيز خان - او بلوحات فسّر لنا « ماركو بولو » تسلسلها : فللسيادة التي تضم ١٠٠ رجل - أي لجند ١٠٠ جندي - الحق بلوحة ذهبية او فضية مذهبة ؛ واللوحة ذهبية ابداً ومزدانة برأس اسد للسيادة التي تضم ألف رجل . وتحمل اللوحة كتابة منقوشة تبارك الخان الاعظم وتلعن من يعصي أوامره . ولمالكي اللوحات جميعهم حق بالمظلة في تنقلاتهم، وبالعرش الفضي عند مقابلة الناس لهم . وباستطاعة أرفعهم مرتبة اقتناء جياد لنقل البريد دون اذن صريح من الامبراطور ، ويستفيدون كذلك من الانعامات الامبراطورية : الآنية الفضية ، و « السروج الجميلة » ، والجواهر والحجارة الكريمة ، والخيول أخيراً ، وهي خير ما يُهداه أبناء البورات هؤلاء بعد ان يجمعوا ثروة طائلة . وأضاف كوبيلاي الى هذه الانعامات انعاماً اخيراً يمنح مرة كل ثلاث سنوات : لباس ابهة ، وزنار ذهبي ، وأحذية من جلد الابل المطرز بالخيوط الفضية، وكان كل ذلك « مزداناً بالحجارة الكريمة والجواهر وأشياء اخرى غالية الثمن عظيمة القيمة » . ففي كل عيد ، يرتدي الامبراطور وأصحاب الاقطاعات الـ ١٢٠٠٠ الذين يشكلون حرسه الخاص ، ثياباً فاخرة كلها من لون واحد .

الخان الاعظم

ان اعتلاء جنكيز خان عرش الامبراطورية لم يغير في الظاهر شيئاً من الاصول المغولية القديمة التي اعتمدها مجلس التكتل في تعيين رئيس لا يتمتع بسلطة وراثية . فبعد ان اصبح تكتل الفاتح مجلساً امبراطورياً ، بات من حقه انتخاب الامبراطور الذي لا يمكن اختياره الا من بين أعضائه . الا ان الوراثة أمست في الواقع امراً واجباً ، بعد ان اخذ الامبراطور يعين خلفه بموجب وصية ، - ابنه الثاني بحسب تقاليد المغول - وهو اختيار يوافق عليه المجلس بصورة عامة . وتدي جمعية التكتل ، في هــــذا الظرف ، مظهراً احتفالياً خاصاً استطاع الراهب الايطالي « جان دي بيان كاربينو » رؤيته والاعجاب به في السنة ١٢٤٦ ، حين جرى انتخاب « كويوك » : فبينما تـــدور المذاكرة في السرادق الامبراطوري ، يجتمع الفرسان وأهل المقامات داخل اسوار القصر ، وفي الخارج ينتظر الحدث حشد غفير بالاضافة الى الجيش الملتف حول اعلامه . وما ان يتم التعيين حتى يقوم اعضاء التكتل بالطقوس التقليدية التي ترافق كافة الاحتفالات المدنية او الدينيـــة ؛ يرفعون القبعة عن الرأس ، ويحلون الزنار الذي يلقونه على الأكتاف، ويُجلسون الملك على العرش المذهب الذي حل محل الطنفسة اللبدية القديمة، ويحيونه بلقبه الجديـــد . ثم يقدمون له الخضوع ساجدين أمامه تسع مرات بحيث يمس رأسهم الأرض ، فتحذو حذوهم جماهير المنتظرين في الخارج . وبعـــد اقسام الايمان الاحتفالية وتقديم الذبائح الحيوانية (فحول وحجور) ، يدشن الامبراطور عهـــده بتوزيع الالقاب والمراتب والدرجات الرفيعة على خدام الامبراطورية الممتازين .

حين بلغت السيطرة المغولية أقصى حدودها ، نظمت حياة الخان الاعظم ، مستقرة كانت ام نقالة ، تنظيماً دقيقاً جداً . فخلال أشهر الامطار الستة ، أي من ايلول الى شباط ، يقيم في

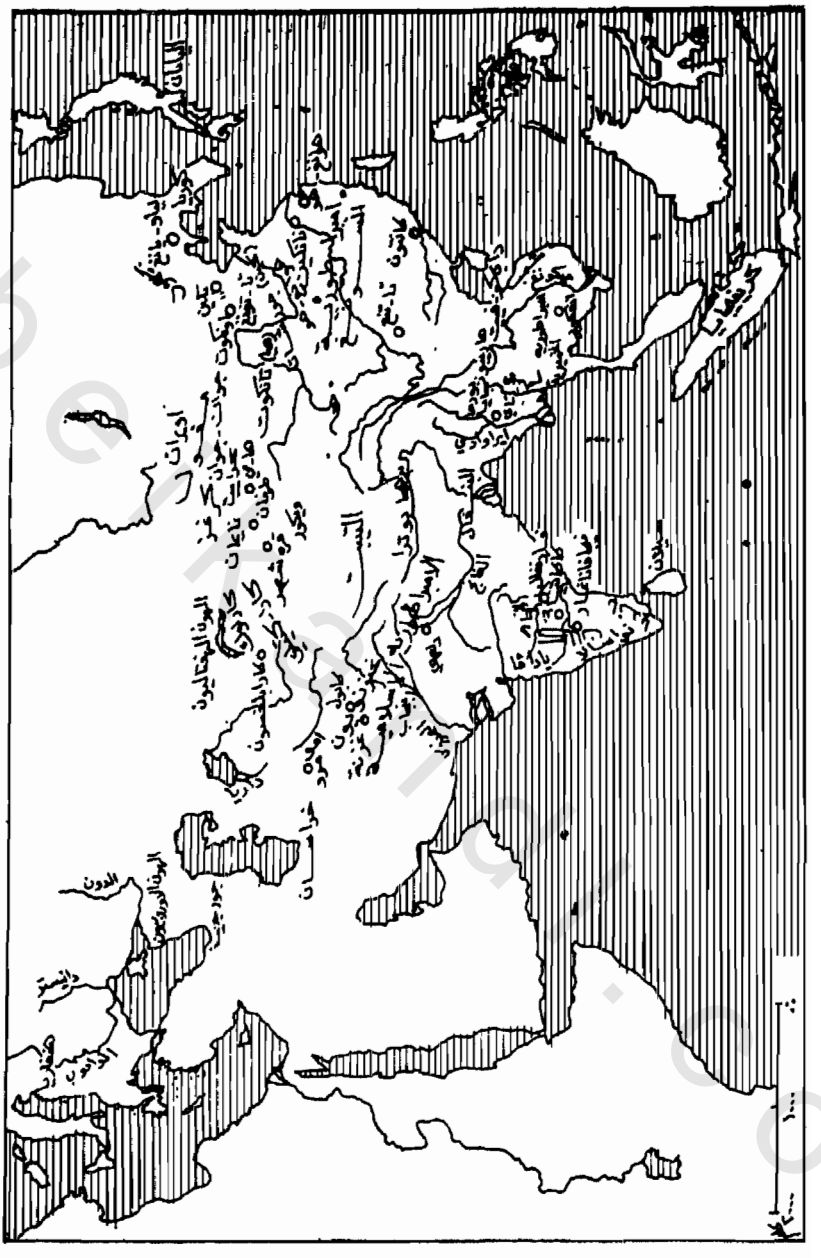

الشكل (رقم ١٣) ـ آسيا في عهد جنكيز خان

قصره في بكين ، حيث يحتفل ببدء السنة الجديدة في شهر شباط . ومن آذار الى نوار ، ينتقل المعسكر الامبراطوري الزاهي الى القنص بواسطة الشواهين . بعد العودة ، لا يقيم الامبراطور في بكين سوى ثلاثة ايام يحتفـــل خلالها بأعياد كبرى ، ثم يذهب لقضاء فصل الحر في مقره الصيفي « شانغ ـ تو » ، في قصر من الخيزران . فالبون شاسع بين هذه الحياة المتفخلة وشظف العيش والاخطار في المعسكرات المغولية القديمة . يقـــام الى جانب المعسكر الامبراطوري ، الذي يضم مظال لا تحصى لأهل المقامات وعائـــلاتهم واخرى تجمع فيها الأسلحة والسروج والشواهين، معسكر آخر خاص بزوجات الملك، « الاوردوس » ، له خدامه ومراعيه الخاصة. وتقوم بجانب المظلة الامبراطورية الكبرى ، وهي أنفس المظال اطلاقاً ، مظلة اخرى يستخدمها الملك مسكناً له؛ يحرس مدخلها باستمرار ، وهو ابداً الى الجنوب ، اسياد من المراتب الرفيعة. تغطى بجلود الانمر وتفرش جميع اقسامها الداخلية ، بما فيها العوارض الخشبية ، بجلود القواقم والسمامير ، وتشد فيها حبـــال حريرية ، وتستخدم لاستقبال السفراء الأجانب - كغليوم دي روبروك في السنة ١٢٥٣ ؛ يجلس فيها الامبراطور على سرير مذهب يصعد اليه بثلاث درجات ، ترافقه زوجته الرئيسية ويحيط به كبار موظفيه الذين يجلسون بحسب مرتبتهم .

كل اجتماع هام وكل عيد مناسبة لوليمة . وقـــد وصف لنا تنظيمها ماركو بولو : يجلس الامبراطور باتجاه الجنوب امام الطاولة العليا ، وتجلس الى يساره امرأته الاولى (اليسار عنـــد الصينيين هو المقام الاول)؛ يجلس الامراء الامبراطوريون الى اليمين امام طاولات أدنى ارتفاعاً « بحيث لا يتجاوز رأسهم اقدام السيد الاكبر » ؛ ويجلس الأسياد الآخرون امام طاولات اقل ارتفاعاً ايضاً ؛ وتجلس الى اليسار ، وفاقاً للتدريج نفسه ، زوجات الأمراء والأسياد ، بحيث يستطيع الامبراطور رؤية جميع مدعويه . يوضع على طاولته اناء ذهبي كبير يغترف منه النبيذ باكواب من اللك الصيني المذهب ويسكب في أكواب اصغر حجماً ، ملأى بالتوابل ، يغترف النبيذ من كل منها مدعوان . يؤمن خدمة الخان اسياد عظام يستر أنفهم وفاهم حجاب حريري مذهب ، فيقدمون له اصناف المأكل والمشرب. ترن الآلات الموسيقية حين يهمّ بالشرب ؛ فيجثو كافة الحاضرين الى ان يشفي غلته .

لنذكر بين الأعياد البارزة في حيـاة البلاط عيد الذكرى السنوية لجلوس الامبراطور الذي يرتدي، مع كبار موظفيه، الثياب المذهبة ويتقبل الضرائب والهدايا العينية من رعاياه. ولنذكر خصوصاً عيد رأس السنة الجديدة الذي يحتفل به في شباط ؛ ترتدي البـــلاد كلها حلة بيضاء ، والبياض لون يتيمن به المغول ـ مع انه سيصبح لون الحداد عندما تتولى الحكم سلالة المنغ. يحاط الامبراطور في هذا العيد بأفراد عائلته ويستقبل صفوف اصحاب الاخاذات ابتداء من الامراء حتى المنجمين ومن كبار الاسياد حتى الاطباء والقناصة . تقدم له الهدايا التي يتبادلها الجميع في ذاك النهار ؛ وتقدم له كذلك ، في هذه المناسبة ، الجزى المفروضة على البلدان المحتلة : الاحصنة من تركستان ومنغوليا، والفيلة من الهند وشعبا والابل من خراسان، والآنية الذهبية والفضية.

كل فرد يقدم الخضوع بدوره للامبراطور ثم يبخر اللوحة الذهبية الحاملة اسمه والموضوعة على طاولة أشبه بالمذبح . وتلي المأدبة التقليدية ألعاب المشموذين لتسلية الحضور .

يتلهى الامبراطور بلعبة الكرة الهوائية التي يشترك معه فيهـــا كبار موظفيه ، وبمعاقرة المسكرات ساعات طويلة يتخللها عزف الموسيقى ؛ ولكن لهوه الاول هو القنص الذي يخضع لنظام دقيق ويشترك فيه الوف الضباط ويروض لاجله ٥٠٠ بازٍ وصقر وشاهين ، بالاضافـة الى الحيوانات السورية الصغيرة التي تروض لاجل قنص الطرائد الكبيرة ، والى اسراب كلاب الصيد التي يتعهدها بعض كبار الاسياد لخدمة الامبراطور. ويخضع لهذا النظام كذلك اطلاق الشواهين واسترجاع الطيور المفقودة والتعهد بالبحث عن الاشياء الضائعة . يسهم الامبراطور بالقنص من على ظهر فيله ، في محمل هو له بمثابة غرفة اثناء تنقلاته . وعلى كافة سكان المنطقة ، المسموح لهم باقتناص الطرائد ، باستثناء الايائل واليحامير ، طيلة الشهرين او الثلاثة اشهر التي يستغرقها القنص ، ان يقدموا للامبراطور حصيلة اقتناصهم .

اعدت المدافن الامبراطورية منذ جنكيز خان في منحدرات جبل «كنتاي» المقدس ؛ ينقل جثمان الخان الميت اليها في موكب جنائزي طويل يسير ببطء في المسالـــك حتى قلب البلاد المغولية القديمة . وعلى غرار ما درج عليه الغز والصينيون ، يقتل جميـــع المارة الذين يصادفهم الموكب . فهل نحن امام طقس من طقوس الذبائح طالما يرافقه ذبح الخيول ايضاً ؟ ام اننا ، كما يزعم رشيد الدين ، امام تدبير احتياطي للمحافظة ، ما امكنت المحافظة ، على سر وفاة الملك؟ مهما يكن من الامر ، فان المجزرة التي اودت ، كما يبدو ، بحياة ٢٠٠٠ ضحيـــة اثناء جنازة « مونكا » تذكرنا تذكيراً غريباً بطقوس « مدافن العربات » في عهد اوائل التاريخ المعروف .

الجيش والحرب

قبل ان ينظم جنكيز خان جيشاً امبراطوريا ، قامت الحرب عند المغول على اكتاف السكان المسلحين والجنود المحترفين معاً. وقسّم رجال التكتلات ، برئاسة زعمائهم القبليين الى فرق محاربة وفرق مساعدة ، يضاف اليها ، حول الرئيس ، فرقـة مختارة قد تضم الف رجل. اما المحاربون المحترفون ، الى اي تكتل انتسبوا ، فيحيطون بالحرس القومي او يوضعون احياناً ، بحسب مقتضيات الظروف ، تحت امرة هذا القائد او ذاك .

احاط جنكيز خان نفسه ، في البدء ، بحراسة متواضعة — ٧٠ رجلاً فقط — وتولى في الوقت نفسه القيادة العليا لكافة وحدات الجيش المغولي . ثم اضطره توسع الامبراطورية وتعدد حملات الفتح في المناطق النائية الى وضع تنظيم ثابت حازم . فوزع السكان الذكور ، اعداداً للتعبئة ، عشرات ومئات والوفاً ، ثم وحدات يضم كل منها عشرة آلاف رجل. ورفع الحرس الامبراطوري كذلك الى عشرة الاف رجل يجندون جميعهم من بين ابناء الاسيـــاد والاحرار البواسل ؛ واختارهم الخـان نفسه ، بالاستناد الى صفاتهم الجسدية وشجاعتهم ، من بين المجندين المتطوعين — « لا يجوز لاحدٍ الاحتفاظ بمن يريد الانضمام الى الحرس » — الذين يقدمهم اصحاب الاخاذات

وفاقاً للقاعدة التالية : « اخ » وعشرة رجال لقائد الالف ، اخ وخمسة رجال لقائد المائة ، اخ وثلاثة رجال لقائد العشرة ، على ان تؤمن كل من هذه الفئات ، بالاضافة الى ذلك ، احصنة مجنديها وعددهم . على عاتق هذه الوحدة المختارة ، التي يشكل ١٠٠٠ من خيرة رجالها مقدمة الجيش ابان الحرب ، القيت واجبات دقيقة دائمة . فهي توزع على الشكل التالي : الف عاس والف « حامل كنانة » ، وحراس نهاريون وحراس مائدة وحراس مظلة وامراء اخور . يخدمون مناوبة طيلة ثلاثة نهارات وثلاثة ليال متواصلة . لا يستطيع احد دخول المظلة الامبراطورية اذا لم يرافقه رجال الحراسة ؛ ومن واجب هؤلاء ، منذ الغسق ، القاء القبض على كل من يحاول الاقتراب منها ؛ ويعاقب افشاء عدد الحراس وموعد ابدالهم بغرامة عينية : ملابس وجواد مجهز بكامل عدته . وتتراوح العقوبات ، التي يحكم بها الامبراطور نفسه ، بين الضرب المكرر بالعصا وقطع الرأس . اما التخلف عن الخدمة فيعاقب بثلاثين ضربة عصا في المرة الاولى ، وسبعين في المرة الثانية وبالنفي اخيراً في المرة الثالثة . ولكن الحراس استفادوا من امتيازات تعوض عن هذه العبوديات . فالحارس البسيط يقدّم على قائد الالف ؛ واذا ما تنازعا فالقائد هو من يعاقب .

اهتم الحكام ، في هذه الدولة التي بقيت عسكرية بدوية ، بالجيش والحرب فوق اهتمامهم بالمسائل الاقتصادية والعقائد الدينية . لذلك فان المصادر الادبية الحافلة بالنصائح المداة للجنود ترفع النقاب عن الاساليب الحربية الخاصة بالشعوب البدوية ؛ يشدد فيها على العناية بالطبول والرماح ، وحراسة الاعلام ، وسلامة العربات والمظال ؛ كما يشدد على ضرورة الاقتصاد في المؤن ابان المعارك وعلى حصر انتجاع الكلأ الضروري لتموين الجيوش ، وعلى عدم اصطحاب الاحصنة الهزيلة الماجزة عن تسلق الجبال او اجتياز الانهر ، واخيراً على تخفيف عدة الحصان بالاستغناء عن كل ما هو مزعج او ثقيل : يجب ان لا تضايق الاثفارُ الركوبةَ وان لا يترك الفارس الاعنة منسدلة .

والامبراطور هو الذي يقرر موعد الذهاب الى الحرب بالاستناد الى رأي منجميه ، ويرسل ، قبل هذا الموعد بيومين ، بضع مئات من الفرسان الكشافة . لا تزال القوة خفيفة ، اذ ان الجندي لا ينقل سوى قربتين ملأيين بلبن الفرس الرائب ، واناء خزفي لطهي الطرائد التي قد يقتنصها في الطريق ، ومظلة فردية صغيرة تقيه من المطر ، ويعلق كل ذلك بالسرج . فجميع الاحتياطات متخذة اذن لتأمين سهولة تحرك الجيش . وهذه السهولة هي ما جعل المغول يتفوقون على اعدائهم واحداث ثورة في فن الحرب شبيهة بتلك التي حدثت في القرون الوسطى واعطت الاولوية ، في الغرب والشرق الادنى على السواء ، لكتائب الفرسان الثقيلي التسلح . وهي ايضاً ما اوهم العدو ، الذي يهاجمه فجأة نبالون خفيفو الحركة ، بانه امام جيش لا يحصى له عد . اجل لقد فاق عدد الجنود المغولين ، وقد ضم شعوباً كاملة تحمل السلاح ، عدد الفرسان الغربيين ، الموزعين وحدات صغيرة ، الذي لم يتجاوز ، الا في ظروف استثنائية نادرة ، عشرة آلاف محارب . ولكن

ما نعرفه عن الغارات الصاعقة التي شنها المغول على تركستان والشرق الادنى واوروبا يحملنا على الاعتقاد بان الذين اشتركوا فيها لم يتجاوزوا عشرين او ثلاثين الف رجل دفعة واحدة. وقد بلغ الجيش المعد للحرب ، حين وفاة جنكيز خان ، على ذمة رشيد الدين، ١٢٩٠٠٠ رجل خصص منهم ٢٨٠٠٠ لحراسة الامبراطورة والامراء الامبراطوريين ووزع الباقون ثلاث وحدات في الوسط والشرق والغرب . وحين يتكلم المؤلفون الشرقيون والرحالة الغربيون ، في عهد لاحق ، عن جيش مؤلف من ٥٠٠٠٠٠ رجل كوحدة غازية قليلة العدد ، وحين يشيرون الى ان الامبراطور يهمل قواد العشرات والمئات والالوف ولا يصدر اوامره المباشرة الا لقواد وحدات المائة الف ، فان هذه الاعداد غير جديرة بالتصديق اذا لم ندخل فيها فرق المجندين المعبئين في البلدان المخضعة للسيطرة المغولية ، وهي فرق لا قيمة لها ولا تنقل الى مسافات بعيدة. ونحن نعلم من جهة ثانيه ان وحدات الفرسان قد بقيت اهم وحدات الجيش ؛ فان سرعة تحركها وخدماتها الكشفية والجاسوسية الممتازة ، وتموينها عبر مساحات شاسعة شبه صحراوية قد فرضت الاكتفاء بمجندين اقل عدداً ـ واعظم تفوقاً ـ الى حد بعيد من كل ما استطاعت تعبئته آنذاك الامبراطوريات والملكيات المتحضرة .

يبدو ان المغول قد تعودوا أساليب اعدائهم الحربية ، وانهم قبلوا في الدرجة الاولى بالمعركة بين جيشين متقابلين . ولكننا لا نعلم الشيء الكثير عن تقنية المعركة نفسها . اذ ان مصادرنا لا تصف لنا سوى نوع من قانون مثالي يفرض الاقتراب « في الاعشاب الكثيفة » واعداد الجنود للمعركة « بشكل بحيرة » ، وشن الهجوم بغية اختراق صفوف الاعداء « كالمثقب » . يعتلي الخان مرتفعاً يراقب منه حركات الجيوش ويتسم قواه ثلاث وحدات : أقلها عدداً يوضع تحت قيادته المباشرة ويتألف من اشد المحاربين مقاومة وبشكل الوسط ؛ وتنتشر الوحدتان الرئيسيتان على جانبي الوسط يميناً وشمالاً ، أي شرقاً وغرباً ، لأن المغول يتجهون أبداً الى الجنوب . قبل المعركة التي تعطى اشارتها بدق طبول الخان ، ينشد المحاربون « ويعزفون على آلة شجية ذات وترين » (ماركو بولو) . لا تدور المعركة الا في النهار ، وتتوقف في الليل ، ولكن ذلك لا يفيدنا شيئاً عن مراحلها الفنية. الا ان اعتماد الآلات الحربية الشبيهة بالغرف المستطيلة التي تصنع من الاخشاب وتنقلها الفيلة ، لا تخلو من الدلالة . يتباهى ماركو بولو ، بما عرف عنه من مخرقة ، بانه واعمامه قد علموا ضباط كوبيلاي، استعمال المنجنيق الذي اتاح في السنه ١٢٧٣ دخول سيانغ ـ يانغ على الهان السفلى ، بعد حصار دام خمس سنوات . اما نحن فنرجح ان مثل آلات الحصار هذه قد احضرها مهندسون مسلمون آتون من بلاد ما بين النهرين .

التنظيم الداخلي

لم يتصور المغول ، شأن أمثالهم من البدو الرحل ، قانوناً غير قانون القبيلة وانتجاع الكلأ، فاحتقروا اهل القرار ولم يفكروا الا بتدمير قراهم وتخريب حقولهم . الا ان فتوحاتهم جعلتهم يخالطون أناساً تفوقوا عليهم حضارة ، فأحسنوا صنعاً احياناً بالاصغاء اليهم . وهكذا فان جنكيز خان قد صادف ، في السنة ١٢٠٤ ، كاتباً تركياً في خدمة

زعيم « النيمان » يتكلم ويكتب لغة « الويغور » ؛ عندما وقع في الاسر حاملاً خاتم سيده – مما أثار دهشة الفاتحين البرابرة – استخدمه جنكيز خان، فحررت وثائقه الرسمية، منذ ذاك التاريخ، باللغة التركية الويغورية . ثم اسندت اليه مهمة تهذيب أبناء الامبراطور وتعليمهم الكتابة الويغورية، المشتقة من الكتابة السريانية، التي ستشتق منها الاحرف المغولية . ثم الحق به شخص آخر كرايتي الاصل « ويغوري » الثقافة ايضاً؛ فاسندت اليهما اعمال ديوان الامبراطورية الذي قسّم بفضلهم شيئاً فشيئاً الى دوائر ، وما لبث ان شمل « الدوائر الصينية » بغية ادارة امبراطورية واسعة الاطراف .

تمت هذه النواة الادارية وتجهزت في عهد اوغوداي ، لا سيما بفضل وزيره وصديقه الكيتاني « يي – ليو تشو – تساي »، وهو رجل عالي القدر لم يلبث ان اخذ بالحضارة الصينية. فأضيفت الى الدوائر المغولية والصينية مصالح اخرى تانغوتية وفارسية . فقسمت أراضي الامبراطورية أقساماً ادارية ، كالمقاطعات العشر في المنطقة المحتلة من الصين مثلاً . وبذلت المحاولات اخيراً لتحديد اراضي التجول والمراعي لكل قبيلة مغولية . وأقرت في الوقت نفسه ، على أسس نظامية، الميزانية التي قامت على نوعين من الواردات: عشر نقدي يدفعه فلاحو المناطق المتحضرة من اصل مواسمهم ، واقتطاع رأس من كل ١٠٠ رأس ماشية فرض على الرعاة . وفي سبيل تأمين الجباية بسرعة احدث جنكيز خان هيئة من المفوضين الامبراطوريين ، استطاعت استخدام البريد الامبراطوري ، ثم اعاد اوغودای تنظيمها ، ولكنها لم تعش طويلاً .

في عهد كوبيلاي، الذي اصلح الطرقات وخانات القوافل وزرع الاشجار الظليلة على جوانب المسالك ، أثارت خدمة البريد هذه اعجاب ماركو بولو . ولما كان المؤرخون قد انخدعوا منذ ذاك التاريخ بمواهب المغول الادارية وعبقريتهم التنظيمية ، يجدر بنا هنا ان نصف هذه الخدمة وصفاً موجزاً : فالطرقات والمسالك تسمح للسعاة بنقل الاوامر بسرعة حتى أقاصي حدود الامبراطورية . تقوم على مسافات معينة – من ٢٥ الى ٤٥ ميلاً – محطات يوجد فيها على الدوام ساقة ، وهُداة ، ورباطات ، وقطيع غنم ومخزن حبوب لتموين المسافرين ، بالاضافة الى مبيت مجهز خير تجهيز ، معدّ لكبار الموظفين من ناقلي الاوامر الامبراطورية . واذ كانت بعض المحطات الهامة تتسع لأربعمائة حصان ، أمكن القول بأن أكثر من ٣٠٠٠٠٠ حصان كانت من ثم موزعة على الطرقات ، يقدمها كلها ويتعهدها – الا في المناطق الصحراوية حيث يأخذها الخان على عاتقه – اسياد المناطق وملاكوها . وقامت بين المحطة والمحطة ، كل ثلاثة اميال ، قرى او مراكز سعاة ينقلون ، سعياً على الاقدام ، الرسائل والمواد الغذائية و «الأشياء الغريبة الاخرى» المبعوث بها الى الامبراطور؛ كان هؤلاء موظفين ذوي اجور معفين من الضرائب على غرار أغلبية الضباط الامبراطوريين ، يراقب تنقلاتهم كتبة مقيمون في كل مركز . اما السعاة الفرسان السرعان الذين يحملون ابداً اللوحة الامبراطورية التي تسمح لهم بمصادرة الركائب ، فكانوا ينقلون الاوامر العاجلة الى الأماكن البعيدة .

واذا نسبت الى اوغوداي ايضاً بعض اشغال المنفعة العامة ، كحفر الآبار في المنـــاطق الصحراوية تسهيلاً لاجتيازها ، فان الادارة قد تنظمت تنظيماً نهائياً في عهد كوبيلاي . ولكن الخان كان آنذاك ، في الدرجة الاولى ، امبراطور الصين ؛ لذلك كانت طرائقه صينية وموظفوه الاداريون صينيين . وفي الواقع اسندت ادارة الامبراطورية ، المقسمة الى ٣٤ مقاطعة ، الى اثني عشر وزيراً صينياً من عظام الاسياد يقيمون في احد قصور بكين ويعنى كل منهم بنوع مـــن الشؤون ، ويختارون بدورهم حكام المقاطعات ، ويؤلفون اخيراً محكمة عليا حيث يعاونهم قاض وعدد من الكتبة لكل مقاطعة ويتخذون قرارات مطلقة في الشؤون العسكرية ويحددون عدد الفرق الواجب تجنيدها ويصدرون، في الدعاوى الهامة ، احكاماً مبرمة، باستثناء الحالات الخطيرة التي تعرض على الامبراطور للفصل فيها .

اما تنظيم القضاء في المقاطعات فأكثر تعقيداً اذ ان ثمة محكمة اولية تسوّي الخلافات في كل معسكر ، بينما يمارس الاسياد سلطة قضائية في اقطاعاتهم ، وتلتئم في الاولوس محاكم خاصة يرئس كلا منها قاض كبير . ويبدو ان السرقة أكثر الجرائم تكراراً في العـالم المغولي . وهي تعاقب بحسب أهميتها اما بضربات العصي – من ٧ الى ١٠٧ – واما باعدام تراق فيه الدماء ، الا اذا استطاع السارق دفع تسعة اضعاف قيمة المسروق .

امام صعوبات التموين في امبراطورية على مثل هذا الاتساع ، اضطرت حكومة كوبيلاي، أكثر من سابقاتها ، الى حصر جهودها في المشاغل الاقتصادية . فأحدثت أقنية كبرى بـين بكين ويانغ – تشيو ؛ وطافت هيئة من المحققين على المقاطعات للاستعلام عن حاجاتها ؛ وأعفي ضحايا الاوبئة والكوارث الطبيعية مؤقتاً من الضرائب ؛ وأعيد نظام قروض الدولة الذي عرفته الصين في ايام السونغ ؛ ووزعت الادارة ، في السنوات القحيطة ، الحبوب والمواشي التي جمعتها في سنوات الاخصاب . ومن أدلة سياسة المساعدات هذه تأسيس المستشفيات والمياتم ومستوصفات العجز ، وتوزيع الاطعمة والالبسة بالمجان ، و الحسانات اليومية في فناء القصر .

كانت الاتاوات والضرائب ، لفترة من الزمن ، كافية لتغذية الخزانة الامبراطورية . وكان للضرائب العينية أهمية عظيمة : الطرائد الصغيرة والكبيرة ، الاحصنة التي يقدمها الاسياد للبريد والحرس والجيش ؛ المواد الغذائية على أنواعها ، بما فيها البطيخ والعنب ، التي تقدمها البلدان المحتلة . يضاف الى ذلك الضريبة النقدية (فضة) المفروضة على المزارعين المتحضرين ، وضريبة اخرى خاصة (ذهباً) مفروضة على الملح، ورسوم اخرى على السكر والفحم الحجري المستخرج من جبال الصين الشمالية بكلفة اقل من كلفة الوقود . ويدخل الخزانة أيضاً قسم من الرسوم المفروضة على كافة السلع والجزى المتوجبة على البلدان الاجنبية او التابعة للامبراطورية . فبدت ثروة الامبراطورية وكأنها ممتنعة النفاد ؛ ولكنها تلاشت بالاكثار من النقد الورقي الذي كان ، كما سنرى ذلك ، احد الأسباب الرئيسية لانهيار « اليوان » .

فأين نحن اذن من اقتصاد بدائي ساد عالم المغول الذين لم يعرفوا، كما نرجح ، القطع النقدية واكتفوا بالمقايضة البدائية ؟ الا ان بعض تجار تركستان الصيني قـــد ركبوا الأخطار منذ أوائل القرن الثالث عشر وتوغلوا في منغوليا بغية تبادل الاغنام والابل بجلود السمامير والسناجب. اضف الى ذلك ان قيام الامبراطورية الجنكيزخانية ، بتسهيله جمع الثروات الطائلة في المعسكر الامبراطوري ، قد سمح باعادة فتح طرق المقايضة القديمة المهجورة منذ قرون عديدة بسبب مخاطر المسير في البورات . ولكن منغوليا ليست من أفاد من ذلك ، اذ ان نقل العاصمة الى بكين قد حول التجارة شطر الصين الشمالية . وقد يكون جنكيز خان أدرك بسرعة أهميـة طرق الحرير الخاضعة آنذاك لسيطرة الويغور ؛ فنظم ، بالاتفاق مع هذا الشعب ، قافلة كبرى ، مؤلفة من ٥٠٠ جمل حمّلها من كافة ثروات آسيا ، وأعدها لاقامة العلائق التجارية مع خوارزم . فكان الهجوم على هـــذه القافلة ونهبها ، اللذان نظمهما احد الحكام الخوارزميين ، مصادفة مشؤومة وفاتحة حرب لا هوادة فيها استمرت عدة سنوات خرّب المغول خلالها تخريباً نهائياً المناطق الغنية التي كان الخان قد رغب في الاتجار معها . اضف الى ذلك ان الوزير يي ـ ليو تشو، حين جاء دور الصين ، لم يتوصل الا بكل صعوبة الى اقناع جنكيز خان بالعدول عن مشروع وضعه ، تحت تأثير ذهنيته البدوية ، لافناء السكان وتقويض المدن والاسواق واعادة المساحات المحتـــلة الشاسعة الى بورات ومراع للمغول . ولكن فتح بلاد السي ـ هيا آنذاك (١٢٢٦) قد سمح بجعلها طريقاً رئيسية للقوافل بين الشرق الاقصى والغرب ، بينما كان لا مناص في السابق ، لبلوغ ايران والصين ، من سلوك طريق طويلة محفوفة بالاخطار تمر بمنغوليا العليا . فأتاحت الطريق المباشرة ، المارة بـ « سو ـ تشيو » و « توان ـ هوانغ » ، واعادة النظام مؤقتاً الى الربوع المغولية ، ظهور التجار الاجانب مرة اخرى في آسيا العليا وبلوغهم الصين .

كان استثمار السكان استثماراً منسقاً. ينظم في هذه البلاد الأخيرة، كلما امتد الفتح المغولي، فكر الأسياد المغول ، الذين غدوا من كبار الملاكين في البـــلاد المحتلة ، باقراض الصينيين ، بفوائد مفرطة ، الأموال التي انتزعوها منهم ، وذلـــك بالاتفاق مع تجار جلهم من المسلمين ، أسسوا نقابات وشركات مصرفية، وقاموا بدور الوسطاء لاقناع الاسياد بالموافقة على القروض للصينيين. الا ان هذا النظام ، الذي جنى منه « تجار الاموال » المكاسب الرئيسية ، قد الغي رسمياً في السنة ١٢٩٨ : فان السكان الصينيين ، الذين عوملوا منذئذ معاملة المغول ، قد حصلوا عـــلى ضمانات قانونية ضد الفوائد الجائرة التي تتقاضاها النقابات الاسلامية وضد مصادرة نساء المدنيين واولادهم . ولكن هذا التشريع لم يأت بالنتيجة المتوخاة ، فاقتضى اقرار تشريع جديـــد في السنة ١٣٠١ والسنة ١٣٠٢ ضد استثمار استهدف الفلاحين والصناعيين البدويين ، لم يحـــل دون انطلاقة التجارة الكبرى: ويبدو ان نشاطات المقايضات هذه قد بلغت ذروتها في عهد كوبيلاي؛ او ان ما يجوز قوله فيها هو ان ماركو بولو قد افتتن آنذاك بمشاهدتها .

في الصين الوسطى مخرت السفن الشراعية نهر « اليانغ ـ تسو » وسار غيرهـــا في القناة الكبرى ، التي رممها واكملها كوبيلاي ، لتموين بكين بالارز والحرير الضروري لانتاج اقمشتها الموشاة بأشكال الزهور ومنسوجاتها التي تتخللها الخيوط الذهبية ، ومنسوجاتها الحريرية الملساء ؛ وقد صدرت تشنغ ـ تو ، في الغرب (سو ـ تشوان ،) الحرائر الصينية حتى اواسط آسيا . وانتشرت على السواحل البحرية مرافىء عجت بنشاط منقطع النظير ، فكانت « يانغ ـ تشيو » ، سوق الارز الكبرى ، وكانت « هانغ ـ تشيو » ، حيث عاشت النقابات عيشة الامراء ، مستودعاً للسكر وصدرت الحرائر الى الهند والعالم الاسلامي ؛ والمجرت فو ـ تشيو بالتوابل والحجارة الكريمة التي قامت اهم اسواقها في « تسيوان ـ تشيو » بينما اشتهرت منطقـة « فو ـ كيان » بصناعة الاواني الصينية . فتوافد التجار الاجانب على الصين من عرب ، وفرس ، ومسيحيين شرقيين وغربيين ، وهنود وماليزيين ، فاسسوا مستعمرات حقيقية وجمعوا ثروات طائـلة من بيع توابل جاوا والهند بارباح مرتفعة جداً . وبفضل المعاهدات التجارية التي عقدها كوبيلاي مع « راجوات » الهند الجنوبية ، ولا سيما راجوات ترافنكور وكرنات . وقصد التجار الصينيون بدورهم المناطق النائية كي يبيعوا فيها الحرير الخام والمنسوجات الحريرية ويستحضروا منهـــا التوابل والاقمشة الموصلية والمنسوجات القطنية والحجارة الكريمة .

نشطت العلائق التجارية ، براً وبحراً ، مع ايران ، حيث تولت الحكم آنذاك عائلة هولاكو المغولية ، التي صدرت الطنافس والسروج وآلات الرقابة المعدنية والادوات البرولزية والاواني المزدانة بالمينا . وما الاثر الصيني البارز في التزاويق الفارسية سوى نتيجة هذه العلائق . واخيراً اقيمت العلائق مع اوروبا ايضاً . فوصلت طرقات عـدة بين مصب « الدون » وبكين مروراً بخانية الكبشاك المغولية وشمالي تركستان الصيني ومنغوليا و« وقره كورم » . وانتهت الى هذه الطرقات طرقات اخرى تنطلق من ترابيزون والمتوسط الشرقي وتجتاز خانية فارس وتمر بتبريز وسمرقند وطشقند وواحات تركستان . واسست البندقية وجنوى اسواقـــاً تجارية في القرى ومستعمرات في بلاد فارس ، فقامت للمرة الاولى في تاريخ العالم الغربي ، على طول هذه الطرقات ، علائق مباشرة بينه وبين الشرق الاقصى : وهذه هي المغالطة في نتيجه فتوحات المغول الحربية .

ونشطت في الصين لنفسها حركة الصفقات التجارية بفضل استعمال النقد الورقي ، الذي سبق للسونغ ان استعملوه ، والذي اقتبس اوغوداي مبدأه ، منـذ السنة ١٢٣٦ ، عن الكيتات في الصين الشمالية ، والذي استعمله كوبيلاي اخيراً استعمالاً منظمـــاً . صنعت الاوراق النقدية « السوداء » من قشور شجرة التوت ، وصدرت عن قصر النقود في بكين ، متفاوتة القياسات بحسب القيمة التي تمثلها ، وحاملة خاتم الامبراطور الذي يضمن شرعيتها . وقد فرض التداول بها ، تحت طائلة عقوبة الاعدام ، على كافة رعايا الامبراطورية . اجل لم يبد التجار استياءهم من هذا النقد لانهم استطاعوا بسهولة استبداله بمواد غذائية مفيدة للتصدير . الا ان كوبيلاي ، بالاكثار من هذه الاصدارات ، قد فتح الباب امام التضخم الذي سيفضي في القرن الرابع عشر الى انهيار الامبراطورية الصينية .

الشامانية

ادت اعادة العلائق الدولية واستتباب الامن على الطرقات ، بدورهما ، الى ازدياد عدد المبشرين المتوافدين على الشرق الاقصى من كل قطر ومصر . ولكن المسائل الدينية ليست شغل المغول الشاغل . فاذا اعتنقت بعض القبائل النسطورية او البوذية وحتى الاسلام ، فان اغلبية القبائل قد حافظت على مفاهيم البدو القديمة حيال تكوّن العالم ، وهي معتقدات بسيطة جداً قامت عليها الديانة الشامانية الخاصة بكافة الشعوب التركية – المغولية . العالم في نظرها مؤلف من طبقات متعاقبة؛ المنطقة السماوية ، وهي مملكة النور ومقر النفوس الفاضلة ، تضم ١٧ طبقة عليا ؛ العالم السفلي ، وهو مقر الظلمات والاشرار ، يقسم الى سبع او تسع طبقات ؛ وتقوم بين الاثنتين مساحة الارض حيث يعيش بنو الانسان . تخضع السماء والارض الى كائن اعظم يقيم في الطبقة العليا ، تانغري ، او السماء – المؤلهة . وبين الآلهة الآخرين ، تعنى الإلهة اوماي بالاطفال ، وتتمثل اتوغان أو إيتوغان ، الهة الارض ، بالهة الجبل ، اوتوكان ، في الارجح . ويقيم عفاريت لا يحصى لهم عد في الارض ، والمياه ، والجبال ، والينابيع ، وهي اماكن مقدسة احيطت بالاكرام منذ القدم . ويتمثل العفريت حارس القبيلة ، « السولد » ، تمثلاً محسوساً ، بسارٍ تعلوه جدائل من سبيبة الفحول ، وهي في الارجح حيوانات مقدسة ، عنبية اللون وسوداوية الذنب والغفرة ؛ وينصب الساري في حظار يحيط به نطاق من شجر الصفصاف يقوم على حراسته متولو شؤون العبادة . ولكن العفريت يسكن علم القبيلة ايضاً (توك) الذي تقدم له ذبيحة قبل كل حملة عسكرية . ولكل انسان كذلك إله مصير يؤدي له واجب عبادة: فقد اكرم جنكيز خان اله مصيره ، السماء – الزرقاء – الازلية ، في كافة ظروف حياته العصيبة : وقد درج الفاتح على أن يتسلق جبلا مقدساً ويرفع قبعته عن رأسه ويلقي زناره على كتفيه ، ويسجد تسع مرات مولياً وجهه شطر الجنوب .

ومن الجائز ايضاً ان يكون « السولد » قد استخدم كذلك نطاقاً لارواح الاجداد اذ ان المغول قد قدموا لها فيه لحوماً كان افراد القبيلة يلتهمونها بعد ذلك في مأدبة طقسية . واعتبر جنكيز خان بعد وفاته كعفريت حام ، فاديت له عبادة خاصة كادت تمثله باله حقيقي . ولكن الطقس الذي احتفلوا به اكراماً للجدود كان اهم الطقوس اطلاقاً ؛ وكان الاقصاء عنه بمثابة طرد من القبيلة .

كان لسجود « الكوميز » وسكب الخمر الطقسي صداها حتى في العيد الكبير الذي امر كوبيلاي باحيائه في بكين في الثامن والعشرين من آب ؛ فقد سكب فيه على الارض ، لاخصابها ، حليب الافراس الامبراطورية : قربان جماعي يقدم ، كما ذكر ماركو بولو ، للارض والسماء والارواح ، ومن شأنه ان يؤمن للشعب بكامله السعادة والخصب والازدهار .

فنحن اذن امام ديانة بدائية احيطت بعادات خرافية ، كالتامل في راسل خروف محموس بغية معرفة الحظ ؛ وباللعنات : فاذا ما قذفوا بالحجارة الى الماء ، استنزلوا على العدو عاصفة ثلج ومطر ؛ وبالدلالات الطبيعية المشؤومة ، كنباح الكلاب ؛ وبالايمان التي ترافقها الهدايا

والمآدب والرقصات الطقسية ؛ وربما بالوشم اخيراً : فان بعض تلميحات « التاريخ السري » تحمل على الاعتقاد بان الذئب والوعلة كانا رمزين لجدود القبيلة الجنكيز خانية بينما الصق ببعض المصنوعات ، كالمرآة ، طابع مقدس يحرم مسها او استخدامها .

ليس لهذه الديانة من كهنة سوى السحرة او الشامانيين المتسلحين بطبل شد عليه جلد ثور اسود. استخدم هؤلاء الرجال الخشنون الدهاة ، السلطة الفائقة الطبيعة ، المعترف لهم بها ، بغية لعب دور شعبي عام ، والاستئثار ـ لا سيما بين قبائل الغابات ـ بلقب الزعيم (باقي) وفرض انفسهم على ولاة الشعب . فلم يتردد جنكيز خان وخلفاؤه في اقصاء اكثرهم ازعاجاً وحتى في التخلص منهم اغتيالا . وعلى الرغم من ذلك كان وجود الشاماني ضرورياً للقيام ببعض الطقوس وتقديم بعض الذبائح وتفسير بعض الدلالات الطبيعية . وفي البلاط ، تقدم الشاماني الاعظم ، المتجلبب بالثياب البيضاء والمعتلي صهوة جواد أبيض ، على كافة اصحاب المقامات في حاشية الامبراطور ؛ وقد درج التقليد على التماس تنبؤاته قبل كل مشروع حربي .

الديانات الغريبة

لم يكن المغول ، على امانة سوادهم الاعظم للمعتقدات الشامانية القديمة ، مرتبطين باية عقيدة معينة . فبرهنوا من ثم عن تساهل متساو ، في كافة انحاء الامبراطورية ، حيال الديانات المتجانبة فيها : البوذية والطاوية والكونفوشيوسية والاسلام والمانوية واليهودية والمسيحية النسطورية او الكاثوليكية ، بالاضافة الى شتى الشيع المشاقة . فتمتعت كل كنيسة بنظام قانوني وصلاحيات قضائية عادلة ؛ لا بل حصل بعضها على اعفاءات من الضرائب لاتباعها . واشتهر المغول بفضولهم في سؤال الاجانب عن ديانتهم دون ان يعني ذلك ، بالضرورة ، اعتناقهم اية ديانة ؛ واذا ما اقدم بعضهم على ذلك ، فانهم كانوا يحتفظون بخرافات غليظة ادت بكثير من الديانات الغربية الى الفساد والانحطاط .

يبدو ان جنكيز خان قد اعار الطاوية في البداية اهتماماً خاصاً . ومرد ذلك في الارجح الى القوى الفائقة الطبيعية المعزوة الى كهانها ، والى انه نظر اليها نظرته الى شامانية فضلى . استدعى الى معسكره كاهناً مشهوراً من « هو - بي » ، يدعى « كيو تشانغ - تشوان » ، آملاً الحصول منه على العقار الذي يؤمن الخلود . ذهب الكاهن العجوز في شهر آذار من السنة ١٢٢١ واضطر الى سلوك طريق طويلة تفادياً للمخاطر ، فلم يبلغ الاوردوس الامبراطوري ، وهو آنذاك في البلاد الافغانية ، الا في الخامس عشر من نوار من السنة ١٢٢٢ ، ومكث فيه قرابة السنة . الا ان رواية مرافقه ، وهي مفيدة جداً لمعرفة البلدان التي اجتازاها ، لا تخفي اخفاق المهمة الدينية ؛ فخاب امل الفاتح لأنه لم يجد فيه ذلك العجائبي القادر على ان يؤمن له الخلود ، ولكنه أصغى بلطف الى الحكيم وتظاهر بالتأثر بتعاليمه واصدر أمراً مهوراً بالخاتم الامبراطوري بإعفاء كافة رؤساء الطاوية من الضرائب ، على الرغم من انه لم يهتم اهتماماً خاصاً لفلسفة الطاو .

اما في بلاط خلفاء جنكيز خان فكانت المسيحية النسطورية اولى الديانات التي تمتعت بنفوذ

واسع. انتشرت النسطورية في آسيا العليا والصين منذ القرن الثامن بفضل كنائس ايران ، ولكن التانغ حرّموها في السنة ٨٤٥ ، فتلاشت بعد ذلك في الصين . بيد انها حافظت على حيويتها في تركستان فاستعادت نشاطها التبشيري في الشرق، ولا سيما في اوساط قبائل الكرائيت والاونكوت والتانكوت المغولية . وفتح لها الاحتلال الجنكيزخاني ابواب الصين مرة اخرى ، فتمكن البطريرك النسطوري ، في السنة ١٢٧٥ ، من احداث أسقفية في بكين .

بيد ان النساطرة لم ينتظروا هذا الاعتراف الرسمي حتى يظهروا في البلاط المغولي؛ فان النسطوري تشنكاي الكرائيتي (١١٧١ — ١٢٥١) ، الذي جعل منه جنكيز خان مستشاره حتى قبل ان يبلغ ذروة قوّته ، قد احتفظ بمهامه في ولايتي اوغوداي وغويوك . ولم يفته ، كما نرجح ، بينما كان يشغل منصباً اسهم فيه اسهاماً كبيراً في تنظيم ادارة الامبراطورية ، ان يقدم كل مساعدة ممكنة لأبناء دينه، اذ ان رشيد الدين يشكو من عدائه للمسلمين الذي شاطره اياه نسطوري آخر هو كادالك ، ذو الثقافة الويغورية ايضاً ، والذي اسندت اليه مهمة تهذيب غويوك ثم أصبح رئيس وزرائه . الا ان الاثنين اعدما عندما آل الحكم الى مونكا الذي أتى بذلك عملاً سياسياً لا اضطهاداً دينياً ، اذ ان هذا الامبراطور الجديد قد اختار نسطورياً آخر ليحل محل تشنكاي . اضف الى ذلك ان مونكا ، وهو ابن اميرة كرائيتية نسطورية ومتزوج من امرأتين نسطوريتين ، قد شمل بتساهله كل الديانات لأنه رأى فيها خير اداة لتسيير دفة الحكم. ففي « اوردوسه » - كما ذكر روبرك — اشترك رجال الدين النسطوريون والمسلمون والبوذيون والطاويون ، بألبستهم الدينية الرسمية ، في اعياد البلاط وباركوا كأس الخان الاعظم ؛ الا ان النسطوريين كانوا في مقدمة هذا الموكب المقدس. وقد حدث احياناً ان رافق مونكا زوجته الى القداديس النسطورية التي كان يحضرها على سرير مذهب موضوع قبالة المذبح . وقد اشتهرت والدته ، التي اعتلى ثلاثة من أبنائها العرش الامبراطوري ، ببصيرة سياسية وسلوك لا لومة فيه . وبعد مرور ٨٤ سنة على وفاتها ، أي في السنة ١٣٣٣ ، توجهت ادارة كنيسة الصليب ، وهي احدى الكنائس النسطورية الثلاث في كان — تشيو من اعمال كان — سو ، الى البلاط الامبراطوري بسؤال عن الاكرامات التي يستطيع مؤمنوها تأديتها لصورة الامبراطورة التي كانت قد وضعت في المعبد .

في عهد كوبيلاي رغب راهبان نسطوريان شرقيان في الحج الى اورشليم . وصلا الى بلاد ما بين النهرين في السنة ١٢٧٨ ولم يتمكن أي منهما بلوغ الاماكن المقدسة ، ولكن الاونكوني مرقس (الذي توفي في السنة ١٣١٧) قد انتخب بطريركاً نسطورياً على بغداد بينما اصبح رفيقه « ربان صوما » ، الذي ينتسب الى « هو — يي » سفير خان فارس لدى ملوك الغرب ؛ فاستقبله « فيليب له بيل » في باريس ، ثم استقبله في « بوردو » ادوارد الاول ملك انكلترا ، واستقبله اخيراً في روما البابا الجديد للقولا الرابع (١٢٨٨) . اجل لم يتوفق الى حمل الغرب على محالفة سيده ضد المماليك ، ولكن زيارته قد اطلعت الكاثوليك الرومانيين على أهمية المسيحية المغولية التي كانت اعظم ازدهاراً في فارس منها في الصين على كل حال .

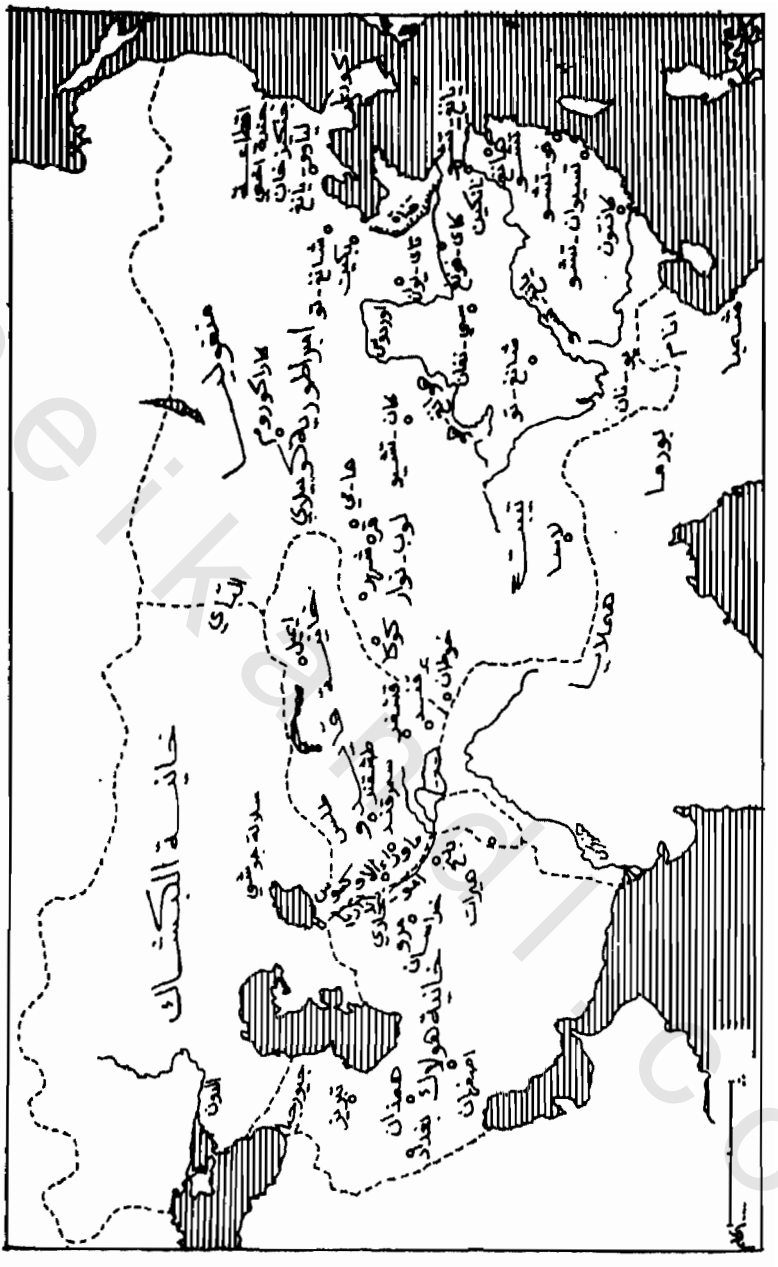

الشكل (رقم ١٤) ـ آسيا المغولية في عهد كوبيلاي

وحدث باتجاه معكوس ان عين كوبيلاي النسطوريّ السوري عيسى ، الذي كان قد دخل في خدمة غويوك ، مديراً لمكتب الابحاث الفلكية (١٢٦٣) . ويبدو ان هذا العالم والطبيب الذي ألمّ بلغات كثيرة قد أوحى قراراً صدر في السنة ١٢٧٩ قضى بحظر الدعاوة الاسلامية في الصين . وعُين بعد ذلك مفوضاً لشؤون العبادة المسيحية ، ثم وزيراً ، فعين كافة أبنائه ، وهم نسطوريون ايضاً ، في مناصب مرموقة .

يجب اخيراً ان نفرز مكاناً خاصاً ، في حاشية كوبيلاي النسطورية ، للأمير الاونكوني « كورغوز » الذي أطلق عليه الصينيون اسم « كوو ـ لي ـ كي ـ سو » والاوربيون اسم « الامير جورج » . كان ، لجهة والدته ، حفيداً للامبراطور ، ولم ينقطع ، بهذه الصفة ، عن استخدام نفوذه في البلاط لخير المسيحيين ، فأسس المدارس والكنائس النسطورية . اضف الى ذلك انه كان ذا ثقافة رفيعة واقتنى مكتبة قيمة ، واستهوته المباحثات حول الكلاسيكيين الصينيين والفلسفة والتنجيم والرياضيات . انضم في السنة ١٢٩٤ ، تحت تأثير المبشر « جان دي مونتيكورفينو » ، الى الكثلكة الرومانية ، وعمد ابنه باسم يوحنا (شو ـ غنان) اكراما للراهب الايطالي . وكان لارتداده صداه البعيد لأنه ادخل الكثلكة الى قلب العائلة الجنكيزخانية .

المغول والمسيحية الرومانية

أدى تقدم المغول الصاعق منذ نصف قرن قريباً ، الى اختلاطهم بالمسيحية اللاتينية في اوروبا الوسطى وفي سوريا الفرنجية على السواء . الا ان غزوهم ، على ما رافقه من تخريب وارهاب ، قد خلق في نفوس الحكام المسيحيين وهماً ـ غذاه استمرار اسطورة الخوري يوحنا ـ بأن هؤلاء الغزاة البرابرة قد يصبحون حلفاءهم على الاسلام . ومن واجبنا هنا ان نأتي على ذكر هذه المحاولات التي لا فضل لها ، بالنسبة للمؤرخ ، سوى انها أتاحت الظرف لروايات عديدة دوّنها المسافرون ، ما كنا لنعلم بدونها شيئاً يذكر عن العالم المغولي . كان البابا انوشنتيوس الرابع ، منذ افتتاح مجمع « ليون » ، قد أوفد الراهب الفرنسيسكاني « جان دي بيان كاربينو » الى الخان الاعظم ليدعوه الى ايقاف هجماته على المؤمنين والى اعتناق الدين المسيحي مع شعبه . فسار الرسول عن طريق المانيا وبولونيا وامارة كييف وبلاد الكبشاك وبلغ منطقة قره كوروم حين كان مجلس الامبراطورية ملتئماً لانتخاب غويوك (١٢٤٦) . قدّمه الوزراء النسطوريون الى الخان الاعظم ـ مع ان التفاهم لم يكن امراً سهلاً بين النساطرة الذين يحميهم المغول لأنهم يؤلفون جزءاً من شعوب آسيا العليا ، وبين الرومان الغرباء عن الامبراطورية والخارجين من ثم على سيطرتها ـ فتلقى جواباً خطيا (مقدمته تركيه ونصه فارسي) ينذر البابا ومؤمنيه بالخضوع الى من هو ، بنعمة السماء ـ الخالدة ، « الخان الحيطي لشعب المغول العظام » . بيد ان القديس لويس قد جدّد المحاولة خلال اقامته في الارض المقدسة في السنة ١٢٥٠ ؛ فأوفد الرهبان الدومينيكان الثلاثة « جان دي كاركاسون » و « اندريه دي لونجومو » وأخاه الذين ساروا عن طريق تبريز وطالاس وبلغوا المعسكر الامبراطوري في منطقة الايميل والقوبق ؛ فتقبلت ارملة غويوك هدايا ملك فرنسا ، ولكنها طالبته بخضوع صريح .

وانطلق رسول آخر ، هو الفرنسيسكاني غليوم دي روبروك ، من القسطنطينية في السنة ١٢٥٣ واجتاز بلاد الكبشاك حيث ادرك مدى اطلاع الاوساط النسطورية على شؤون الغرب ، ومرّ في « قيالبيغ » وهي مركز طائفة نسطورية وطائفة بوذية ، وقابل مونكا في جبال الالتاي . فصادف هناك اوربيين عدّة اختطفوا في هنغاريا واستخدموا في البلاط المغولي ـ لورينية من متز متزوجة من مهندس روسي ، وصائغ باريسي « يقيم أخوه على الجسر الكبير في باريس » متزوج مسلمة هنغارية ، وابن رجل انكليزي مولود في هنغاريا ايضا ـ وسمح له بالاحتفال بالخدمة الالهية ، يوم عيد الفصح ، في كنيسة قره كوروم النسطورية ، واستطاع ، امام ثلاثة محكّمين عيّنهم الخان ، الاشتراك في مجادلة دينية علنية وقف فيها ، على صعيد الايمان بإله واحد ، الى جانب الفقهاء المسلمين ضد الفلاسفة البوذيين . ولكنه على غرار سابقيه ، لم يحرز أي نجاح على الصعيد السياسي . « هذه هي وصية السماء ـ الأزلية : لا اله الا اله واحد في السماء ، ولا ملك الا ملك واحد على الارض هو جنكيز خان بن الله » . فطولب ملك فرنسا من ثم بتقديم خضوعه للخان الاعظم . وقابل روبروك ، في طريق العودة ، ملك ارمينيا (كيليكيا) هيثوم الاول الذي كان أكثر واقعية ولم يتردد في الاعتراف بسيادة الخان الاعظم ، فحصل منه بعد ذلك على صك حماية « يحرّر الكنائس في كل مكان » ، وبعد بمساعدة عسكرية .

تبدلت الامور بعض الشيء في أيام كوبيلاي بعد ان بلغ بعض التجار الايطاليين، من جهة، أسواق الشرق الاقصى ، وبعد ان اطلعت بعثة « رابان صوما » الغربيين ، من جهة ثانية ، على أهمية الطوائف المسيحية الآسيوية . وليس ، بين المسافرين الايطاليين ، أشهر من الأخوين البندقيين نيكولو ومافيو بولو اللذين حظيا ، أثناء اقامتهما الأولى في بكين (١٢٦٦) ، بمقابلة كوبيلاي الذي كلفهما رجاء البابا بأن ينتدب الى الصين مائة مثقف « متعمقين في الفنون السبعة » . وعندما عادا في السنة ١٢٧١ ، دون التمكن من تلبية طلب الخان ، اصطحبا ابن نيكولو ، ماركو بولو ، الذي تسمح لنا روايته المشهورة بتتبع مغامراتهم . مرّوا بفارس وخراسان وقشغاريا ولوب نور ، وبلغوا الصين الغربية ؛ ثم اجتازوا بلاد الاونكوت التي أوهمهم معتقدها النسطوري بأنها مملكة الخوري يوحنا ، وانتهوا في شهر نوار من السنة ١٢٧٥ الى « شانغ ـ تو » مقر كوبيلاي الصيفي . عين ماركو بولو في الادارة الامبراطورية ـ في مكاتب جباية الضريبة على الملح، في الارجح ـ وأسندت اليه عدّة اعمال هامة، فمكث في الصين أكثر من ١٥ سنة : ويغلب انه رافق بعض البعثات المغولية الى شمبا وسيلان . وغادر الصين بحراً في السنة ١٢٩١ عندما طلب اليه كوبيلاي مواكبة اميرة مغولية كان قد خطبها لحفيد أخيه ، خان فارس . ولم يعد بعد ذلك الى الشرق مع انه كان قد حمل رسائل موجهة الى البابا وملوك فرنسا وقشتالة وانكلترا . ولكن مغامرته ليست فريدة من نوعها ؛ فان ايطاليين آخرين قد أقاموا في الصين وجمعوا ثروات طائلة وأسندت اليهم مهام رسمية، كـ « أندالو دي سافينيانو » الجنوي الذي عاد الى اوروبا في السنة ١٣٣٨ بصفة سفير لخان الصين .

في هذه الاثناء ، كان المبشرون الكاثوليك الأولون قد توجهوا الى الشرق الاقصى بايعاز من البابا نقولا الرابع . وحمل الراهب الفرنسيسكاني « جان دي مونتيكورفينو » رسائل بابوية الى خان فارس وكوبيلاي ، فأقام بعض الوقت في تبريز ، وذهب الى الهند مستهدياً تاجراً ايطالياً ، ثم الى الصين حيث قابل حفيد الخان الاعظم وخليفته ، تيمور ، وسرّ بأنه حمله على « تقبيل الصليب بكل تقوى » . ولا ريب في ان اعتناق الامير جورج للايمان الروماني وتشييد كنيستين في بكين قد خلقا تياراً تنصّرياً : « أكثر من عشرة آلاف تتري » ، وهو عدد مبالغ فيه في الارجح ؛ ولكن النتائج كانت مرضية حقاً اذ ان البابا اكليمنضوس الخامس قد رقّى « مونتيكورفينو » ، في السنة ١٣٠٧ ، الى درجة رئيس أساقفة ، ثم ارسل اليه اساقفة آخرين ، قبل احداث الاسقفيات في القرم و « تسيوان ـ تشيو » . وتؤيد وجود هذه الجمعيات التبشيرية رواية « اودوريك دي بوردينون » ؛ فبين السنة ١٣١٤ والسنة ١٣٣٠ زار هذا الراهب الفرنسيسكاني بلاد فارس التي تعرّف الى كنائسها النسطورية ، والهند حيث أفضى التعصب الاسلامي ، قبيل زيارته ، الى تقتيل اربعة اشقاء قصّر ، وحيث ما زال للكنيسة النسطورية مؤمنوها في « القديس توما » (ميليابورا) وسيلان وجاوا وشمبا ، والصين اخيراً عن طريق كانتون ؛ وكان هنالك جمعيات فرنسيسكانية في تسيوان ـ تشيو ، وهانغ ـ تشيو ، وبكين حيث مكث ثلاث سنوات . وقد استفاد رئيس الاساقفة مونتيكورفينو الذي خصّ ، كغيره من المبشرين ، برتبات رسمية ، من « حماية بعض ذوي المقامات الرفيعة المعتدين » ؛ وكان يتوجه الى الخان الاعظم بموكب احتفالي ويبخره ويقدم له الصليب كي يقبّله .

بعد وفاة مونتيكورفينو ، شغر مركزه زمناً طويلاً ؛ ثم عين بندكتوس الثاني عشر خلفاً له لم يقم في بكين سوى خمس سنوات ؛ وحين عينت البابوية ، في السنة ١٣٧٠ ، رئيس أساقفة جديداً ، كانت الصين قد آلت الى سلطة المنغ الذين حرّموا ممارسة الدين المسيحي في امبراطوريتهم بسبب ارتباطه الوثيق بالسيطرة المغولية . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم تكن الارساليات الكاثوليكية ، حتى بدون ردة الفعل القومية هذه ، صائرة الى فشل محتم . فهل يجب ان نعير أهمية كبرى لارتداد جمهور من الألين المسيحيين التابعين للطقس البيزنطي المنخرطين في الحرس الامبراطوري الذين جاء مندوبوهم يقدمون خضوعهم للسلطة الرومانية في السنة ١٣٣٨ ؟ ان الاباطرة المغول أنفسهم ، على الرغم من تساهلهم نحو كافة العبادات ، قد برهنوا ، منذ قبيل كوبيلاي ، عن تفضيل ظاهر للديانات الآسيوية . فقد سبق لمونكا ان استدعى الى بلاطه طاوياً ، ولما تجردا فيه للمجادلات اللاهوتية ؛ وقد انعقد في قره كوروم في السنة ١٢٥٦ ما هو أشبه بمجمع بوذي اصدر حكماً صريحاً على الطاويين بسبب نشرهم كتابات مزيفة تحرّف تاريخ الاصول البوذية . فرجحت منذ ذاك التاريخ كفة البوذية . واذا أبقي على « مكاتب » العبادات المختلفة التي كانت وسائل مفيدة للحكم ، واذا تأيد تكرار الاعفاء من الضرائب الذي استفاد منه كافة « الرهبان » ، نساطرة او طاويين ، مسلمين او بوذيين ، فان ذلك لم يمنع كوبيلاي من اتخاذ تدابير تمييزية تناولت المسلمين كالمرسوم الذي صدر في السنة ١٢٧٩ حول تنظيم ذبح المواشي

المعدة للقصابة بشكل يتنافى والطقوس الاسلامية – ولا سيما الطاويين : اذ قد صدرت الأوامر تكراراً بملاشاة مؤلفاتهم التي تمسخ الاصول البوذية . ولعل الخان ، كما يؤكد ماركو بولو ، قد تلقى بقايا جسد بوذا من ملك سيلان مستقبلاً اياها بأبهة عظيمة ؛ ومن الثابت انه استدعى الى بلاطه لاما تيبتياً ، مستهدفاً ، من وراء ذلك ، هدي المغول وضمان وفاء التيبت على السواء .

ازدادت هذه النزعات شدة في عهد خلفاء كوبيلاي الذين كانوا كلهم بوذيين نِشاطاً، باستثناء الأمير أناندا الذي اعتنق الاسلام ثم اغتيل قبل ان يجلس على العرش . عرفت الصين من ثم غزوة حقيقية من الرهبان التيبتيين حاول الامبراطور يسون (١٣٢٣ – ١٣٢٨) في فترة من الزمن اخضاعها لقانون ، بينما كان بعض المثقفين الكونفوشيوسيين قد حصلوا من أسلافه على بعض الاصلاحات الوجلة التي لم تحدّ من تجاوزات الكهان البوذيين . فاستمدت القومية الصينية من عدائه للبوذية غذاء جديداً لمقاومة سلالة اليُوان .

تصدع آسيا وانحطاطها في أواخر القرون الوسطى

ان المغامرة المغولية المدهشة ، بافضائها الى تكوين امبراطورية آسيوية عظيمة ، قد حوت في نفسها جراثيم انحلالها . فما ان انتهى الفتح حتى مست الحاجة الى تنظيم وادارة . ولكن التفاوت كان عظيماً جداً بين البربرية المغولية وتفخل الشعوب المتحضرة التي شملتها وطمعت في حكمها . وقد برهن النظام الاقطاعي للمجتمع الجديد عن انه مجرّد مسكّن وقتي لكبح هذه البربرية وتدارك فوضى المغول العميقة التي غدت الآن خطراً سياسياً ؛ ومرد ذلك الى انها قد خلقت، بدورها ، في قلب الشعب المغولي ، هوة بين الأسياد والكبار المتشبعين عظمة وبذخاً ، وبين المحاربين البدو الذين ما زال بؤس البورات مخيماً عليهم . وكان من شأن سجس هؤلاء ، اذا تعذر اخضاعهم للنظام ، ان يهدد بالخطر وحدة الامبراطورية وازدهارها ؛ وكان من شأن تحضر اولئك ، من جهة ثانية ، ان يفقد العنصر المغولي الضائع في بحر الشعوب المحتلة طاقته الهجومية وشخصيته نفسها . اجل لقد احتفظ بمركز ممتاز لمسقط رأس الجدود ، منغولياً ؛ وأبقى على التقاليد والعادات والطقوس المغولية ؛ ولكن المغول ، في الأمور الجوهرية ، قد ذابوا في حضارة البلدان المتحضرة المتفخلة ؛ وقد زاد في ذوبانهم ان الادارة ، التي تعذر تنظيمها وفاقاً لطريقة البورات السريعة في تصريف الأمور ، قد اسندت بالضرورة الى موظفين بلديين . ولذلك فان كوبيلاي وحفيده تيمور (١٢٩٤ – ١٣٠٧) ، وهما الممثلان الحازمان الاخيران للسلالة الجنكيزخانية، كانا امبراطورين صينيين أكثر منهما خانين مغوليين. فما لبث سجس مغول منغولياً، المحرومين من مكاسب السلطة، ان عاد الى الظهور: فقد أسس «قايدو»، في آسيا العليا، خانية انفصلت عملياً عن الامبراطورية. واذا لم يستطع هذا التكتل من قبائل البورات اعادة وحدة العالم المغولي لمصلحته، فانه قد شكّل حاجزاً بين الصين التي انحصرت فيها ، في الواقع ، سلطة الخان الاعظم ، وبين فارس التي ما زال حفدة هولاكو جالسين على عرشها . فكان هذا التكتل من ثم عاملاً أساسياً من عوامل التقسيم اللاحق .

سندرس في فصل آخر تأثر خانية فارس السريع بالحضارة الايرانية وسنبين كيف ان نفوذ العناصر التركية المتعاظم في المناطق الغربية من الامبراطورية الجنكيزخانية، قد لاشى ، خلال أجيال معدودة ، كل ما يميز الاسم المغولي ، ان لم يلاش هذا الاسم نفسه كلياً . ويكفينا هنا ان نذكّر بأسرع انهيار مفاجىء للسيطرة المغولية في الصين الذي سهّله ، في آن واحد ، ضعف الاباطرة الاخيرين ـ وقد كانوا منحطين يتحكم بهم أحباؤهم المفضلون او بعض المتطرفين في التقوى ـ ويقظة القومية الصينية .

ولدت هذه الحركة الاخيرة في أوساط جمعيات سرية سهّل نموها وانتشارها تساهل الجنكيزخانيين الديني الذي استفادت منه الشيع والديانات الرسمية على السواء . وكانت هذه الجمعيات قد انضمت في البدء الى النظام المغولي لأنها قد ذاقت الأمرّين في السابق من اضطهاد السونغ . استمدت شيعة النيلوفر الابيض ، وهي احدى اعظم هذه الجمعيات نشاطاً ، نفوذها القوي من ايمانها بمسيح بوذي ، ميتريا ، بشرت بمجيئه القريب . فانطلقت الحركة الثورية من منطقة كانتون في السنة ١٣٥٢ ، وتعاظمت قوتها بفعل الفوضى المتفاقمة ، وتجاوزت « اللامات » المسيطرين على البلاط ، والاضطراب المالي اخيراً الذي سببه التضخم المستمر في الورق النقدي، فما لبثت ان عمت كافة أنحاء الصين الجنوبية . الا ان الاضطراب قد سيطر عليها في البداية ، اذ ان العصاة المسلمين قد أتوا اعمالاً تخريبية فظيعة . ولكن احد رؤساء الفرق المسلحة ، الكاهن السابق « تشو يوان ـ تشانغ » ، وهو مغامر في الخامسة والعشرين ، ما لبث ان تميز ببعد نظره السياسي وبالنظام الشديد الذي فرضه على جنوده ، محظراً عليهم كل سلب ونهب ، واستلم قيادة حركة التحرير . وبعد ان بات سيد الصين الجنوبية كلها ، استولى على بكين بسهولة في السنة ١٣٦٨وقتّل، دونما شفقة، كافة المغول الذين لم يتبعوا امبراطورهم الاخير في فراره نحو البورات.

انه لحدث فريد من نوعه في تاريخ الصين التي طالما اخضعها الفاتحون الشماليون . فالثورة القومية قد حررت ، في الدرجة الاولى ، الصين الجنوبية من استعباد مغولي استمر أكثر من قرن ؛ ثم استعادت مناطق الشمال التي سيطر عليها منذ ٤٠٠ سنة ملوك وارستوقراطيات عسكرية من اصل اجنبي . كان عمل تشو يوان ـ تشانغ ، الذي أسس سلالة المنغ ، باسم « هونغ ـ وو » الامبراطوري ، حركة قومية في الدرجة الاولى ، استمدت قوتها الرئيسية من العودة الى التقاليد الصينية الصميمة . وقد أدعى هذا المؤسس نفسه ، بفعل غريزة استمرار غريبة ، الانتساب الى عائلة التانغ ، آخر سلالة قومية سيطرت على الصين بكليتها مع ان سقوطها يعود الى ٤٠٠ سنة . وسيستهدف كل عمله ، خلال ملك دام ثلاثين سنة ـ اذ انه لن يموت قبل السنة ١٣٩٨ ـ طمس خلّة السيطرة المغولية وربط الصين الجديدة بأبعد ماض قومي ، وذلك باعداد حضارة تراعي ، في جوهرها ، التقاليد الصينية : وقد ارسخ كل هذا على سلطة امبراطورية مطلقة توطدت تدريجياً ، واعادة منصب المندرين والالقاب الشرفية ، والاحتفال بالعبادة الكونفوشيوسية ، واحياء مجامع المثقفين العلمية . ولكن هونغ ـ وو الذي ما زال يذكر انه

عاش في احد الاديرة حياة كاهن صيني، لم يستجب كل الاستجابة ، في الحقل الديني فقط ، لرغبة الكونفوشيوسيين ، واستمر في حماية البوذية . اما في الحقول الاخرى ، فقد عبقت الصين بروح قومية وتخثرت في تقاليد ستعرف الديمومة حتى سقوط المنغ في القرن السابع عشر .

نترك اذن حضارات الشرق الاقصى ساعة جعلها تقسيم الامبراطورية المغولية تنكمش على نفسها وقطع كل علاقة بينها وبين الغرب . فلن يجدّد الاوروبيون هذه العلائق الا بعد مرور اجيال عديدة ، أي في اوائل القرن السادس عشر ، بتاريخ اسفار البحارة البرتغاليين . اجل لم يبق من المغامرة المغولية العظمى سوى ذكريات شتّتتها الصين الجديدة ، ولكن متاحفنا تجملت بما بقي من رسوم مدهشة لفرسان وحيوانات جمعت بين الاناقة الصينية والواقعية المغولية . اما في آسيا الغربية فكان مقدرا لذكريات الملحمة الجنكيزخانية ان تعرف ديمومة اطول عهداً وتحاط بهالة من المجد . فطيلة قرون سيطلق اسم التتر على جماعات مختلفة الاجناس ، اعتنقت كلها الاسلام ، وعاشت حياة البدو الرحل في السهول الروسية . وعندما سيقرر التركماني تيمورلنك ، بعيد تولي المنغ السلطة في الصين ، ان يقذف بمواطنيه من وراء النهر لمهاجمة كافة انحاء الشرق الادنى ، سنراه يختبىء وراء الاسم المغولي ويزعم انه انما يكمل او يجدد عمل جنكيزخان وجاغاتاي : ولكنه انتساب خادع ، اذ ان النفوذ التركي قد حل منذ زمن طويل محل السيطرة المغولية في البلدان الممتدة من قشغاريا حتى مصاب الدانوب .

الفصل الرابع

تفتُّح أوروبا الاقطاعية
(حوالي ١١٥٠ - ١٣٢٠)

يتوافق المؤرخون على اعتبار الحقبة الممتدة من منتصف القرن الثاني عشر حتى السنة ١٣٢٠ تقريبا بمثابة العهد الكلاسيكي للقرون الوسطى الغربية ، والفترة التي بلغت فيها حضارة القرون الوسطى ذروتها وحققت توازنها . لا ريب في ان الانطلاقة الصاخبة التي اتاحت مزيداً من التقدم منذ السنة ١٠٠٠ قد هدأت آنذاك وانتظمت : فان اطراد السهولة في اقامة العلائق ، واختصار المسافات ، وقيام المفارق الفكرية الكبرى - كجامعة باريس مثلا - حيث يلتقي رجال قادمون من كل البلدان المسيحية ، قد مهدت الطريق لزوال الفوارق الاقليمية وتلاشي العقليات المتباينة وانسجام الاكتشافات المتنافرة والتوق الى الوحدة. ان هذا العهد هو عهد التآليف الكبرى، عهد « المرايا » ، اي دوائر المعارف التي احصيت فيها المعارف الشاملة ونسقت تنسيقا منظما ؛ وعهد « المجموعات » حيث يجمع اللاهوتيون ويقارنون كافة الآراء العقائدية ويصرفون ذهنهم وفطنتهم في التوفيق بين البرهنة والوحي ؛ وعهد البحث عن الوحدة والتوازن اللذين تعبر عنهما ، عند مدخل الكاتدرائيات ، صور المسيح التي تجمع جمعاً يثير الاعجاب بين قسمات الاله وقسمات الانسان والتي هي اجمل تمثيل تصويري لسر التجسد المسيحي .

بيد ان هذه الوحدة وهذا التوازن لقصيان . فتحت الانسجام الظاهر اخذت القيم تنقلب انقلابا كلياً عميقاً . فقد اخذت تزداد ، ويوما بعد يوم ، اهمية النقد والتجارة في عالم كان مايزال شبه ريفي ، فتخلخلت قواعد النظام الاجتماعي ؛ كما ان رسوخ قدم الملكيات ، التي اخذت تتجابه ، ونشوء الروح العلمانية ونموها السريع ، قد هدد تلاحم المسيحية بالخطر ؛ فبدت من ثم في الافق دلائل الازمات الاقتصادية ، والخلافات السياسية ، وقلق الضمائر ، التي ستبرز بكل واقعها في القرون الاخيرة من القرون الوسطى .

١ ــ الاقتصاد الاوروبي

استقرار الاقتصاد الزراعي

بعد السنة ١١٥٠ اخذت حركة الاستعمار الداخلي تسير ببطء في دول الغرب القديمة . اجل ما زلنا في القرن الثالث عشر نشاهد امتداد الاراضي الخصيبة في منطقة لنكولن وقيام قرى جديدة في حوض الغارون ؛ ولكن المساحة الزراعية ، بصورة عامة ، لم تتوسع قط . فقد امتد الاصلاح الى اقصى حدود الاراضي الصالحة للاستثمار وذلك نتيجة لتقنية زراعية لم تتحسن تحسنا محسوساً منذ التجديدات التي ادخلت عليها في القرن الحادي عشر ؛ وقد كان يحدث احيانا ان بعض الحقول ، التي جوزف باستثمارها تحت تأثير الشعور بالرضى الذي يحدثه كسب مساحات جديدة من الاراضي المجدبة ، قد يتكشف إمحالها ، فاهملت بعد عدة مواسم مخيبة . وغالبا ما ضاقت مساحات الغابات الضرورية لتوازن الاقتصاد الريفي ، فاصطدم جامعو الاخشاب بمقاومة الاسياد والجمعيات القروية ، دفاعاً عن حقوقهم في الكلأ والاحتطاب . ونتيجة لاطراد نشاط الفلاحين ، بات نمو تربية المواشي ، لتموين المدن باللحوم وصناعات الاجواخ بالاصواف ، يتعارض وتوسع اعمال الحراثة : اذ ان ملاكي الاراضي البائرة ، الذين كانوا يحاولون استمالة واجتذاب الفلاحين لزيادة مداخيلهم ، في الماضي ، اصبحوا يرفضونهم لانهم باتوا يجنون مزيداً من الارباح من هذه الاراضي بتخصيصها مراعي للاغنام والابقار ؛ وفي ولايات كثيرة ــ خصوصاً في انكلترا حيث سمحت انظمة مورتون وانظمة ونشستر للاسياد ، في القرن الثالث عشر ، بضم الغابات الى المراعي العمومية ــ امست الزراعة محصورة في مساحات معينة بفعل توسع المراعي . ولما كان عدد السكان ما زال يرتفع باطراد ، على الرغم من توقف اصلاح الاراضي البائرة ، فقد حدث في اوائل القرن الرابع عشر ان اكتظت الارياف بالبشر وكادت الاراضي الزراعية لا تكفي لتغذية عائلات الفلاحين ؛ ولنذكر هنا مثل احدى الاقطاعات ، الى الشمال من حوض لندن ، حيث ارتفع عدد الشركاء الزراعيين بنسبة الثلث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر دون ان تتبدل مساحة الاراضي الزراعية ، فكانت النتيجة ، بعد هذا الارتفاع ، ان ثلاثة ارباع العائلات لم تتمكن من تأمين اودها في الاراضي الضيقة التي استلمتها . وهكذا فقد ضعفت ، قبل ان تنقلب كلياً ، النزعة المؤاتية الكبرى التي بعثت في آن واحد ، منذ ٣٠٠ سنة ، انطلاقة الاقتصاد الريفي وتقدم الاسكان ، واعطت امتن اساس لتفتح الحضارة الرومانية . وما توازن منتصف القرن الثالث عشر ، الجزئي ، سوى نتيجة الركود الذي سيطر على انتاج معظم المواد الغذائية

ومع ذلك ، فعلى الرغم من ظهور اولى دلائل التقهقر في النشاط الزراعي في بلدان اوروبا الغربية ، توالى التقدم الاقتصادي في حقول ونطاقات اخرى . فقد برز اولا ، في مناطق الحدود الشمالية والشرقية للعالم المسيحي ، باعداد الحقول الزراعية وتأسيس القرى : ففي سكندينافيا تضاعف عدد المراكز القديمة المأهولة ، آنذاك ، بمراكز سكنية اخرى عرفت باسم (تورب) ؛

وحصل في السهول الشرقية الكبرى ، بنوع خاص ، حدث ذو اهمية رئيسية في تاريخ الغرب ، اعني به انتشار المزارعين الالمان .

الاستعمار الالماني في الشرق

حوالي السنة ١١٥٠ ، ما كان الجرمانيون ، الذين توسعوا بسرعة في المستنقعات المقفرة القائمة على شواطىء بحر الشمال وراء نهر الفيزير ، ليتخطوا ، شرقاً ، المنحدر الشرقي لغابات تورنج ، الا في حالات نادرة ، مما يثبت تراجعهم المحسوس تحت ضغط السلافيين منذ العهد الكارولنجي . اما هؤلاء ، فهم وان اقبلوا تدريجيا على التنصر وخضعوا شيئاً فشيئا لنظام الامارات ، قد استقروا في مستوى حضارة مادية غاية في التدني . فالفلاحون منهم ، الذين يعيشون جماعات في قرى صغيرة ومتنقلة ، قد خضعوا خضوعاً تاماً لطبقة الاشراف والكنيسة اللتين استغلتاهما بقساوة ؛ وقد تعاطوا بصورة خاصة تربية المواشي وزراعة الحبوب الثانوية والذرة البيضاء ، معتمدين ادوات بدائية جدا ، في اراض صالحة للزراعة ؛ لذلك خلت بلادهم من المدن وبار الشطر الاكبر منها .

الا ان الالمان ، الذين اهتموا في الدرجة الاولى لمقاومة غزواتهم ، توصلوا ، بفضل ارتفاع عددهم وتحسن اسلحتهم ، الى بسط سيطرتهم عليهم . وبينما كان بعض الرهبان الجرمانيين ، من سيسترسيين وبريمونتريه ، عاكفين ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، على تأسيس اديرة كثيرة بين نهري الالب والفستول ، ادخل الامراء المستقرون عند حدود الامبراطورية ، في طاعتهم ، الزعماء السلافيين المسيحيين في « شوارين » ومكلمبورغ وبوميرانيا وسيليزيا واقدموا على فتح اراض مازالت وثنية . وسار دوق ساكس ، « هنري الاسد » ، وافنى القبائل الفندية في «نوردالبنجيا» ؛ كما ان انسال « البير الدب » ، فاتح « براندنورغ » ، وسموا دولتهم على طول نهر السبريه بين الامارات السلافية المسيحية واجتازوا نهر الاودر في السنة ١٢٥٣ ، وضموا بوميرانيا في السنة ١٢٦٩ . والمجز في القرن الثالث عشر عمل على جانب من الاهمية ، في مناطق نائية ، بغية فرض الايمان بالمسيح على الشعوب البلطيقية : الروس والفنلنديون والليتوانيون ، الذين كانوا آخر مجموعة وثنية هامة في اوروبا . وقد نهضت بهذا العمل جمعيات دينية وعسكرية من المتطوعين الجرمانيين : مثل جمعية الفرسان المعروفين باسم « حاملي السيوف » ، وقد أسست خصيصاً لنشر تعاليم الانجيل في « كورلاند » ؛ وجمعية الفرسان التوتونيين الذين نقلوا من فلسطين الى الجبهة التبشيرية في المانيا الشرقية . وقد استدعى هؤلاء دوق مازوفيا البولوني ، فتولوا فتح بروسيا فتحاً منظماً انطلاقاً من الفستول الادنى ؛ فجمعوا في حملات صليبية سنوية امراء وفرسان جرمانيا وبوهيميا وبولونيا ونظموا الاراضي المحتلة تدريجياً وأسسوا بين السنة ١٢٣٠ ومنتصف القرن الرابع عشر دولة رهبانية وعسكرية كبرى .

رافق هذا العمل السياسي استعمار زراعي واسع . فقد أقدم السيسترسيون والنوربرتيون ، رغبة منهم في توفير النجدة لرهبانهم المساعدين واستثمار ممتلكاتهم استثماراً افضل ، والفاتحون

الجرمانيون ، لأجل احكام السيطرة على البلاد المحتلة ولجني أعظم مكسب منها ، والامراء السلافيون المحميون ، لأجل تأمين رعايا اشد اخلاصاً من رعاياهم البلديين ، والتوتونيون اخيراً ، لاجل اعادة اعمار بروسيا بعد ثورة السنة ١٢٤٠ وعملية الافناء التي استهدفت البلديين بسببها ، على الاستعانة باليد العاملة الالمانية . وكان جمع المهاجرين ونقلهم الى مسافات بعيدة عملاً شاقاً يستلزم اموالاً طائلة وجهازاً دعائياً ، فأسنده الأسياد الى ملتزمين ، عرفوا بـ « المستأجرين » ، من الفرسان ولا سيما البورجوازيين الذين حصلوا ، لقاء اتعابهم ، على مركز ممتاز في القرى الجديدة التي أسهموا في اعمارها ، وتقاضوا جزءاً من المداخيل السيدية . فاستمالت شروط المشاركة الزراعية (ضرائب خفيفة) فلاحي هولندا وريننانيا وتورنج فجاؤوا من ثم ونزلوا بأعداد كبيرة في المنطقة الواقعة بين الالب وبحر البلطيك والاودر والجبال المعدنية ؛ ونزل آخرون ابعد الى الشرق في بروسيا وبولونيا الصغرى وحتى في الاراضي المجاورة للبرغ ؛ ونزل غيرهم اخيراً في بعض البقاع المنعزلة من السهول الهنغارية وترانسيلفانيا . فكانت نتيجة هذه الهجرة الكبرى تزايداً سريعاً في عدد السكان : تأسست في سيليزيا وحدها أكثر من ١٢٠٠ قرية جديدة بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٣٥٠ . وكانت نتيجتها كذلك تبدلاً كلياً في منظر الارياف . ومرد ذلك الى ان المزارعين الالمان قد أدخلوا الى البلاد السلافية تقنيات زراعية أكمل اتقاناً الى حد بعيد : أدوات فضلى ، والمطحنة المائية ، والآلات ـ المحراث الكبير ذو الباسنة الحديدية وفأس الحطابين الثقيلة ـ التي أتاحت استثمار الاراضي التاربة والغابات الظليلة ؛ وزراعة الكرمة ، وزراعة الحنطة التي حلت محل الذرة البيضاء ؛ واراحة الارض سنة كل ثلاث سنوات ؛ والتخصص الزراعي الذي لم يترك للنشاط الراعوي سوى مركز ثانوي . وقامت في المساحات الكبرى المقفرة ، التي باعدت في ما مضى بين المراكز السكنية السلافية ، قرى كبيرة ذات نظام جماعي تأسست في وسط مقاطعة مقسمة الى اراض تزرع اصنافاً مختلفة متعاقبة .

لم يكن الاستعمار الالماني عسكرياً ورهبانياً وزراعياً فحسب . فقد جاء اختصاصيون آخرون ايضاً : معدّنون فحصوا الاراضي في كافة بلدان اوروبا الوسطى واستثمروا عروقها المعدنية ، واهل تجارة خصوصاً ـ ولذلك تميز الوجود الالماني بظهور بعض المدن في مناطق لم تعرف المدن قط . فان المستعمرات الزراعية الجديدة ، التي قامت في اراض بكر خصيبة جداً ، واستندت الى انتاج الحبوب الثمينة السهلة التصريف ، واستثمرت على أيدي شركاء زراعيين فرضت عليهم أتاوات نقدية في الدرجة الاولى وأرغموا من ثم على العمل في سبيل البيع ، قد تهيأت بصورة طبيعية للاقتصاد التجاري . وقد توفقت قرى جديدة كثيرة ، منذ تأسيسها ، الى احداث سوق ذات امتياز ، وكانت كلها وثيقة الارتباط بمدينة قام دورها ، بالضبط ، بتأمين اتصال هذه القرى بالتيارات التجارية الكبرى . فانتشرت من ثم في مهاجر الفلاحين الالمان قرى كبيرة تكاد تكون محض جرمانية . بيد ان الاستعمار المدني قد تخطى هذه المنطقة تخطياً بعيداً : فقد قامت سلسلة من المدن التجارية على شواطىء البلطيك الجنوبية والشرقية ابتداء من لوبك (١١٤٣) حتى ريغا (١٢٠١) وريفال (١٢٧٠) ، كما أعمر التجار الالمان ، في القرن الثالث

عشر أكثر الأحياء نشاطاً في المدن الجديدة التي قامت في بولونيا والدول الدانوبية وسكندينافيا، ابتداء من « برغن » حتى ستوكهولم .

ان هذه الهجرة الجرمانية الكبرى ادخلت نظم الحضارة الغربية المثلى الى بلدان لا تزال بربرية ، وحتى حدود البورات الخاضعة آنذاك لسيطرة المغول ، وأعطت البلدان السلافية مقوماتها . فعوض هذا التوسع الجانبي ، باعداد اراض جديدة لزراعة الحنطة التي اتيح تصدير معظم مواسمها ، وبتنمية الصيد في بحر البلطيك الغني بأنواع الرنك ، وبتشجيع كافة انواع المقايضات ، عن الركود الزراعي التدريجي في البلدان الغربية، كما اسهم في انطلاقة التجارة الاوروبية الكبرى .

اجواخ « فلاندر » والتجارة الداخلية المشتركة

ان النشاط التجاري الوثيق الارتباط بتقدم الصناعة وحركة تداول النقود قد تزايد باطراد في كافة انحاء اوروبا حتى اواخر القرن الثالث عشر . وانتظمت نهائياً حركة اقتصادية دائرية : مركزان رئيسيان هما شواطىء بحر الشمال وشبه الجزيرة الايطالية ـ وقد اشتهرا منذ اوائل القرون الوسطى ، بسبب موقعهما ، بنشاط التجارة – ومركز منظم هو اسواق شمبانيا الدورية .

كان المرتكز الرئيسي للازدهار المطرد في المركز الشمالي التقدم المستمر في صناعة الاجواخ . وكان هذا التقدم نفسه وثيق الارتباط بذيوع الميل ، في طبقات المجتمع العليا ، للمنسوجات الصوفية التي تفوق انتاج الانوال المنزلية اتقاناً وتنوعاً والواناً ؛ ووثيق الارتباط من ثم بتقدم الحياة الاجتماعية . وانتشرت اهم مراكز حياكة الاقمشة وصباغتها ، في القرن الثاني عشر ، غربي الواز والاسكو : سانت اومير وأرّاس وليل ودواي واميان وبوفيه وكمبريه وتورنيه . ولكن اكثر المصانع نشاطاً تجمعت شيئاً فشيئاً في الفلاندر التي حاول كونتيتها بشتى الوسائل ، منذ القرن التاسع ، بعث حياتها الاقتصادية . فأقيم معظمها في دواي اولاً ، ثم في ايبر وغنت اللتين انتهى نشاطها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، الى السيطرة سيطرة تامة على سوق الجوخ . لم تكن الصناعة ، في هذه المدن الصناعية الكبرى – وهي الاولى من نوعها التي عرفها الغرب والتي جاوز سكانها ، للمرة الاولى في ذاك العهد ، ٣٠٠٠٠ نسمة – متمركزة في مصانع كبرى ، بل موزعة على عدد كبير من المشاغل الصغرى المتخصص كل منها بمرحلة معينة من مراحل العمل ، والمشرف على ادارتها رب عمل هو ، بحسب المشاغل ، حائك او مقصّر ، حلاج او صباغ ، ينظم العمل كما يطيب له بمساعدة بعض الرفاق . الا ان الانتاج ، المعد جله للتصدير البعيد، خضع بكليته لرقابة تجار مهرة ، اصحاب اموال طائلة ، وقادرين وحدهم على ابتياع الخامات في الاسواق النائية ، وتأمين تصريف المصنوعات . وكان هؤلاء التجار ، الذين غالباً ما اجّروا ادواتهم للصناعيين اليدويين ودفعوا لهم اتعابهم على اساس الوحدة المصنوعة ، يمارسون رقابة اقتصادية تامة على ارباب الحرف الصغرى الذين استغلوا بدورهم الرفاق ، وهم

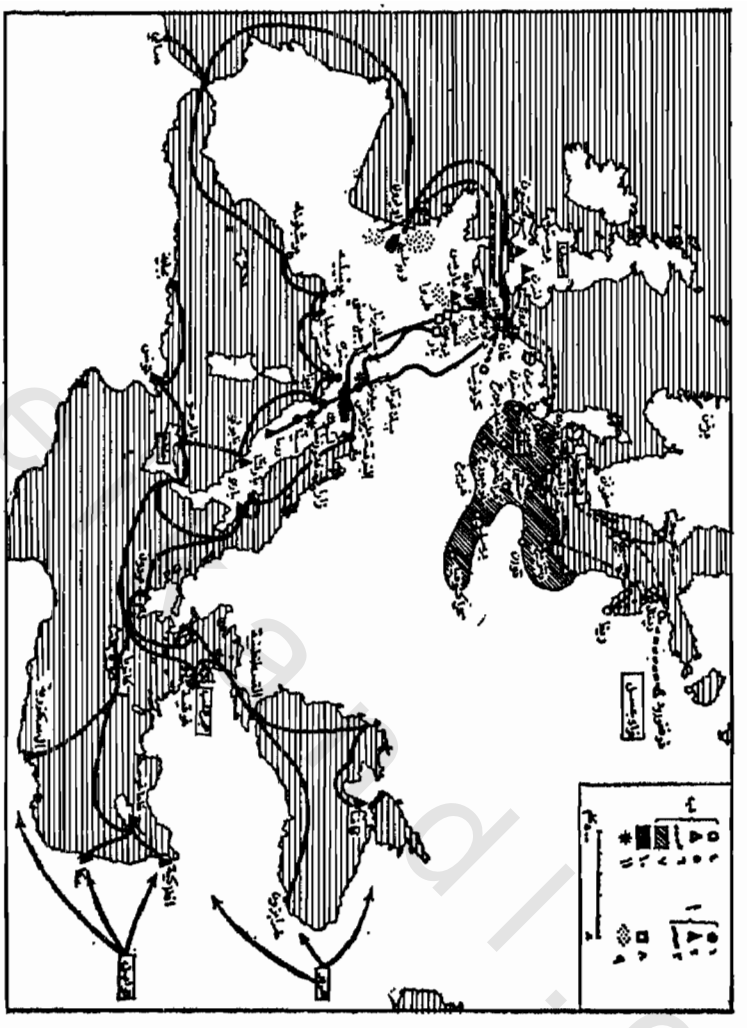

الشكل (رقم ١٥) ـ الاقتصاد الاوروبي في اواخر القرن الثالث عشر

أ ـ الايطاليون : ١ ـ المراكز الاقتصادية الرئيسية . ٢ ـ الاسواق الرئيسية . ٣ ـ الطرق التجارية الرئيسية .

ب ـ الهانسيون : ٤ ـ مدن الهانس الرئيسية . ٥ ـ الاسواق الرئيسية . ٦ ـ الطرق التجارية الرئيسية. ٧ ـ منطقة الاستعمار الزراعي الجرماني . ٨ ـ الاسواق الدورية الشمبانية . ٩ ـ أهم مناطق تصدير النبيذ . ١٠ ـ أهم مناطق تصدر العظلم . ١١ ـ أهم مراكز صناعة الاجواخ .

عمال متضورون جوعاً يستخدمون اسبوعياً ولا ينعمون بأية حماية . فنجم عن مثل هذا الوضع ، منذ الربع الاول من القرن الثالث عشر ، قلق اجتماعي عبّرت عنه الاراجيف

والاضرابات عن العمل . وقد حدثت اولى الاضرابات ، بمفهومها الحاضر ، في السنـــة ١٢٥٠ . فاوجد هذا الصراع الخفي اخيراً بين اليد العاملة وكبار الملتزمين ، وقد استمر بفعل الخلافات السياسية والرسوم على المواد الغذائية التي فرضها شيوخ البلد النبلاء حتى لا يلزموا برفع الاجور، في السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ، ازمة انتاج ، انحصرت في المـــدن الفلمنكية على كل حال ، وعوّض عنها نمو صناعة الاجواخ في « برابان » « وهينو » وبيكارديا وشمبانيا .

كان انتاج الاجواخ صناعياً ، منذ فجر القرن الثاني عشر ، حافزاً لنشاط التجارة في المنطقة الفلمنكية التي قامت فيها ، منذ ذاك التاريخ ، اسواق اقليمية دورية . فكان لا بـــد من تموين الانوال الناشطة المتزايدة ابداً بالاصواف الاجنبية التي ما لبثت انكلترا ان اصبحت سوقها الاولى؛ كما كان لا بد من الحصول ، في الارياف ، على المواد التلوينية ، الاسليخ ، والفوّة التي تُزرع في نورماندیا بنوع خاص ، والوسمة ، او العظلم ، التي كانت منطقتا اونيس وبيكارديا اسواقهـــا الكبرى ؛ وكان لا بد ايضاً من استيراد حجر الشب ، وهو مادة خام اساسية تستعمل لتقصير الصوف وتثبيت اللون وصقل الاقمشة ، من شواطىء البحر المتوسط الشرقيـــة . وكان لا بد اخيراً من ارسال المنسوجات الى المشترين المنتشرين في انحاء الغرب المسيحي ، وحتى في مناطق اخرى نائية . فجاءت هذه التيارات التجارية المتزايدة القوة تعزز التيارات التي تقاطعت تقليدياً في بحر الشمال ناقلة الملح والنبيذ من فرنسا ، والتوابل الشرقية نحو البلدان الشماليـــة . واستقر مركز كافة هذه المقايضات شيئاً فشيئاً في مرفأ بروج الذي جهز تدريجياً ، بفضل بناء ميناءيه الاماميين ، دامّ (١١٨٠) وايكلوز (اواخر القرن الثالث عشر) ، لاستقبال اكبر السفن حمولة .

ولكن بروج – وهذا ما يميز نشاطها عن نشاط المدن البحرية الايطالية – لم تكن سوى محطة او نقطة لقاء مفتوحة الابواب للتجار الغرباء ؛ فان سكانها ، الذين لم يتعاطوا الملاحـــة وتجهيز المراكب، لم ينصرفوا الى المهن البحرية ، فبقي زمام حركتها التجارية في ايدي الاجانب، اعضاء شركات التجارة الداخلية اولاً ، ثم الايطاليين في اوائل القرن الرابع عشر .

نشأت الشراكة التجارية بين المدن (الهانس) عن اقامة الالمان في شواطىء البلطيك وعن تأسيس المدن الحديثة – وهي المدن التي قامت على مصاب الانهار وخففت الضغط عن المناطق الزراعية الداخلية من شلسفيغ حتى لتونيا . في النصف الثاني من القرن الثاني عشر اتحـد تجار هذه المدن في شراكة تجارية اقامت حوالي السنة ١١٦٠ سوقاً للبضائع المنقـــولة في فيسبي من اعمال جزيرة غوتلاند ، واستوردت من النروج التي مني اقتصادهـــا بالعجز ، حنطة اراضي المزارعين ، وضمنت رقابة صيادي الرنك الوفير في سكانيا ومونتهم بالملح ، واحدثت سوقاً دائمة في نوفغورود ، فاحتكرت من ثم كل التجارة في البلطيك . وفي اوائل القرن الثالث عشر ، افضت الرغبة في تأمين المزيد من الاسواق للمحاصيل الشمالية ، وللاسماك المجففة بنوع خاص ، والرغبة من ثم في تنظيم العلائق بين قطاع تجارة البلطيك وقطاع تجارة بحر الشمال ، عن طريق

اتصال بري بين نهري الراف والالب ، بكبار تجار لوبك الى عقد معاهدة صداقة مع تجار همبورغ؛ثم انضم الى هذا التحالف تجار مدن اخرى، في الشرق وفي الغرب على السواء، كـ« بريمن »في الساحل ، وكولونيا على الرين ؛ وبعد ان قامت هذه الشراكة بين التجار ، في البداية ، باتت ، في منتصف القرن الثالث عشر ، شراكة بين المدن بقيت لوبك والمدن الفندية قلبها النابض . واسست فئة « الاسترلين » اسواقاً ثابتة ممتازة في « بروج » التي غدت محطتهم الرئيسية ، ثم في لندن حيث حصلت هذه الشراكة من الملوك الانكليز ، بين السنة ١٢٦٠ والسنة ١٣١١ ، على وضع موافق جداً . وتعاطى هؤلاء التجار المتشاركون تجارة المواد الثقيلة التي نقلوها وواكبوها في سفن مستديرة تتسع لحمولة كبيرة وتجهز بسطح يفصل طبقاتها . وقام نشاطهم خصوصاً ، في اواخر القرن الثالث عشر ، بامتيار محاصيل الشمال ، الفراء والعسل والرنك وقمح مناطق الاستعمار الجرماني (حوالي السنة ١٢٥٠ استهلك القمح المستورد من براندبورغ في فلاندر وانكلترا) ؛ وامنوا كذلك نقل الصوف الانكليزي الى المدن التي قامت فيها معامل الجوخ ، وتجاوزوا بريطانيا واتجهوا نحو شاطىء فرنسا الاطلسي ، الى جون بورنوف ، واوليرون ولاروشيل، بغية نقل الملح الى مصايد الاسماك في سكانيا والنبيذ الذي يباع في فلاندر وانكلترا والمانيا . فغدا هذا الساحل الاطلسي نقطة تألب تجارة دولية ، كما غدت اعراف اوليرون ، التي دوّنت كتابة في اواخر القرن الثاني عشر ، قانوناً بحرياً دولياً لكافة الربابنة الشماليين . وكانت التجارة على هذا الساحل بسيطة لا تستلزم رؤوس اموال كبيرة بالنسبة للحمولة المنقولة واكتفت بالتقنيات التجارية والمالية البدائية . فاختلفت بذلك عن تجارة الايطاليين الذين زاحموا هؤلاء التجار ، في السنة ١٣٠٠ ، ادارة الاعمال التجارية في بروج ولندن .

رجال الاعمال الايطاليون

ان النشاط الاقتصادي في المركز الجنوبي ـ وهو قد تخطى ايطاليا على كل حال ومال الى دخول مركز بحر الشمال وضمه اليه ـ كان في الحقيقة اشد تعقداً الى حد بعيد . كان مرتكزه الرئيسي التجارة البحرية ايضا التي تمركزت تدريجياً في مرفأين : البندقية القديمة الشهرة ، وجنوى التي لم تخلف وراءها منذ منتصف القرن الثاني عشر ، مرسيليا وبرشلونة فحسب ، بل توصلت اخيراً الى التغلب على منافستها بيزا التي سقطت وافتقرت نهائياً بعد معركة « ميلوريا (١٢٨٤) . اجل كان من شأن الحملات الصليبية ان تعيق تجارة المدن البحرية الايطالية التي اتجهت في البدء نحو الشرق بنوع خاص ؛ ولكن التجار ، في الواقع ، استغلوا الحملات العسكرية المسيحية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا فقدموا لها مساعدة اسطولهم لقاء اسواق وامتيازات اقتصادية : ولنا في عمل البندقيين الذين نكبوا بحملة السنة ١٢٠٤ عن طريقها ، خدمة لمصالحهم واعمالهم ، فقادوا فرسان الغرب الى فتح مدن مسيحية ، زارا اولا ثم القسطنطينية ، خير مثل عن هذا الاستغلال ؛ اضف الى ذلك ان روح الحرب المقدسة ، التي وهنت كثيراً منذ اواخر القرن الثاني عشر على كل حال ، لم تمنعهم ، من جهة ثانية ، من عقد اتفاقات تجارية مع الامراء المسلمين . لذلك ، وبفضل تقدم فن الملاحة

ايضاً ، واستخدام السفن الشراعية الكبيرة والمتينة ، ووضع الخرائط البحرية الاولى قبيل القرن الرابع عشر ، فقد اتسع حقل نشاطهم اتساعاً مستمراً .

فتحت لهم في اوائل القرن الثالث عشر ابواب البحر الاسود الذي كان وقفاً على التجارة البيزنطية . فاتجروا مع شعوب البورات في كافا من اعمال القرم ، وفي تانا في اقصى بحر ازوف . واستفادوا من ان المغول اسسوا دولة تضم آسيا بكليتها حتى شواطىء البحر الاسود ، فاخذوا يحاولون اقامة علائق مباشرة مع الشرق الاقصى : فتوصل بعض الجنويين والبندقيين ، كما رأينا ، الى الهند وبحر الصين واندونيسيا . وتخطى الجنويون جبل طارق نحو الغرب وترددوا على «سالي» وساروا ابعد الى الجنوب بمحاذاة الشواطىء الافريقية وعرضوا انفسهم للمخاطر ، من الجهة الشمالية ، بالدوران حول شبه الجزيرة الايبيرية . وفي اواخر القرن الثالث عشر ، وصلت طرق الملاحة الايطالية ، المارة في الاراضي المسيحية والاسلامية على السواء ، (اذ ان سقوط عكا في السنة ١٢٩١ ، وفقدان المراكز اللاتينية الاخيرة في الارض المقدسة ، لم يعيقا التجارة قط) كافة انحاء العالم المتوسطي ، من كافا وطرابزون حتى بيرا ، ومن القاهرة ودمياط والاسكندرية حتى تونس وبوجي وسبته بواسطة مستعمرات ثابتة .

اما نشاطات الملاحين الجنويين والبندقيين الثانوية ، خلال هذه الحقبة فهي التالية : استيراد محاصيل الشرق من شب وتوابل ومصنوعات بذخية الى اوروبا ، وتصريف بعض انتاج الصناعة الاوروبية ، ولا سيما الجوخ ونسيج الكتان الى الشرق ، ومساحلة بين الموانىء الاسلامية ابتداء من آسيا الصغرى حتى مراكش وهي نشاطات وافرة المكاسب حقاً لانها تناولت بضائع ثمينة جداً ، ولان المبيعات ، في المرافىء المغربية الغنية بالمعدن الاصفر ، كانت تسدد ذهباً دونما صعوبة . ولكنها نشاطات خطرة ايضاً ، لانها تفرض المجازفة برؤوس اموال هامة تكون بالضرورة تحت رحمة البحر والقرصنة . لذلك فان التحسينات التقنية المدخلة ، منذ السنة ١١٥٠ حتى اوائل القرن الرابع عشر ، على العمل التجاري والمالي ، قد استهدفت اول ما استهدفت ، بالاضافة الى تنظيم التصريف ، الحد من هذه الاخطار وتخفيف شدتها . ولكن مثل هذا التقدم لم يتحقق في البندقية اذ ان الجمهورية ، وهي شراكه مصالح واسعة خضعت بكليتها ، منذ الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، لرقابة كبار التجار ، قد اخذت ابدا على عاتقها ومسؤوليتها كل الاخطار الكبرى واحتكرت بناء السفن ونظمت ، في مواعيد محددة ، قوافل تجارية جماعية تواكبها سفن الحماية . ولم يؤمن ضمان رؤوس الاموال الا بالاكثار من عقود الشراكة الفردية : وكانت الغاية من هذه العقود التوفيق بين رجل شاب ونشيط يكلف مواكبة البضاعة بحراً وادارة الاعمال في المناطق النائية ، وبين متمول في سن النضج يقدم القسم الاكبر من رأس المال ويوظف في كل رحلة عدة مبالغ مماثلة بغية موازنة الاخطار . اما جنوى ، وهي مدينة خضعت لنظام اكثر فردية ، فقد عرفت انواع شراكات اعظم كمالاً . فقد كان بناء السفن ، وهو الصناعة الرئيسية في كافة هذه المدن البحرية — لان السفينة ، في القرن الثاني عشر ، تخلق بسرعة ويجب ابدالها بعد مرور خمس او ست سنوات — منوطاً بشركات

يملك كل من اعضائها قسماً من السفينة ويبتون باكثرية الاصوات في امر استخدامها وينتخبون القبطان ويتقاسمون الارباح . وارتكز تمويل المشاريع التجارية بصورة خاصة الى عقود «طلب» لا تفرض على التاجر البحار اي اسهام في رأس المال بل تكلفه استثمار النقود التي يقدمها المتمول. وما لبثت هذه العقود ان تطورت فتركت للشريك العامل مزيداً من الحرية والمبادهة ، فقام في منتصف القرن الثالث عشر ، بين الاسواق الجنوية المختلفة وبين المدينة الأم ، نوع من نظام القروض البحرية المرتفعة الفائدة ، على ان لا تسدد الا اذا حالف التوفيق الرحلة، وهي الاشكال الاولى للضمان ضد الاخطار البحرية . فادت هذه الترظيفات المجزأة ، وهذا التعاون بين مقرضي الاموال ، المنحدرين بمعظمهم ، من ارستوقراطية ملاكي الاراضي ، وبين العملاء الضليعين بامور الملاحة والتجارة ، الى تقدم الاعمال تقدماً مستمراً في المرافىء الايطالية .

وتعاطى بورجوازيو المدن الايطالية الداخلية ، التي تأخرت في الاهتمام باقتصاد المقايضات ، تجارة المسافات الطويلة ايضاً ، باستخدام سفن المدن الساحلية ولا سيما سفن جنوى . ولكنهم الفوا شراكات اطول بقاء من شركات « الطلب » وشركات العقود الفردية وجمعوا رؤوس اموال اعظم شأناً ، فتعاطوا ، الى جانب هذا النشاط ، الصناعة والعمل المصرفي : صناعة الحرير في لوبك والصوف في ميلانو حيث الخامات الآتية من سردينيا وافريقيا الشمالية وانكلترا ، وفي فلورنسا حيث حولت الاجواخ المحلية والفلمنكية الى مصنوعات بذخية من الطراز الاول، وعمل مصرفي في الاوساط اللومباردية والبييمونتية الصغرى ، استي ، وكييري ، ونوفارى التي سلك سكانها منذ القدم طرقات جبال الالب فانتشروا ، صرافين ودائنين وتجاراً ، في كافة انحاء فرنسا الشمالية حيث زاحموا سكان كاهور ، الاختصاصيين الاول في العمليات النقدية ، وفي سينّا التي اخذ رجال الاعمال فيها على عاتقهم منذ عهد مبكر ، جمع مداخيل الكنيسة الرومانية ، وفي بليزانس التي تعاطت نقل البضاعة والصرافة والاقراض بالاتفاق التام مع جنوى والتي جاء منها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، اكبر متمولي باريس . ثم ان فتح ايطاليا الجنوبية على يد « شارل دانجو » (١٢٦٦ ـ ١٢٦٨) ، وقد انفق عليه البورجوازيون التوسكانيون لقاء الحصول على مركز اقتصادي ممتاز في مملكة صقليا، وانهزام السينّيين واللوكيين بعد ذلك، جعلا الحظ يحالف الشركات الفلورنسية ، حوالي السنة ١٣٠٠ ، محالفة مدهشة .

تأسست هذه الشركات حول احدى العائلات بانضمام بعض الدائنين (ويتراوح عددهم بين ٥ و٢٠ على العموم) المتساوين قانوناً ، المنصرفين عن الاسهام في اي مشروع آخر ، المكرسين كل نشاطهم لخدمة الجماعة ، وكانت تتصرف برأس مال هام جداً قوامه مساهمة الشركاء ولا سيما الامانات الخاصة . وكان يعاونها عملاء مأجورون يوزع معظمهم على مختلف الفروع المؤسسة في شتى مراكز الاعمال الرئيسية في ايطاليا والشرق الادنى والغرب الاوروبي (في بروج ولندن وباريس ، وفي افينيون بعد ان امست مقراً للبلاط البابوي) . وزاولت هذه الشركات ، التي عنيت بصناعة الصوف وكافة الاعمال التجارية ، النشاطات المالية بنوع خاص ، اي نقل الاموال

من مكان الى آخر ، والاتجار بالذهب ، مسكوكات او سبائك ، ولا سيما الاقراض بفائدة تتراوح بحسب الاخطار ، بين ٧ و٣٣ ٪ . وما لبثت ان اضطرت ، توطيداً لمركزها في البلدان الاجنبية ، وتلافيا لاخطار الابعاد والحجز المحدقة ابداً بالاجانب ، وسعياً وراء الحماية من عـــداء البلديين المستتر الدائم ، الى تسليف الأمراء اموالا طائلة جداً . ثم انتهى الأمر بها ، بسبب تفوقهـــا التقني ، واحتياطها النقدي الذي اتاح لها تقديم مبالغ طائلة ، في قليل من الوقت ، الى ادارة اموال بعض الدول . وهكذا فقد آل كل اقتصاد مملكة أنجو الايطالية ، في اوائل القرن الرابع عشر ، الى ايدي الصيارفة الفلورنسيين ؛ ولعب هؤلاء دوراً متزايد الاهمية في الآلة الجبائية ، المطردة التسلط ، العاملة في خدمة البابوية ؛ وبين السنة ١٢٨٠ والسنة ١٣١٠ سلفت شركة «فرسكوبالدي» ملك انكلترا اكثر من ١٢٢٠٠٠ ليرة استرلينية ، بينما كان اثنان من عملائها ، «وموش» مستشارين ماليين للملك « فيليب له بيل » . وجلي ان اعمالا تجارية على هذا الاتساع ، متوقفـــة على حسن نوايا الملوك ، ومهددة بالحروب والاضطرابات الشعبية وهبوط اسعار المعادن الثمينة ، لم تكن بمأمن من الاخطار ؛ وبما ان الامانات كانت متوجبة الدفع حين الطلب كان من شأن اقل ارتباك عابر ان يفضي الى انهيار الشركة كلها وافلاس الشركاء ، المسؤولين باجسادهم وممتلكاتهم دونما تحديد . ولذلك لم تكن الافلاسات امراً نادراً في فلورنسا . الا ان هذه الاعمال التي أدارها مركزيا تجار مقيمون في اماكن ثابتة اجمالا ، والتي قامت باطراد على الكتابة والمحاسبة الصحيحة (وهي ما زالت بدائية في الحقيقة على الرغم من استخدام الاعداد العربية والصفر منذ السنة ١٢٦٠ تقريباً) ، لم تتوقف ، في الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، عن التوسع توسعاً مستمراً في كافة انحاء ايطاليا ، وانتهت تدريجياً الى تطويق الاقتصاد الاوروبي بكليته : واذا حافظت الشراكة الهانسية على استقلالها واستمرت في التحكم بتجـــارة البلطيك كلها ، فهم التجار الايطاليون من سيطروا ، بعد السنة ١٣٠٠ ، على معظم تجارة الاصواف الانكليزية — حيث حلوا محل التجار الفلمنكيين — والذين كانت مؤسساتهم في بروج اعظم المؤسسات ازدهاراً .

اسواق شمبانيا الدورية

تم الاتصال ، حتى ذاك العهد ، بين المركز الايطالي ومركز بحر الشمال بواسطة الطرقات البرية التي تجتاز جبال الالب ومملكـــة فرنسا . فقامت منذ القرن الثاني عشر ، في هضاب شمبانيا حيث تتقاطع هذه الطرقات ، اسواق تلاقى فيها التجار الاوروبيون . في القرن الثالث عشر ، غدت هذه الاجتماعات التجارية الستة (واحد في لانيي وآخر في بار — سور — اوب ، واثنان في بروفين ، واثنان في طروا) التي يدوم كل منها ستة اسابيع وتتعاقب في مدار السنـــة ، المركز الحقيقي للتجارة الكبرى ، الذي لم يلزمه تجار الاجواخ في ارتوا وفلاندر ، والايطاليون بائعو الشب والتوابل فحسب ، بل تجار بروفنسا وانكلترا والمانيا وكاتالونيا ايضاً . انطوت كل سوق على مرحلتين متواليتين ، خصصت الاولى منها (دخول ومبيع) للصفقات التجارية ، والثانية (خروج) لتصفية الحسابات بين التجار وقد احكم فيها نقل الاموال من سوق الى سوق ، منذ اوائل القرن الثالث عشر ؛ ولما كانت

كبار رجال الاعمال في العالم المسيحي هم الذين يشتركون في هـــذه الاجتماعات شبه الدائمة ، اختيرت الاسواق الشمبانية تدريجياً مكاناً تدفع فيه معظم الديون وامست مركزاً لمعاملات كثيرة تستهدف التعويض عن الديون . وانتشر كذلك ، بواسطة هذه الاسواق وبفضل الايطاليين ، اللجوء الى الاقرار بالديون الذي اعتبر ، بشكل بدائي ، بمثابة سندات دين تدفع في مكان وبعملة يعينان مسبقاً . فلعبت اسواق شمبانيا ، بفضل هذه « السفتجات » ، وعمليات التعويض بين التجار ، دوراً رئيسياً في توسيع التجارة الغربية الكبرى ، اذ انها ساندت اعمالا مطردة النمو على الرغم من الحاجة الى تغطية نقدية حقيقية .

بلغ نشاطها المتزايد ذروته حوالي السنة ١٢٩٦ . غير اننا نشاهد في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، بروز ظواهر لن تلبث ان تحد من دورها . فهنالك في الدرجـــة الاولى استقرار التجار تدريجياً في مراكز ثابتة ، مما اتاح لهم ، بعد تعـــدد الشركات ذات الفروع واستخدام الوثائق التجارية المكتوبة ، التفاوض في امور الاعمال دون مواجهة الزبن ؛ واقامة الايطاليين في الامكنة الرئيسية من شمالي غربي اوروبا ؛ وانشاء شبكة طرقات جديدة تحايد شمبانيا . فان بناء جسر فوق نهر الروس قبـل السنة ١٢٣٧ قد فتح طريقاً جديـدة وصلت البندقية وميلانو بالفلاندر مروراً بسان غوتار . ثم اتاح تقدم التقنية البحرية ، في السنة ١٢٧٧ ، للسفينة الجنوية الاولى بلوغ بروج مباشرة ، ثم انكلترا في السنة التالية . وهكذا فقـد قامت منذ السنة ١٢٩٨ اتصالات بحرية منظمة ، راقبم في العقد الثاني من القرن الرابـع عشر خط بندقي بموازاة الخط الجنوي ، فتم بذلك تجهيز وسيلة نقل نحو الفلاندر افضل الى حد بعيد من النقل بواسطة العربات . وحدث اخيراً تبدل ذو طابع اعم اسهم في انحطـاط اسواق شمبانيا ، اعني به تقدم الحياة المدنية المطرد . وقد ارتدى هذا التقدم اشكالا كثيرة ـ ففي القرن الثالث عشر اخذت المدن الصغرى تظهر في المناطق الدائرية من العالم المسيحي ، المانيـا وانكلترا وسكندينافيا ، التي كادت تكون ريفية بكليتها قبل ذلك التاريخ ـ ولكنه تميز خصوصاً باحداث المراكز المدنية الكبرى ؛ فغدت هذه الاخيرة اسواقاً ناشطة واماكن دائمة لتصريف البضائع في مناطق مطردة الاتساع ، وقامت ، بالنسبة لكل منطقة ، بدور الاسواق نفسه : وهكـذا اتجه النشاط التجاري في فرنسا الشمالية الى التمركز في باريس ، المدينة العظيمة ، التي ربما بلغ سكانها ٨٠٠٠٠ نسمة في عهد « فيليب له بيل » . وجاء اخيراً التحول الداخلي في الشركات الايطالية الكبرى ، التي باتت اجهزة ذات فروع ، تتفق والظروف الجديـدة الناشئة عن قيام هذه المدن .

النقد

ان التوسع التجاري ، الذي تحقق بسرعة لا سيما في العقود الاخيرة من القرن الثالث عشر ، قد احدث تغييراً في الوسط الاقتصادي واستلزم في الدرجة الاولى وضع نظام جديد للتداول النقدي . فقد ارتفعت كمية المعادن الثمينة المتداولة بفعل تجارة المحاصيل الفائضة التي زاولها الايطاليون في سواحل افريقيا الشمالية وانتاج المهاجرين الالمان الذين استثمروا مناجم فضية جديدة في اوروبا الوسطى ، لاسيما مناجم فريبرغ في ساكس التي اكتشفت حوالي السنـة

١١٧٠ . ولكن هذا الارتفاع في الكمية المعدنية بقي طفيفـــاً ، ولم تتعادل نسبة وسائل الدفع ونسبة الصفقات الا بفضل تزايد تداول النقود الذهبية والفضية وتنظيم وسائل الدفع الاخرى والبيع ديناً . ومع ذلك فقـــد طرأ تحسن ملموس على المسكوكات . ففي الدول التي توطدت سلطتها في كل مكان على السيادات الاقطاعية ، لم يترك اصدار الامراء للنقود الجيدة الثابتة القيمة ـ كالجنيهات الستراينية الانكليزية في اواخر القرن الثاني عشر اوكالهلّر في سواب ـ سوى دور محلي للنقود الصغيرة السوداء غير القانونية ، التي كانت تسك في المصانع الخاصة . اضف الى ذلك ان مقتضيات التجارة الكبرى قد اوجبت ضرب قطع نقدية تفوق ، عياراً ووزناً ، تلك التي راجت اثناء حقبة الانكماش الاقتصادي . فهنالك اولا القطع الفضية «الكبيرة» التي تزن اكثر من غرامين وتعادل ١٢ درهماً ، اي انها تعادل القطعة القديمة المعروفة بـ Sou التي حصر استعمالها في حسابات بيع الجملة ؛ وقد ضرب القطع الفضية الاولى في البندقية في السنة ١١٩٢ ، فاعتمدتها على الفور المدن الايطالية الاخرى ؛ وفي السنـــة ١٢٦٦ اصدر القديس لويس القطع التورية (نسبة الى مدينة تور) الكبيرة ثم القطع الباريسية الكبيرة (وهي اربعة اضعاف القطع التورية) التي انتشرت في هولندا ووادي الرين عن طريق اسواق شمبانيا الدورية ، وغدت اساســـاً لحسابات بيع الجملة في الامارات الفلمنكية . وفي منتصف ١٢٣١ اصدر فردريك الثاني في صقلية القطع الاوغسطية ولكنه لم يضربها الا طلباً للنفوذ وللاستهلاك المحلي فقط ؛ وفي السنة ١٢٥٢ ، اصدرت في جنوى وفلورنسا في آن واحد قطع نقدية ذهبية مرتفعة العيار تزن ٣ غرامات ونصفاً وتساوي عشرين قطعة فضية كبيرة (الجنوي ، الفلورين) وهي القطع التي اصبحت ضرورية لاقتصاد سريع التوسع آنذاك ما كانت النقود البيزنطية او العربية لتفي بحاجاته . ووضعت في التداول قطع مماثلة في ميلانو ، ثم في البندقية ، في السنة ١٢٨٤ . وفي فرنسا وانكلترا اصدر القديس لويس وفيليب له بيل وهنري الثالث ايضا بعض القطع الذهبية ولكن بكميات محدودة ؛ واذا راج المعدن الاصفر في هذه البلدان ، فقد راج بشكله الايطالي بنوع خاص . وان في النجاح الغريب الذي صادفه الفلورين الذهبي ، وهو اساس قوة الشركات المصرفية التوسكانية ، لاوضح رمز لاتساع النشاط الاقتصادي .

ان ارتفاع الاسعار الذي رافق ، منذ القرن الحادي عشر ، نمو المقايضات والتداول النقدي قد تواصل خلال هذه الحقبة : وهكذا ارتفعت الاسعار الزراعية في نورمنديا ، كما ارتفع بدل الارض ، نتيجة لذلك ، بنسبة ٥٠٪ بين السنة ١١٨٠ والسنة ١٢٦٠ . وتميزت هذه الحقبة ، كما سبق ورأينا ، بقيام المدن الكبيرة ، وان في تشييد الكاتدرائيات العظمى لدليلا على الرخاء الذي عم كافة هذه المدن المطردة النمو . وتنظمت آنذاك من جهة ثانية الحرف الصناعية : فالتف ارباب العمل والرفاق والعمال الاختصاصيون في عمل معين ، حول اخوية دينية خيرية ، والفوا شركات عرفت بـ « الحرف » «والفنون» ؛ وقد نظمت هذه التجمعات مزاولة المهنة وحاولت في الدرجة الاولى ، عن طريق رقابة مدة العمل وطرائقه ونوع الانتاج ، الحد من المزاحمة وتأمين المساواة بين ارباب العمل .

تسرب الاقتصادالتجاري في الوقت نفسه تسربا عميقا الى الاوساط الريفية . فقد انفتحت امام المنتجين الريفيين اسواق متزايدة الاتساع دعتهم الى تخصيص قسم من محاصيلهم للبيع . ورافقت هذا الوضع الجديد ، الذي تشهد عليه بعض بنود الاتفاقات حول الاعفاءات ، والذي أجاز للفلاحين اقتناء العبارات وألغى العوائق المقامة في وجه التجارة والاحتكارات السيدية ، واحدث في القرى اسواقاً دائمة ومعارض موسمية للحيوانات ، تبدلات عميقة في نظام المشاريع الاستثمارية الريفية . فنمت زراعة الكرمة على جنبات طرقات التصدير ، وانتشرت من ثم كروم واسعة في مناطق فرنسا الاطلسية اتصلت اتصالاً مباشراً بمرافىء التصدير ، اوليرون ولاروشيل وبوردو . وانتشرت كذلك زراعة النباتات الصباغية في شمالي فرنسا وفي المنطقة التولوزية وفي سهل الو . ونمت تربية المواشي لتموين المدن الكبرى باللحوم ؛ فمنذ القرن الثالث عشر امن اللحامون الباريسيون حاجتهم من « بريا » ونورمنديا . وقلبت تجارة الصوف اقتصاد الارياف الانكليزية ظهراً على عقب ، اذ ان الفلاحين والاسياد اخذوا يسعون وراء اقتناء المزيد من المواشي لتلبية طلب المصدرين . ويجب هنا ان نذكر واقعين يمتان بصلة الى هذا التبدل في ذهنية المنتجين الذين لم يهتموا آنذاك للعيش من ارضهم فحسب بل لتحسين انتاج استثمارهم ايضا رغبة منهم في الكسب التجاري . فهناك ، من جهة ، تعدد الاشكال الجديدة لاستئجار الاراضي ، الذي لم يعد دائما بل حدد باجل قد لا يتجاوز سنوات معدودات احيانا : فقد انتشرت عقود الضمان وعقود المزارعة انتشاراً سريعا في فرنسا وايطاليا ، مما اتاح سهولة استبدال المزارعين المهملين بالمزارعين الاكفاء ، والمطالبة باعتماد افضل الطرائق انتاجا ، والتوفيق دوريا بين دخل الارض وانتاجها الحقيقي . ومن جهة اخرى وضعت المؤلفات الزراعية ، كالبحث في « زراعة الكرمة وتربيتها » لـ « والتر دي هنلي » او بحث « بيير كريسنتيوس » البولوني (نسبة لـ *Bologne*) في الموضوع نفسه ، التي كان نجاحها ، في كافة انحاء اوروبا ، عظيما جدا وراهنا . يضاف الى ذلك ان انتشار الدين في الارياف ، حيث غالباً ما ينص العقد على ان الحبوب هي مادة قرض الاستهلاك حق تفرض عليها فائدة عوهة (اذ ان اجل الوفاء يحدد في موعد ارتفاع الاسعار) ، وان عقود الطلب التي يسلم المتمول بموجبها مواشيه لاحد المربين بغية مقاسمته النتاج القطيع ، هما ايضاً من بوادر هذه الذهنية التجارية التي تسربت الى عالم الحقول .

وبالمت النظر ان أسياد الارض قد أفادوا احياناً اكثر من الفلاحين من هذا التوسع التدريجي في آفاق الاستثمار الزراعي ومن هذا الارتفاع في نسبة النقد المتداول ، وذلك بمضاعفة الجهود في الأعمال الزراعية وبفرض المزيد من الموجبات . فكانت هذه اولاً حال البورجوازيين الذين وظفوا اموالهم في السيادات العقارية بغية استثمارها كما تستثمر في الاعمال التجارية ؛ فقد طبقوا بشدة الصيغ الجديدة للاستئجار المؤقت ؛ وحدث بسرعة في ضواحي المدن التوسكانية ان ثقلت وطأة شروط المزارعة في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر لمصلحة سكان المدن . وفي الوقت نفسه ، تميز تقدم المقايضات ، في الارياف الانكليزية ، بتعزز وضع السيد وبنمو

الاستثمار المباشر: فقد توسع باستمرار، وعلى حساب اراضي المزارعة ، احتياطي الارض السيدية التي اطرد تحسن استثمارها بفعل اتقان طريقة استراحة الاراضي سنة كل ثلاث سنوات وبزراعة القرنيات في الاراضي البائرة ايضاً؛ وقد ضوعفت في الوقت نفسه الخدمات المفروضة على المزارعين.

الا ان صغار المستثمرين كانوا ، احياناً اخرى ، المستفيدين الاول من الاتجـــاه الاقتصادي الجديد . فان نبـــلاء فرنسا بنوع خاص ، الذين اعتبروا الاهتمام للكسب متعارضاً وشرفهم واحتقروا كل نشاط تجاري ، قد استفادوا من انتشار الاقتصاد النقدي كي يتحرروا من استثمار أراضيهم استثماراً مباشراً . ودون ان يصبحوا يوماً اصحاب دخول من اراضيهم ، انقصوا مساحة احتياطيهم وأجّروا منه قطعاً كبرى رؤساءَ الأعمال القدماء في منزلهم ، وآثروا استيفاء الأتاوات قطعاً نقدية ، فاستبدلوا بالنقد الضرائب العينية القديمة ، وذلك بالاتفاق مع المزارعين الذين لمسوا الفائدة من تصريف فائض حصائدهم بأنفسهم في الأسواق المختلفة . وهكذا فان تصريف محاصيل الارض تجارياً قد تحقق ، في معظمه ، بفضل الفلاحـين أنفسهم ولمصلحتهم ، ناهيك عن ان وضعهم في السيادة العقارية قد تحسن تحسناً مستمراً. فان انقاص الاحتياطي قد أدى بالسيد الى التخلي عن معظم اعمال التسخير التي ما زال يفرضها لقاء تعويضات مالية؛ ولم يطالب مزارعيه قط ، بعد ذلك ، الا بالدراهم ؛ ولكن الارتفاع المستمر في الاسعار قـد خفض قيمة هذه القطع ، فخفض من ثم اعباء الفلاحين : فقد غدا كراء معظم الاراضي ، في اواخر القرن الثالث عشر زهيداً جداً نسبياً . واضطر أسياد كثيرون اخيراً ، للتعويض الى حين عن الهبوط التدريجي في قيمه مداخيلهم وللتخلص من ضائقة عابرة، الى ان يبيعوا من اتباعهم بعض الحقوق التي كانوا يمارسونها حيالهم : فحصلت الجمعيات القروية، المتزايدة باطراد، بموجب اتفاقية اعفاء، على الغاء أكثر الموجبات ازعاجاً .

التبدلات الاجتماعية

حوّر التطور الاقتصادي من ثم العلائق بين فئات المجتمع المختلفة التي كانت قد تحددت في مرحلة الانكماش على الارض. كانت هذه التبدلات الاجتماعية معقدة في الواقع، وكانت أجلى نتائجها ايجاد المزيد من الفوارق بين الطبقات وتبعيد المسافات – كما درج التعبير في ايطاليا آنذاك – بـــين الجسام والهزلى . وآلت على العموم ، كذلك ، الى ازالة التوازن بين الطبقات القانونية : فقد تحسن وضع العديد من غير النبلاء بينما ظهرت بوادر الانحطاط في طبقة الاشراف .

اما داخل طبقة الفلاحين ، حيث كانت الاوضاع الاجتماعية ، في اوائل القرن الثالث عشر، آخذة في التناسق والتشابه ، فقد ادخل انتشار الاقتصاد النقدي مزيداً من الفوارق . واجـه بعض الريفيين حركة المقايضات المتزايدة على حين غرة ولم يُهيأوا للسعي وراء المكسب وأرغموا على مضاعفة الانفاق ، فتأخروا مادياً واضطروا ، لسد عجزهم ، الى الاستقراض ، ورهن قسم من ارضهم ، وبيع بعض دخول ملكهم ، وتحويل ملكهم الخاص احياناً ، لقاء مساعدة ما ،

الى ارض تابعة لاقطاعة ، والقبول ، في سبيل تأمين المعيشة ، بأوضاع متزايـــدة الشدة . وما لبثت هذه الطبقة المنحطة المعرضة للاستثمار من قبل الاغنياء ، ان رأت بأم العين اقرار تدنيها، حين أقدم رجال القانون المحترفون ، خـــلال القرن الثالث عشر ، وبتأثير من معرفتهم للحق الروماني ، على تطبيق مفردات العبودية الواردة في هذا الحق على أفرادها ، باعثين حياتهم رقاً جديداً يختلف بعض الاختلاف عن الرق القديم ويتميز بأعباء نوعية وبالخضوع لتعسف السيد . كان هؤلاء الارقاء الفدّادون قليلي العدد في فرنسا ، ولكنهم ألفوا في انكلترا ، بفعل اشتداد النظام الاقطاعي ، سواد سكان الارياف . وانما يبدو بصورة عامة ، باستثناء الارياف الانكليزية وضواحي بعض المدن الايطاليـــة الكبرى ، ان وضع جمهور الفلاحين قد تحسن تحسناً مادياً محسوساً ، وعرف في النصف الثـــاني من القرن الثالث عشر ، على الرغم من زيادة الحقوق السيدية الاميرية وتكاثر ضرائب الاقتطاع والمساعدات النقدية التي غالباً ما فتحت الثغرات في ادخار الارقاء، فترة يسار استثنائية تمادت ذكراها لدى الجماهير وأسهمت في فرنسا، كما نرجح، في اعلاء نفوذ القديس لويس واطالة التحدث بملكه . وحدث اخيراً ان ارتقت نخبة ضئيلة من الريفيين سلتم الثروات . والدليل على هذا الارتقاء ، الذي اعتبره الفرسان مشيناً ، ان موضوع الفلاح الحديث النعمة ، الهزأة والغير الجدير بالثروة ، قد انتشر فجأة في ادب اوائل القرن الثالث عشر . فنادرة في الحقيقة هي القرى التي لم يتوصل احد فلاحيها، بفضل مهارته في بيع انتاج عمله، الى ادخار رأس مال صغير وتحصيل بعض الدخول من اراضي جيرانه وابتياع بعض الاراضي من الفرسان المفتقرين ، وبالتالي الى تكوين سيادة صغرى ، وفرض سيطرة اقتصاديـة راجحة على القرية ، والعيش عيشة النبلاء دون عمل ؛ وتزوج العديد من هؤلاء الحديثي النعمة من بنات الاشراف الريفيين وتوفق البعض منهم ، بعد السنة ١٢٥٠ ، الى الفوز بلقب أشراف .

جليّ ان الارتقاء الاقتصادي كان أكثر تقدماً الى حد بعيد في المدن حيث يمكن كسب المال واستثماره بمزيد من السهولة . ولكنه لم يكن شاملاً هنا ايضاً ، وأدى التطور الى اخضاع شطر من سكان المدن للشطر الآخر . ولدينا الكثير من الامثلة ، في الاوساط التي مرّت بها الطرقات التجارية الرئيسية في منتصف القرن الثاني عشر، عن تجار جمعوا ثروات طائلة. وأخذ الكثيرون منهم منذ ذلك الوقت اموالهم المنقولة الى ممتلكات غير منقولة : فأعادوا بناء مسكنهم بالحجر واسترهنوا العقارات واشتروا الاعشار والدخول والسيادات في ضواحي المدن . فاستقرت من ثمّ الثروات وتكونت شيئاً فشيئاً في كافة المدن طبقة محدودة مسيطرة استمر افرادها في جمع الثروات عن طريق مزاولة الاعمال ، متسلحين ضد تقلبات التجارة بثروتهم العقارية . ولما كانوا يتعاطون المقادة والصيرفة ، فقد احتفظوا لانفسهم ، بفضل اموالهم النقدية ، باوفر النشاطات كسبا وبتجارة المسافات الطويلة والاتجار بالنقد . وقد سيطرت شركاتهم المهنية سيطرة كلية على « حرف » الصناعيين والسماسرة الصغيرة ؛ ولما كانت هــــذه التجمعات تؤلف هيكل مجتمع المدن وتقوم ، كما هو طبيعي ، بادارة الشؤون العامة ، فقد راقب اوسع البورجوازيين ثروة ،

بواسطة اقوى الشركات المهنية ، ادارة الشؤون البلدية ، وجمعوا مراكز القضاء الرئيسية في المدن الداخلية في نطاق تكتلهم . وهكذا فقد فرضت طبقة كبار تجار الجوخ الاشراف في مـــدن فلاندر الصناعية ، لمصلحتها ، الانظمة على المهن الدنيا ، التي يزاولها عمال الصوف ؛ وهكذا ايضاً اديرت شؤون التكتل في فلورنسا من قبل الفنون « الكبرى » الاثني عشر ، وقد احتل المركز الاول بينها كبار رجال الاعمال ، «تجار كاليالا» . فتوصلت فئة البورجوازيين الاثرياء، بقبضها على زمام المؤسسات المدنية ، الذي اتاح لها ان تنظم حياة المدينة الاقتصادية خير تنظيم لمصلحتها وتدير اموالها العامة ، الى ارساخ تفوقها ارساخا نهائيا ، فاتسعت الهوة التي تفصلها عن الطبقات المتوسطة . ومالت طبقة الاشراف طبعا الى ايصاد ابوابها في وجه حديثي النعمة ، وهذه ذهنية طبقية يعبر عنها اقفال المجلس البندقي الكبير في السنة ١٢٩٦ مثلا . وقد فاز بعض اعضائها بالنبل عن طريق القروسية : ففي فلورنسا اختلطت الارستوقراطيـــة المنحدرة من اصل غير نبيل ، خلال القرن الثالث عشر ، بانسال عائلات الفرسان العريقة ؛ ولم يكن ارتقاء النخبة البورجوازية هذا الى مرتبة الاشراف وقفاً على المدن الكبرى دون غيرها . ولكن اولئك الذين لم يتسلموا اسلحة الفرسان ، وامتلكوا مع ذلك الاراضي الواسعة والقصور ومارسوا حق التصرف وجمعوا بالاضافة الى ذلك كميات ضخمة من الذهب والفضة ، قد احتلوا في مجتمع اواخر القرن الثالث عشر مركزا ارفع مرتبة من مركز معظم الفرسان .

اذا ما استثنينا انكلترا حيث عرف الاسياد كيف يستثمرون اقطاعاتهم بحذاقة ، واراضي الاستعمار الزراعي في المانيا الشرقيـــة حيث تألفت طبقة قوية هي طبقة الاشراف القرويين ، وايطاليا وبعض مدن فرنسا الجنوبية حيث اقام الاشراف برضاهم في المدينة واسهموا في النشاط التجاري ، رأينا ان التطور الاقتصادي قـــد الحق الضرر بالاشراف العريقين . فقد تعددت مناسبات الانفاق امام الفارس ، الذي لا يأتي عملا ، والذي يعتبر التبذير فضيلة كبرى . ولم يعد في القرن الثالث عشر ليرتضي بمعيشة اجداده الريفية القانعة ؛ بل ثابر على التردد على الجمعيات والبلاطات ، ولم يكن جائزاً له ، من باب اللياقة ، الدخول اليها اذا لم يرتد ملابس « شريفة » الالوان يبتاعها من التجار ؛ وما زالت العـــدة العسكرية تتعقد يوماً بعد يوم ، واذا هي أمست أكثر فعالية ، فقد أمست أكثر غلاء ايضاً . وتكامل كذلك فن التحصين ومهاجمة الحصون ؛ فتوجب تحويل البرج الخشبي والترابي القديم الى جهاز مركّب من الاسوار الحجرية ؛ وغالباً ما اضطر حكام الحصون آنذاك الى تجنيد المتطوعين المحترفين المأجورين – انتشر الارتزاق العسكري في الغرب في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر ، وبعـــد مرور مئة سنة غدت الجيوش كلها مأجورة – كما اخذ صغار الاشراف ايضاً يحفرون الخنادق حول مزارعهم ويشيدون بجانبهـــا الحصون ويحولونها الى بيت محصّن . وجليّ ان كل ذلك تطلب مالا وفيراً ، لا سيما وان الأسعار كلها كانت آخذة بالارتفاع . وانتشر استعمال الدراهم من جهة ثانية في كل مكان ؛ وكفوا عـن اعطاء البنات نصيبهن من الارث العقاري مبدلينه ببائنة نقدية ؛ وأخذوا يهبون الكنائس قليلاً

من الارض ومزيداً من النقد ؛ وطلبوا في وصياتهم احياء الاعيـــاد السنوية واقامة القداديس وتشييد الكنائس بفرضهم على املاكهم دخولاً نقدية دائمة تضخمت قيمتها جيلاً بعد جيل ورتبت أعباء ثقيلة على الورثة . اجل لقد ساعد امتلاك الاعشار والاستمرار في استثمار احتياطي ضيق استثماراً مباشراً على ايدي الخدام المنزليين على تأمين معيشة العائلة وتلافي النفقات الغذائيـــة ؛ ولكن الفارس يفتقر الى المال لكافة الحاجات الاخرى . فعـلى الرغم من ان استبدال الأتاوات وأعمال التسخير بضرائب نقـــدية واتساع الحقوق الاميرية السيدية — فجميع الأشراف طالبوا أتباعهم آنذاك بالمساعدة المالية ، وأخضع الفدّادون الجدد في فرنسا للاقتطاع التعسفي — قـد زادا موارد الاشراف النقدية ، فان هذه الموارد باتت غير كافية واختل باستمرار ، في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، ميزان حسابات الفرسان . فالجيء الاشراف ، للمحافظـــة على مستوى معيشتهم ، الى الاستدانة ـ لا من انسبائهم واصدقائهم ، كما فعلت الاجيال السالفة ، وكلهم يتخبطون في الضائقة نفسها ـ بل من المؤسسات الدينية المزدهرة ، ومن البورجوازيين و « لومبارديي » المدن والامراء . ثم اخذوا ، بعد استنزاف المال المستدان ، يبيعون اراضيهم قطعة قطعة : فكان هناك بيع الخضوع (لقاء مال مسلف او تسديداً لدين) وبيع الحقوق او الاراضي النبيلة التي كثيرا ما اشتراها فلاحون اثرياء او متمولون بورجوازيون يبحثون عن توظيف مضمون لاموالهم .

كان من شأن هذا الاضطراب الاقتصادي وهذا الافتقار التدريجي ـ الذي اعتبره الفرسان ضيقا عابراً لن يلبثوا ان يتغلبوا عليه ـ وهذا الهبوط الذي يسترعي الانتباه اليه ارتقاء بعض الطبقات من غير النبلاء ، ايجاد ردة فعل دفاعية في اوساط الاشراف . فتخلوا تدريجيا ، بغية حماية الاملاك العقارية ، عن العادة القديمة القاضيـــة باجراء قسمة متساوية بين ورثة من درجة واحدة ، ودرج العرف على ابقاء النصيب الاكبر للبكر ، او ادخال كافة اخوته الحياة الرهبانية . وتمسك الاشراف في الوقت نفسه بعد ان فقدوا تفوقهم عملياً ، بامتيازاتهم الشرفية وبالشارات الخارجية لتميزهم الطبيعي . واحتفظت لهم انظمة السلم الالمانية ، في اواخر القرن الثاني عشر وخلال القرن الثالث عشر ، ببعض الملبوسات وبعض الالوان المعينة ، وحظرت حمل الاسلحة على غير الاشراف ، وقد حاولت المجموعات الفرنسية ، التي تبحث في الاعراف ، اظهار استخدام المؤسسات الاقطاعية وكأنه وقف على الاشراف ، واعارت اعتبار النبلاء اهمية اعظم ـ على الاقل ـ من اعتبار العامة . اما نتيجة تفاقم الروح الطبقية هـــذه ، فهي ان الفرنسيين نظروا الى النبل في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، وكأنه صفة مميزة من صفات الرسالة العسكرية ، اي الفروسية ، ومن ثم الثروة ، تنتقل بالوراثة طبعا : فبرزت نعوت جديدة (« الفارس » في الشمال و « الشريف الشاب » في الجنوب) تظهر تفوق انسال الفرسان اجتماعيا الذين لم يتوفقوا الى حمل الاسلحة على الرغم من بلوغهم السن القانونية لذلك . اجل ان اثبات الطابع الوراثي للنبل قد حصره ضمن حدود معينة ، ولكنه لم يمنع الاثرياء الجدد من اجتيازها :

قلة اجتازتها بالكذب بعد ان عاش افرادها حياة الاشراف مدة طويلة كافية لانساء اصلهم ، وكثرة بالحصول من الامير على تعديل القانون لمصلحة افرادهـا والاجازة لهم بالانخراط في صفوف الفرسان المسلحين .

ان هذه التبدلات الاجتماعية كلها : اثراء النخبة من غير الاشراف الذين كانوا بحاجـة الى عضد السلطة لتثبيت ارتقائهم ، ولا سيما افتقار النبلاء الذي عرضهم لكل اذى وارغمهم عـلى بيع حقوقهم وخدماتهم من العظماء ، اتاحت لبعض الامراء ، الذين عرفوا ، بفضـــل مركزهم المؤاتي، بالنسبة للتيارات النقدية كيف يستغلونها لمصلحتهم ، توسيع بسط سيطرتهم . وكانت هذه ، احياناً، حال بعض اصحاب القصور الذين تحكمت حصونهم بالطرقات الكبرى او بسوق تجارية أو بمدينة مزدهرة ، والذين جنوا مكاسب هامة من الضرائب التي فرضوهـــا على مرور البضاعة وبيعها،واستطاعوا ارساء دعائم امارتهم الصغيرة. ولكن الحركة امنت الربح الوفير، في الدرجة الاولى ، للملوك ولورثة المناصب الكبرى في القرون الوسطى الأولى الذين مارسوا سلطتهم الجبائية على مناطق فسيحة وتمتعوا من جهة ثانية بوجاهة كافية ، واعتمدوا وسائل عمل ذات فعالية كافية أيضاً للحصول من المتمولين على قروض بشروط حسنة جداً .

٢ ـ رسوخ أركان الملكيات

يتضح من ثم ان انتشار الاقتصاد النقدي، يضاف اليه اطراد سهولة العلائق بين البشر وبروز الأفكار الجديدة التي بثها التعمق في دراسة الحق الروماني ، كان احد الاسباب الرئيسية للتبدل الذي نشاهده، بين منتصف القرن الثاني عشر واوائل القرن الرابع عشر، في نظام الغرب السياسي: فقد حلت محل تلك الكتلة الواحدة الكبرى ، التي لم تتميز عن المسيحية اللاتينية ، والتي تألفت من خلايا صغيرة مستقلة كثيرة العدد ، هي السيادات ، ملكيات كبرى متمـــيزة ، هي الصور الاولى لدول اوروبا المعاصرة . بيد ان هذا التبدل قـد ارتدى ، بحسب المناطق ، مظاهر على بعض التباين .

الملكية الفرنسية

ليس من ريب في ان تجمع السلطات قد تم بمزيد من الاعتدال والاستمرار في مملكة فرنسا على الرغم من انها قاست أكثر من غيرها من الانحلال الاقطاعي . فقد كان فيها للملكية مركز مرموق منذ منتصف القرن الثاني عشر. وحدث خلال ستة اجيال متعاقبة ان الملوك لم يرزقوا سوى ابن واحد ، فساعدت هذه المصادفة ، في الدرجة الاولى ، على ارساء مبدأ الوراثة في الملك تدريجياً ؛ وبفضل هذه المصادفة ايضاً ارتبطت الثروة العقارية العائدة للسلالة الكابيتية ارتباطاً ممتنع الانفصال بالتاج ، فأعطته مرتكزاً سيدياً ثابتاً ، على ما يتسم به من تواضع . فمنذ السنة ١٠٨٠ تقريباً ، توصل الملوك ، الذين أحاطوا هذه الاملاك بكل عنايتهم ، الى تخليتها سليمة ، وموسعة احياناً ، الى وريثهم ، وسعوا من جهة ثانيـــة ،

داخل حدودها ، الى اخضاع الأسياد العلمانيين لسلطتهم . وحوالي السنة ١١٦٠ ، حين أخذت القوى الاقتصادية المتفاعلة تشجع ، في كافة أنحاء فرنسا، قيام سيادات اقليمية ليست دون املاك الكابيتين اتساعاً ووحدة ، صمم هؤلاء على تخطي حدود الـ «ايل دي فرانس» . فأخذت السلطة الملكية منذ ذاك الحين ، وطوال قرن ونيف ، تتمكن وتتقوى ، ولكنها لم تتغير في جوهرها ولم تفقد الطابع الخاص الذي طبعت به في ظل النظام الاقطاعي .

كان ملك فرنسا، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً عقارياً وسيداً حاكماً مطلق التصرف. وقد ألفت هذه الامتيازات الخاصة المعقدة ، التي يستحيل حصرها في اطار واضح الحدود ، ما اطلق عليه بالضبط اسم « التراث » . فاستفاد لويس السابع وفيليب اوغست ولويس الثامن والقديس لويس من كل سانحة لتوسيع هذه السيادة : الفتح العسكري ، او الصفقات الحقيرة ، او التطاولات التي أضفى عليها العرف ، شيئاً فشيئاً ، صبغة قانونية ، او سياسة المصاهرات ، او حماية المؤسسات الدينية مقابل الاشتراك مناصفة في ممتلكاتها ؛ وحققوا هذا التوسع احياناً بضم مساحات كبرى الى تراثهم (كضم دوقيـــة نورمنديا في السنة ١٢٠٤ ، وقد كانت أهم من الامارة الكابيتية الاولى) او بمكاسب صغيرة متعاقبة كثيرة ليست دون الضم فعالية ،وان حصلت في الخفاء او بتقدم تدريجي بطيء . وقد سعى الملوك في الحقيقة ، من وراء هذه المكاسب ، الى تجميع الكفاف من الاراضي لتأمين المال اللازم لانعاماتهم والاقطاعات لأبنائهم غير الابكار ، فلم يهتموا لاقتناء سيادة شخصية واسعة الاطراف اهتمامهم لمستقبل أنسالهم ولضمان اخلاص اصحاب الأخاذات ؛ وقد اعترفوا في قرارة أنفسهم بأن املاك الملـــك ، المعدة لتأمين معيشة البلاط والمحاطة بامارات تابعة ، لا يجب ان تسير في توسع لا نهاية له . ومع ذلك فان التراث الملكي ، بفضل المصادفات السلالية ومبادهات العملاء الملكيين الجادّة ، قد شمل ، طوال السنة ١٢٧٥ ، القسم الاكبر من المملكة ، فغدا الناس لا يميزون بين املاك الملـك والسيادات العلمانية الصغيرة الداخلة فيها وممتلكات الكنائس الملكية ، ويعاملونها المعاملة نفسها . ولم ينج من التوسع الكابيتي آنذاك سوى أربع امارات قامت عند حدود المملكة وتوطدت دعائمها بعد تطور داخلي شبيه بذاك الذي أتاح توسع سيادة الملك وألفت كيانات ذات طابع خاص تميزت عن فرنسا الملكية بلغتها احياناً وباعرافها وذهنيتها ابداً : فلاندر ، غويان ، بورغونيا ، بريتانيا .

وكان ملك فرنسا من جهة ثانية ، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً اقطاعياً ، وقد أعطاه مجموع الاراضي الخاضعة له حق الاستفادة من خدمات شخصية يؤديهـــا له بعض اصحاب الاقطاعات . فسعى الكابيتيون كذلـــك وراء استغلال هذا الوضع ، واستخدام التفاني الذي يفرضه الاقطاع — والذي اعتبر في ولايـــة القديس لويس نفسها خير وسيلة مضمونة لاستمالة الاشراف — وتنظيم العلائق الاقطاعية داخل المملكة بحيث يتألف منها شبه هرم يكون التاج رأسه الوحيد ، على ان يشمل كل الاراضي النبيلة التي لم تدخل بعد في الاراضي الملكية . ولعـل هذا الهدف تراءى لهم بمزيد من الوضوح بعد ضم نورمنديا التي ارتدت الانظمة الاقطاعية فيهـا

طابعاً خاصاً من التنظيم والوحدة . اجل ، لم يتوفقوا قط الى تحقيق هدفهم تحقيقاً كاملاً . ولكن فرنسا ، حيث كانت معظم اراضي الفرسان أملاكاً خاصة بحتة ، وحيث الف الاتباع جماعات محلية صغيرة غير وثيقة الارتباط ، قد سارعت ، بفعل عملهم وعمل اسياد الامارات الاقليمية الموازي له ، الى اتباع النظام الاقطاعي ، فخضعت الطبقة العليا كلها لنظام من العلائق الشخصية والعقارية بات متلاحماً ومتجهاً بكليته نحو شخص الملك . فأقرّ في الدرجة الاولى المبدأ القائل بأن الملك لا يقدم خضوعه لأحد ؛ ثم حصل الملك تدريجياً ، اما عنوة ، بعد حملة تأديبية ضد سيد سجن ألحق الضرر بكنيسة يحميها الملك ، واما بشراء امتيازات احد الاشراف المدنيين في هذا القصر من قصوره او تلك الارض من اراضيه ، على خضوع كافة الاشخاص البارزين في المملكة الذين لم يخضعوا له بعد . وقد سعى بصورة خاصة الى ان يدخل في تراثه الحصون وأعظم الحقوق مرتبة وأوفرها كسباً ، ودعا مرؤوسيه المباشرين من رجال الاقطاع الى ان يستميلوا اليهم بهذه الطريقة اشراف الجوار من المرتبة الثانية . وحرص الملك وعملاؤه اخيراً على الاستفادة من تفوق السيادة ؛ ولما كانت هذه الاقطاعات جديرة بأن « تخدم » ، فقد غدت الموجبات الاقطاعية آنذاك موضوعية وملزمة مع انها لم تزل ، في معظم المقاطعات ، مستبهمة ومتقلبة : خدمة السلاح وخدمة البلاط ، والمساعدة المالية ايضاً ، وقد اوضحها العرف في بعض الظروف ، ايضاحاً تاماً ؛ وحق الاقطاع المحدد ، كلما حمل اللقب شخص جديد ؛ وخصوصاً قدرة مساعدي الملك على التدخل في السيادات المستقلة ، واستخدام الحصون « المنتجة » ، والنظر في دعاوى الدرجة الثانية والتلاعب بروح العرف الاقطاعي لاكتداد صاحب الاقطاعة . فأثبت النظام الاقطاعي ، بطبقه امير يقوي مركزه استمرار توسع املاكه ، بينما اضعفت الصعوبات المالية العدد الاكبر من الاشراف ، انه اداة ذات فعالية نادرة . وقد استخدمه فيليب اوغست حتى ينتزع من « جان سان تير » تابعه خير ممتلكاته في فرنسا ؛ وحين ضحى القديس لويس بشطر من فتوحاته الحديثة ، بغية حمل هنري الثالث ملك انكلترا على الاعتراف به سيداً عليه بالنظر لممتلكاته في اليابسة ، كان مقتنعاً بأنه انما يقوم بصفقة رابحة ؛ وان في المصير الذي انتهت اليه دوقية غويان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، التي انكمشت رقعتها باستمرار بفعل مصادرات متعاقبة تليها ردود ناقصة ، انه كان مصيباً في اعتقاده .

أفضى توسع سلطة ملك فرنسا الخاصة ، السيدية والاقطاعية ، الى توسع اجهزة الادارة . كانت هذه الاخيرة ، في القرن الثاني عشر ، بدائية جداً : فالملك ، شأن أي صاحب قصر آخر ، يلجأ ، لمساعدته على ادارة ثروته العقارية واعمال حكمه ، الى اهل بيته او « نزله » ، أي انسبائه وخدامه وبطانته ؛ وان هذا الجمهور الصغير ، الذي انضم اليه ، بين حين وآخر ، اصحاب الاقطاعات الآتون لتأدية واجب المشورة ، هو ما الف « بلاط » الملك . واستخدم الملك اخيراً ، بغية المحافظة على مركزه في السيادات التي تؤلف تراثه وممارسة حقوقه فيها وجمع دخوله منها ، مأمورين من اصل وضيع ، هم الممثلون ، الذين يلتزمون وظيفتهم التزاماً بغية تبسيط عملية جمع

المال . وعندما توسع التراث في اوائل القرن الثالث عشر ، بات لزاماً على الملك تعيين ممثلين اضافيين "أكثر امانة وارفع نسباً ، هم القضاة الذين اختار العدد الاكبر منهم بين صغار فرسان حاشيته . وتميزت في الوقت نفسه اجهزة الادارة المركزية . فبينما تنظمت شتى ادارات «نزل» الملك ، شيئاً فشيئاً ، وفي تواريخ يصعب تحديدها لأن قيامهـا كان تلقائياً دون ان تقره قوانين نظامية قبل القرن الرابع عشر، تفرعت عن البلاط ادارات ذات اختصاص ما لبثت ، تدريجياً، ان أصبحت مستقلة ودائمة : ادارة أسندت اليها شؤون القضاء وعرفت بـ « محكمة البرلمان » ، وأخرى انيطت بها رقابة الأموال الملكية ، وعرفت بـ « غرفة الحسابات » . غير ان الموظفين، الذين دخلوا في خدمة الكابيتيين ، قد حفظوا من اصلهم الوضيع الخاص ميزتـين أساسيتين . فهناك اولاً وحدة ذهنيتهم وثقافتهم : فلم يقم قط أي تمييز او تعارض بين «النزل» ،منبت الخدام، والبلاط ، وبين حاشية الملك واجهزة الحكومة . وهنالك خصوصاً الانقياد : فبعد هجـوع مصالح البلاط الكبرى منذ اوائل القرن الثالث عشر ، بات كل رجال الملـك وضيعي الاصل واستمدوا قوتهم من قوة الملك وحدها وبرهنوا عن انصياع تام وعن تفـان كلي في الدفاع عن الامتيازات الكابيتية . وهكذا فان سيطرة ملك فرنسا تعززت تعززاً عظيماً حوالي السنة ١٢٧٥ بفعل حركة يعود الفضل الاكبر في بعثها الى هؤلاء المساعدين . اجل ربما تعاظمت هذه السلطة بفضل المركز الفكري الذي احتلته باريس ، مدينة المدارس ، وقـد غدت عاصمة الكابيتيين الحقيقية الدائمة ، ولكنها تعززت من جهة اخرى بالاشعاع الروحي القوي المنبثق عن الملك السابق ، القديس لويس ، الذي اهتم اكثر من اسلافه بالعدل ، اي بالفضيلة الملكيـة بالذات ، والذي كان اول ملك في سلالته وضع انظمة تشمل المملكة كلّها في المجال الاخلاقي الصرف . وعلى الرغم من ذلك فما زالت سيطرةَ سيد اقطاعي توسعت سلطته الخاصـة حتى شملت معظم انحاء المملكة .

الا ان السلطة الملكية ، التي ما زالت تتوطد باستمرار ، اخذت في الربع الاول من القرن الثالث عشر ، تتطور في جوهرها ، وذلك بفعل تأثير مزدوج . هناك اولا تأثير فكرة السلطة العامة التي بعثت حية في اعقاب الدراسات التي تناولت الحق الروماني منذ اوائل القرن . فان هذا المفهوم الجديد للسيادة ، الوثيق الصلة بالاقتناع بأن السلطان ، المستخدم « للخير العام » ، لا يمكن ان يكون ملكاً خاصاً، قد انتشر خصوصاً بفضل « قانونيي» القسم الجنوبي من الاملاك الملكية الذين تلقوا علومهم في مدارس «مونبلييه » . وهنالك كذلك تأثير اهل البطانة أنفسهم الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً عظيماً بفضل تعقد الادارة المتزايد واطراد استخدام الكتابة: فقد نشأت طبقة جديدة آنذاك ، هي طبقة ممثلي السلطة واهل القانون والقلم . ولما كان هؤلاء قـد عمموا مفهوم السلطة العامة ، مؤكدين ، بصيغ واضحة ، ان الملك وحده ، في حدود مملكته ، يتمتع بالسلطة الملكية ، بات لمجرد وجودهم اثره الهام ايضاً . فان هيئـة الموظفين الحاكمين ، المؤمنة جماعياً على سلطة اعتبرت آنذاك مثالية ومفضلة ، والباعثة الحياة في آلة ادارية امست

قادرة على السير بمجرد حركتها ، اخذت في تلك الايام تتفوق على شخص الملك نفسه : ولعل «فيليب له بيل» هو اول ملك فرنسي تدنى تأثيره على تسيير الشؤون العامة . وبينما اخذ الاحتفال بتكريس الملك يفقد الكثير من اهميته اخذت السلطة الملكية ترتدي طابعاً اشد تجرداً وابهاماً

ان هذا المظهر الجديد للسلطة المطلقة ، المتفوقة على كل سلطة اخرى والمختلفة في جوهرها عن سلطة الاسياد ، ساعد التأثير الملكي على احراز تقدم جديد . فقد تهيأ الناس شيئاً فشيئاً للأقرار بان للملك ، الذي يعمل بعد اليوم للخير العام ، ويعبر عن ارادة المجموع بحسب المبادىء التي استقتها الفلسفة الكلامية من مؤلفات ارسطو السياسية ، ويدعو احياناً ممثلي الطبقات المهيمنة في المملكة كي يعرض عليهم الاسباب الموجبة لقراراته ـ ذاك كان الهدف من استشارات السنوات ١٣٠٢ و١٣٠٨ و١٣١٤ ـ الحق في ان يوجب على رعاياه ، خارج نطاق املاكه او نطاق العلائق الاقطاعية ، الخدمة العسكرية او ضرائب نقدية تقوم مقامها . غير ان التقدم ، بصدد هذه النقطة الاخيرة ، كان في الحقيقة بطيئاً : فان الرأي القائل بان للملك الحق في فرض الضرائب ، بالاضافة الى دخول سيادته العادية ، لم يكن غالباً قط في اوائل القرن الرابع عشر . ومرد ذلك الى ان الاجهزة المالية في المملكة ما زالت ابتدائية في عالم لعب المال فيه دوراً متعاظم الاهمية وفي الوقت الذي انتشر فيه دفع المرتبات في الجيش الملكي وأُحلّ الارتزاق المأجور محل الخدمات الاقطاعية .

انكلترا

في كثير من الامارات ، كفلاندر ، وبورغونيا ، والفوبان في داخل مملكة فرنسا ، وبروفنسا او هينو عند حدودها ، تعززت السلطة بالطريقة وبالسرعة نفسها تقريباً ، اي بتوسع الاملاك وتعدد اجهزة الادارة وتوطيد السيادة بفضل القانونيين . ولكن التطور لم يتم دائماً في زمن واحد . فهو قد تأخر في مناطق اسبانيا المسيحية التي نجت من خطر العرب منذ اوائل القرن الثالث عشر وسارت في طريق التوحد حول تاجي قشتالة واراغون لأن السلطة الملكية فيها كبحتها ارستوقراطية هوستها معارك استعادة البلاد وحدّت منها قوة الامتيازات المحلية وخضعت لرقابة جميات المثلين القانونية . ولكنه كان مبكراً وحثيثاً في مملكة صقلية حيث استطاع « فردريك الثاني دي هوهنستوفن » ، في الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، وفي بيئة تميزت بانقيادها وطواعيتها ، تنظيم سلطة ملكية واسعة الصلاحيات ترتكز الى ادارة تسلسلية مخلصة جداً ، وتسيطر على الكنيسة نفسها حيث تتصرف بموارد جبائية وافرة . واتجه التطور اخيراً ، في انكلترا والامبراطورية ، اتجاهاً آخر مختلفاً تماماً .

افضى الفتح في المملكة الانكليزية الصغيرة الى اقامة نظام تبعية اقطاعية ومشاركات زراعية على الطريقة النورمندية يخدم مصلحة الملك ولا يتساهل ، باستثناء الحدود العسكرية في الشمال والغرب ، بقيام امارات اقطاعية متراصة . بعد ان كبح الفاتح جماح الارستوقراطية الانكلو ـ نورمندية ، حاولت هذه الاخيرة الاستفادة من المنازعات السلالية التي عقبت موت هنري الاول (١١٣٥) ، بغية الحصول ، على غرار ارستوقراطيات اليابسة ، على استقلال حرمت منه :

فاستولت على شطر هام من الاملاك الملكية واستأثرت بالقصور وشيدت حصوناً جديدة واوجدت سلطات اقليمية اعظم تلاحما. ولكن هذه الحركة كانت سريعة الزوال. بيد ان اصلاح الملكية، الذي مهد له هنري الثاني بلانتاجنيه في السنة ١١٥٤، قد تم بمزيد من السهولة، لا سيما وقد ابقي على معظم انظمة العهد السكسوني الاساسية التي جمعت الشعب كله، بفعل جمعيات الكونتية والمئات المحلية، في ظل « قانون مشترك »، هو قانون الملك، يؤمن لهذا الاخير، في احوال الغزو، وبحسب الكيفيات التي نصت عليها اتفاقية الاسلحة في السنة ١١٨١، الخدمة العسكرية المفروضة على كافة الرجال الاحرار الذين ينضم اليهم، عند الحاجة، الاتباع الخاضعون لتجنيد الزامي ايضاً. لهذه الاسباب، وعلى الرغم من ان الملك المفتقر الى املاك واسعة والحريص ايضاً على الاستفادة من حق المأوى، لم يقم اقامة دائمة في عاصمة واحدة، اتيح للسلطة الملكية فيها ان تنطلق دون ان يعيقها عائق. والدليل على انطلاقها المبكر أن أجهزتها الرئيسية توطدت منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر: ممثلون محليون، مأمورو أحكام مدنية، يعملون بسلطة الملك، وقضاة يقومون بجولات دورية، واداة رقابة مالية، هي رقعة الشطرنج، ومحكمة قضائية مركزية ما لبثت ان تجزأت محكمتين، احداهما ثابتة (المحكمة المشتركة) والثانية متجولة ترافق الملك (محكمة الملك)، فاعطى كل ذلك المملكة هيكلا متيناً. وكان هنري الثاني وريكاردوس قلب الاسد اعظم ملوك عهدهما اطلاقاً، واستطاعا وحدهما منذ ذاك العهد الاعتماد على تفاني وغيرة موظفين محترمين، « كتبة الملك »؛ وكانا اوسع ملوك عهدهما ثروة ايضاً لانهما استثمرا، الى اقصى حدود الاستثمار، حقوقهما الاقطاعية ومكاسبها القضائية. ولكن شدة هذه الاعباء نفسها، التي ناءت بثقلها على اسياد عقاريين عززت نزعتهم الاقتصادية مركزهم ـ بينما هي قد اذلت الاشراف في فرنسا ـ جعلت السلطة الملكية، على نقيض سلطة الكابيتيين، تميل الى الانكماش والحصر. وحدث مرتين خلال القرن الثالث عشر ان ارغم اوسع اتباع الملك ثروة، البارونات، تساندهم الكنيسة، على الحد من ادعاءاته؛ لا بل حدث مرة في السنة ١٢٦٤، انهم اخذوا على عاتقهم ادارة شؤون المملكة طيلة اشهر عدة. ووضعت وثائق خطية، كميثاق السنة ١٢١٥ الذي تأيد تكراراً، اظهرت بجلاء الحدود النظرية لتحكم ملكي استحالت ممارسته دون رضى علية الاشراف ومساعدتهم. اضف الى ذلك اخيراً ان القوة الجديدة التي استمدتها جمعيات الكونتيات من اراء الفرسان، تلك الطبقة العسكرية التي بات افرادها اعياناً ميسورين وولاة محليين، جاءت بدورها تزيد الطين بلة في الحد من بطانة الملك وممثليه، باحتفاظها للمأمورين الذين تنتخبهم هذه الجمعيات، اي لجماعة من الفرسان المحلفين، بادارة العديد من الشؤون، ولا سيما المحافظة على النظام. بيد ان ما يجدر لفت النظر اليه هو ان تضامن البارونات والجماعات المحلية في ممارسة السلطة قد حققت، بين الامة والملك، وحدة لا مثيل لصفاوتها في اي مكان آخر. واذا كان الملك حاذقاً وشعبياً، توفرت له وسائل عمل قوية.

كانت هذه حال ادوارد الاول في الربع الاخير من القرن الثالث عشر. فقد كان اول ملك

انكليزي الاسم منذ الفتح ، ان لم يكن انكليزي النزعة ، وملكا ظافر توصل بفضل ضم بلاد الويلز وحملاته العسكرية في سكتلندا ، الى الحد من دور وتأثير عظام البارونات في اطراف المملكة ، فقام باستقصاءات واسعة للحفاظ على الحقوق الملكية أو استعادتها ، في اطار العلائق الاقطاعية ؛ واستفاد في الحكم من خدمات قصره المتميزة بالسرعة والمرونة ووسع بصورة خاصة اجهزة « الصوان » المالية . واستفاد كذلك من انطلاق التجارة ، فوجد موارد وافرة في استثمار الجمارك ولا سيما الرسوم المستوفاة على استيراد الخمور وتصدير الاصواف والجلود ، وعقد قروضاً ضخمة لدى رجال الأعمال المقيمين في لندن . فاستطاع بذلك ، الا في بعض فترات الشدّة ، تمويل سياسته دون أن يثقل بالاعباء مملكة تفتقر الى الثروات الكبرى . وغالباً ما أمر أخيراً ، رغبة منه في ابراز الجلالة الملكية بكل سناها ، باجتماع مجالس الممثلين ومجالس البارونات ، وجمعيات اصحاب الاخاذات المكلفة مساعدة الملك على توزيع العدل ، « والمجلس المشترك » الذي يقر الاعتمادات التي يطلبها الملك ، وفرسان الكونتيات وبورجوازيي المدن الناشئة . وباستطاعتنا القول ، بعد كل اعتبار ، ان الملكية الانكليزية ، وان مرت في فترات عاكست مصالحها واضطرت الى تراجعات غير ذات نتيجة ، لم تكن في اوائل القرن الرابع عشر دون ملكية فرنسا متانة ورسوخاً .

مناطق الامبراطورية

اما السلطة الملكية فقد اذلت اذلالا تاماً في الامبراطورية آنذاك . ومع ذلك فان احياء الحق الروماني والعلائق الوثيقة ببيزنطية وشخصية فردريك بربروس نفسها قد عززت المفهوم الامبراطوري تعزيزاً قوياً . اجل لقد تلابست آنذاك الامبراطورية والملكية الالمانية بحيث كاد مسح الامبراطور من قبل البابا يعتبر مجرد اجراء طقسي واخذ امراء جرمانيا يعتقدون بانهم هم الذين ينتخبون الامبراطور فعلا ، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتقليد الكارولنجي ، كما ابرز ذلك اعلان قداسة شارلمان في السنة ١١٦٥ ، واختارت « إيكس لا شابيل » والمناطق الرينانية مركزاً لنشاطها ؛ ولكن الامبراطورية ، مع ذلك ، بدت وكأنها امتداد مباشر لامبراطورية الرومانيين التي مجد قانونيو بولونيا عظمتها الفريدة وطابعها المقدس . وفي الوقت نفسه الذي اعلن فيه الامبراطور اوغسطوس ، في ممالك جرمانيا وايطاليا وبروفنسا ، عن حقه في الامتيازات المطلقة ، كان يستخدم الانظمة الاقطاعية لتوسيع سلطته . وقد طالب اخيراً ، على غرار اسلافه ، بالسيادة على العالم ، اي بادارة كافة الدول المسيحية ، وبمراقبة البابوية على الطريقة الكارولنجية ، وبالسلطة الادبية على ملوك الغرب الآخرين المعتبرين تابعين للامبراطورية . وسعى هنري السادس ، في الواقع ، الى بلوغ هذه السلطة بواسطة العلائق الاقطاعية ، فظفر بخضوع ملوك قبرص وانكلترا ، وحاول الظفر بخضوع فيليب اوغست .

غير ان هذا البناء الساحر ما عتم ان انهار لانه لم يقم على اسس متينة . فالملكية الالمانية التي كانت بمثابة ركيزة للامبراطورية قد افتقرت الى الاستقرار والمزية : ومرد ذلك الى انها

كانت ملكية غير وراثية تضعفها ، بمناسبة كل خلافة ، ألتنازلات التي يضطر الملك المنتخب الى القبول بها لمصلحة العظماء كي ينتخبوه ، وملكية دون املاك ، هائمة ، منتشرة في كل مكان وغير ثابتة الاركان في اي مكان . فكان متعذراً عليها والحالة هذه الاحتفاظ بنفوذها على المملكتين الاخريين. فالى الغرب من جبال جورا والالب، لم تكن السلطة الامبراطورية آنذاك سوى كلمة لادلالة لها ، وقد امسى تأثيرها السياسي دون التأثير الفرنجي بمراحل . وكان لزاماً لاحكام سيادتها على ايطاليا ، الجموحة ، الوافرة المدن ، اهمال الارياف الجرمانية ، وتخلى الاباطرة الالمان كذلك عن ادارة عملية التوسع نحو الشرق التي تمت بدونهم لمصلحة امراء الحدود. ثم اتجهت الامبراطورية تدريجياً شطر الجنوب: فقد رغب هنري السادس، سيد صقلية، في السيطرة على المتوسط، كما صمم ابنه فردريك الثاني على تشييد سلطته في روما. اضف الى ذلك ان مطالبات ملك المانيا ببسط سلطته على كافة الدول المسيحية اثارت معارضات ضارية قضت في ايطاليا وجرمانيا على ما تبقى له من سلطة حقيقية . فقامت معارضة الممالك الغربية حيث اخذت تنضج الفكرة القائلة بان الملوك ، وهم اباطرة في ممالكهم ، لا يمكن ان يرتضوا باية وصاية : وهكذا فان فردريك الثاني ، الذي سبق له وتخلى عن كل حق حماية مراعاة منه لشعور غيره قد فشل فشلاً ذريعاً عندما دعا ملوك الغرب لتأليف ما يشبه وحدة روحية تكون بمثابة حلف يقاوم الهرطقة وادعاءات الكنيسة الزمنية في آن واحد . وقامت معارضة اشد نضالية نهضت بها البابوية المتمسكة تمسكاً متزايداً بأولويتها الروحية .

زالت الامبراطورية اذن ، كنظام ، في منتصف القرن الثالث عشر ، حين عجزت عن التغلب على هذه العقبات الكثيرة ، ولم يعرف الديمومة ، كحلم وحدة وسلام ، سوى المثل الامبراطوري الذي أحياه تيار فكري مسيحي غذته مؤلفات الكاهن الايطالي « يواكيم دي فلور »، وقوته في الآونة الاخيرة أبحاث عقائدية وضعت بايعاز من فردريك الثاني أثناء صراعه مع البابا . وقضى هذا الانهيار على الوحدة التي ربطت ايطاليا بالمانيا وأحدث في المناطق التي كانت خاضعة خضوعاً مباشراً للامبراطور تقهقراً سياسياً عميقاً ، اذ انه ، على نقيض ما حدث في الممالك الاوروبية الغربية المتلاحمة ، أدى بها الى التجزئة والمنافسات . ففي المانيا عرفت السلطة الملكية الذل والهوان خلال فترة شغور العرش التي عقبت موت فردريك الثاني وتجاوزت عشرين سنة وتميزت بأعمال العنف والحروب الأهلية واستباحة السلب في املاك الملك وامتيازاته وتوطد السلطات المحلية في ظل الفوضى الشاملة . فباتت هذه الدولة من ثم مجموعة امارات مستقلة استأثرت بكافة الامتيازات الملكية اما اغتصاباً واما بفضل الامتيازات الخاصة التي منحها فردريك الثاني والمطالبون بالعرش من بعده . وكانت هذه الامارات في الشرق متراصة وواسعة الرقعة بينما هي كانت في الغرب متشتتة ومتناثرة جداً ، لا سيما في وادي الرين ؛ وقد أفسحت مكاناً للمدن الحرة الداخلة في اتحادات تستهدف الدفاع السياسي ، كما أفسحت احياناً ، في جبال الالب ، مكاناً لطوائف مستقلة من الجبليين اخذت في سويسرا تؤلف الاتحادات .

وعرفت ايطاليا الامبراطورية تجزؤاً أعظم في السلطات التي توزعت على بعض الامارات الاقطاعية وراء الالب ، ولا سيما على المدن . ولكن التكتل البورجوازي ، الذي ما زال قوياً في توسكانا ، والذي اخذ – وهذه ظاهرة من ظواهر شمول انتصار المبدأ الملكي – يتوارى في لومبارديا امام قوة « مستبد » يتولى « السيادة » هو الذي عاد اليه السلطان وكافة الحقوق التي أحيتها دراسة التشريع الروماني ، وخضعت له الارياف المجاورة . ولكن خلافات دائمة قامت بين هذه المدن المتنافسة تجارياً، وحتى بين جماعات المدينة الواحدة احياناً حيث تباينت مصالح الاشراف والأثرياء وصغار الصناعيين فتجمعوا فئات متخاصمة متزاحمة . في هذه البيئة المضطربة بالذات،وبين المبعدين الذين تاقوا في منفاهم الى وطنهم السليب،استمر الامل الوطيد بالامبراطورية، أي امبراطورية رومانية حقاً متملصة من التأثير الجرماني .

وهناك اخيراً ادعاءات البابوية بادارة العالم السياسية ، وقد تعاظمت بفعل انهيار السلطة الامبراطورية نفسه. فقد رسخت عقيدة الأولوية البابوية في مقاومتها فرض الامبراطور سيطرته على العالم المسيحي وعلى الكنيسة؛ وقد وجدت عضداً لها في الانظمة الاقطاعية وفي المفهوم الجديد للسلطان كما جاء في مجموعة القوانين *Corpus Juris* . وفي القرن الثالث عشر اعتمر البابا تاجاً ثانياً دلالة على تفوقه . ثم قام اوشنتيوس الثالث بمشروع يقابل مشروع الامبراطور هنري السادس، فبذل الجهد كي يؤلف حول الكرسي الرسولي شبكة واسعة من التبعيات الاقطاعية كان من شأنها ان تجمع وراء الكنيسة الرومانية كافة ملوك العالم المسيحي ؛ وقد امست أراغون ، وبلغاريا ، وسيادة سيمون دي مونفور في لنغدوك، ثم مملكة انكلترا ، اقطاعات تابعة للكنيسة وبرهنت عن خضوعها بدفع فريضة سنوية . وقر الرأي شيئاً فشيئاً على ان الامبراطور نفسه صاحب اقطاعة خاضع للبابا ؛ واستند البابا بونيفاسيوس الثامن ، في ابهة يوبيل السنة ١٣٠٠ ، الى اطروحات جيل الرومي وجاك الفيتربي التي بنيا فيها مذهباً متراصاً من آراء القانونيين حول السلطة البابوية ، فاحتفل بسلطة اسقف روما، المرشد الوحيد للشعب المسيحي زمنياً وروحياً.

الا ان هذه الادعاءات جاءت متأخرة في الواقع . فلم يكن باستطاعة البابا ، كما لم يكن باستطاعة الامبراطور، ان يفرض حمايته على الدول التي تقاسمت اوروبا آنذاك . وكان من شأن هذه التأكيدات إثارة عدد متزايد من اولئك الذين تأثروا بتحذير المؤلفين السابقين ؛ ابتداء من القديس برناردوس ، للحبر الاعظم ، من مغريات السلطة ، واعتبروا ، بفعل الدعاوة العنيفة التي يشنها المناضلون في خدمة فردريك الثاني ، ان البابا انما يتنكر لرسالته الحقيقية بسعيه وراء السيطرة الزمنية . فالعالم المسيحي الذي توحد في العهد الاقطاعي وفي الحملات الصليبية الاولى قد تجزأ في الواقع نهائياً . وقد احدث هذا التجزؤ نفسه ، وتعزز السلطات العلمانية من جهة ، والتطور الاقتصادي من جهة اخرى ، وتعاظم قوة المال وما انتهى اليه من تحوّل في الاخلاق، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، قلقاً متزايداً داخل الكنيسة .

٣ ـ تعرض وحدة الكنيسة للاخطار

بيد ان السلطة الملكية قد تعززت باستمرار في الكنيسة ، كما تعززت في الممالك الغربيـــة وامارات المانيا الشرقية والسيادات المدنية في ايطاليا الشمالية ، بفضل الصراع نفسه الذي جعلها تبدي تلك المقاومة الطويلة في وجه السلطات العلمانية بمناسبة التوليات اولا ، و « السيطرة على العالم » ثانياً . فقد جعل توسع الحق القانوني من اسقف روما ، الذي نظمت المقررات المجمعية انتخابه تدريجياً ، المشترع الاعظم في العالم المسيحي ؛ ومعصوماً عن الخطأ ، لان « حكم البابا وحكم الاله حكم واحد » كما اعلن ذلـــك في اوائل القرن الرابع عشر مؤلف وضع بحثاً حول الاولوية البابوية . وكما ان الاجهزة المركزية في الملكيات الزمنية قد تميزت وتفرّق بينها تدريجياً، كذلك توزعت الشؤون الكنسية على لجان مختصة من الكرادلة الذين تعاظم شأنهم تعاظماً مطرداً، والذين استلموا في منتصف القرن الثالث عشر شارة مميزة هي القبعة الحمراء . وقد تزايدت هذه الشؤون في الواقع تزايداً مطرداً ايضاً :التدخلات المتعددة في تعيين الاساقفة ، والدعاوى القضائية المتكاثرة المقامة امام محكمة روما . وتوسعت اخيراً ، خلال القرن الثالث عشر ، الاجهزة المالية التابعة لهذه السلطة المتعاظمة : فبينما طولب بشدّة آنذاك باعفاء رجال الاكليروس من الموجبات الجبائيـــة الزمنية فرضت رسوم على الكنائس والمستفيدين من الارباح وفرت موارد نقدية شعرت الباباوية ، على غرار السلطات العلمانية ، بالحاجه اليها. فساعدت هذه المركزية وهذا التقدم في الجهاز الاداري على غرار ما حدث في الدول الاخرى ، على تلاحم الكنيسة ووحدتها .

القوى المعادية

الا ان هذه المركزية اصطدمت بنزعات معاكسة قوية جداً حرّكت جمهور الشعب المسيحي نفسه . فبصرف النظر عن التطور السياسي العامل على خلق الحواجز والمهيب بالامراء وسكان المدن ، الغيارى على امتيازاتهم ، الى مقاومة الحصانات الكنسية ومقاضاة رجال الاكليروس واخضاعهم واستغلالهم اسوة بغيرهم من الرعايا – وان في موقف الملك حيال رجال الكنيسة ، منذ القرن الثاني عشر ، في انكلترا ، حيث بلغت السلطة الملكية مرحلة النضج قبل غيرها ، لمغزى عظيما في هذا المجال – قامت حوالى السنة ١١٥٠ ، بتأثير من تقدم الحضارة نفسه ، ثـــلاث حركات تناهض النظام الادبي والفكري والروحي الذي فرضته الكنيسة الرومانية بوسائل اعظم قوة .

فهنالك ، في الدرجة الاولى ، تزايد التهافت على ملذات العالم ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن ظروف المعيشة ونموّ العلائق بين الناس . فان ميل الفرسان الى الاجتماعات العالمية ، الذي ظهر منذ اواخر القرن الحادي عشر في فرنسا الجنوبية وفي بروفنسا وتسرب تدريجياً الى كافة انحاء اوروبا خلال القرن الثاني عشر ، وارتقاء الامرأة في مجتمع الاشراف ، وانتشار تلك الآراء والياقات التي اطلق عليها اسم « الأنس » واستهدفت المحبة قبل اي شيء آخر وخدمة السيدة المختارة ، خارج النظمة

الزواج المسيحي ، واطراد التفخل في الملذات على انواعها ، كل ذلك صرف افراد الطبقة العليا تدريجياً عن المفاهيم والموجبات التي فرضتها الكنيسة وافضت رويداً رويداً الى نوع من التبدل في القيم الاخلاقية . فنشأت من ثم في هذه الاوساط محبة للعالم ظهرت اولا في القصائد الغنائية للفرسان الفرنسيين في اواخر القرن الثاني عشر وفي الاطراء البريء للبهجة الدنيوية وادّت اخيراً الى الخشية من الموت الذي لم يعد ينظر اليه كنهاية السفر وبداية الافراح الصافية ، بسل كانتزاع وحرمان ؛ ومما يؤيد هذه الخشية ، في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، التغيير الذي طرأ على المواضيع التصويرية . اضف الى ذلك ان الرغبة في الكسب ، في اوساط التجارة — وغالباً ما رافقها عند البورجوازيين انحطاط كبير في الاخلاق — والحرص على جني الارباح من البيع والاقراض ، لم يأتلفا تماماً مع ممارسة المحبة . وهكذا فقد افضى التقدم المادي ، عند رجال الاكليروس وعند العلمانيين على السواء ، الى التنكر الصريح للتعاليم المسيحية .

وهنالك، في الدرجة الثانية، تقدم العلوم العقلية النظرية. فان الاداة الجدلية التي استنبطت في النصف الاول من القرن الثاني عشر استخدمت بعد ذلك بحماس في عالم رجال الفكر وانتهت الى توجيه تفكيرهم توجيهاً كلياً . ولعل الحضارة الغربية لم تعرف حقبة أشد اهتماماً بالمنطق والبرهنة والنقاش والتبويب والتجريد من القرن الثالث عشر . وتفسر هي هذه الابحاث النظرية اهتمام المفكرين المسيحيين وشغفهم بمؤلفات ارسطو التي نقلت تباعاً من العربية الى اللاتينية في اسبانيا وايطاليا منذ القرن الثاني عشر . وكان من شأن اعادة العلائق الثقافية ببيزنطية — وهو حدث رئيسي في تاريخ ذاك العهد يسّره فتح القسطنطينية وتأسيس الامبراطورية اللاتينية في الشرق ، مع انه مدين في الدرجة الاولى لتقدم المواصلات بوجه عام ولتقلص المسافات — انها ادخلت مزيداً من الخلوص على مخالطة المذاهب الفلسفية السابقة للعهد الميلادي . وقد اعطت المخطوطات اليونانية بنوع خاص دروساً اعظم صراحة عن مؤلفات الستاجيري (ارسطو) بعد ان نزع عنها غشاء المفسرين المسلمين المشوه، ومبنى اعظم سحراً ايضاً. واخذ اساتذة المدارس الباريسية حوالي السنة ١٢٢٥ ، يحذون حذو غليوم دوفارنيه في تطبيق اساليب الفلسفة العقلية على بحث المسائل اللاهوتية ، وهو اتجاه حاسم لعصري اذ ان العقل ليس سوى حرية الانسان واقفة امام « المراجع » وجرثومة استقلال في وجه الاقتسارات الفكرية. وقد زاد من اقلاق هذا الموقف ان الاساتذة والطلاب ، وكلهم من الاكليروس، لم يجدوا بواسطته آنذاك منجاة من نظم الكنيسة القائمة . فمنذ اوائل القرن الثاني عشر اخذ رجال الفكر يقصدون بعض المراكز الكبرى حيث يجتمع خيرة الاساتذة وتتوفر افضل الكتب ؛ وهكذا تكونت بدورات الباحثين الاولى ، في بولونيا لدراسة القانون الروماني، وفي باريس لتعليم الفنون العقلية والاستقصاء اللاهوتي. فراحت هذه المدارس ، المتميزة بمزيد من الحرية ، مدرسة الاكليروس المحلي ؛ ولم يعد باستطاعة الاسقف ورئيس ديوانه ، على الرغم من احتفاظهما بامتياز منح « اجازة التعليم » لاساتذة العد ، مراقبة التعليم والفكر مراقبة فعالة .

وهنالك اخيراً نزعة اعم انتشاراً ورسوخاً في الطبقات الشعبية وعلى جانب كبير من القوة ، كما يبدو ، في عامة سكان المدن ، برزت اشد خطراً على الانظمة الكنسية ، مع انها كانت ، على نقيض النزعتين الاخريين ، عامل اثراء وتجديد للروحانية المسيحية . وقوامها تحول عميق في الموقف الديني وممارسة التقوى يؤيده استمرار تلطيف المواضيع التصويرية الدينية وتفهمها وانتشار عبادة العذراء التي باتت آنذاك ، للعديد من النفوس ، محور الحياة الدينية ، والرواج الغريب الذي عرفته الروايات المزيفة المعطفة المنسوجة حول النصوص الانجيلية ، وازدهار المأساة الطقسية التي كانت نقطة الانطلاق للمسرح الديني باللغة العامية . وقد سعت هذه الحركة الصوفية الطابع وراء التأثيرات العاطفية القادرة على ادخال مزيد من الحرارة على مجموع الطقوس التي تفرضها الكنيسة ، ووراء كل ما من شأنه ان يؤثر مباشرة على الحواس ويتيح للبسطاء من الناس الاتحاد ، بدون مداورة فكرية ، باله عطوف ومعزّ ، فمالت من ثم طبعاً الى الحد من دور الكنيسة القائمة . والكنيسة القائمة هي بالضبط موضوع اللوم والتعيير بسبب تعلقها المفرط بالماديات ، اذ ان تطور العاطفة الدينية هذا كان في الواقع امتداداً مباشراً للجهود المبذولة منذ منتصف القرن الحادي عشر ، اي منذ حدوث النهضة الحاسمة في الاقتصاد النقدي ، بغية احياء الفقر الانجيلي ضد رغبة الرؤساء الروحيين .

استهدف هذا التوق الاتحاد العاطفي المباشر بالمسيح ، باحتقار وساطة الاكليروس الغاطس في الزمنيات والمشغول بالشؤون الادارية ، واصلاح اجهزة المجتمع الديني اصلاحاً جذرياً . وقد افضى ، في اشكاله القصوى ، الى قيام نخبة مختارة من « الصالحين » المنحدرين من المجتمع العلماني مباشرة ، « الانقياء » حقاً اي فقراء واطهار ، المكلفين ايصال الروح القدس ، بطقوس غاية في البساطة ، الى جمهور الشعب واقتياد هذا الجمهور نحو الخلاص بقراءة العهد الجديد عليه بلغته الخاصة . عرفت هذه الحركة انتشاراً واسعاً وافضت في بعض النقاط ، خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، الى هرطقات شهيرة . نذكر منها « هرطقة الاطهار » التي سببت اضراراً بالغة في جنوبي مملكة فرنسا ؛ ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن تعاليمها ، وليس القول بثنوية مانوية ، تقيم اله الخير في وجه اله الشر ، سوى احد اشكالها المتطرفة في الارجح الذي زاده تطرفاً الثالبون من اتباعها ؛ وهي قد جاءت متأخرة على كل حال وافسحت المجال لاقتباسات كثيرة ودخلت غربي اوروبا بفعل الاتصالات التي جرت حوالي السنة ١١٦٧ مع بعض الاحبار البوغوميليين في البلقان . وهي مدينة بنجاحها ـ الذي تجلى باهراً لدى الفرسان الجنوبيين المنجرفين وراء الملذات الارضية ـ لتقشف رؤسائها المسؤولين الذين تحملوا وحدهم ، على نقيض الاكليروس الكاثوليكي الفاسد ، اعباء الموجبات الاخلاقية القاسية وسمحوا لجمهور المؤمنين بالاشتراك بسلام في افراح العالم . ونذكر هرطقة اخرى هي « الفالدية » التي كانت في البدء شيعة فقراء اقتفوا خطى احد بورجوازيي ليون وحرموا انفسهم من ممتلكاتهم بغية التوفيق بين حياتهم وحياة المسيح ؛ اصطدمت هذه الحركة الانجيلية المصدر بمعارضة الرؤساء

الروحيين حين اراد اتباعها العلمانيون، حوالي السنة ١١٨٠ ، الاستغناء عن الكهنة وادّعوا حق تفسير نص العهد الجديد بعد ان أمنوا ترجمته ، وطالبوا كذلــك بحق الوعظ ؛ ولكنها في الارجح حركة استجابت لرغبات عميقة اذ انها ، على الرغم من معارضة الكنيسة ، ما لبثت ان انتشرت انتشاراً سريعاً جداً غربي وشرقي جبال الالب .

رد الفعـل البابوي

كانت الكنيسة من ثم مهددة بخطر فقدان الاخلاق ، ورقابة الفكر ، ورسالتها نفسها،أي دورها كوسيطة بين البشر والاله. ولكن مقاومة هذه التيارات الثلاثة جاءت قوية تحت ادارة الكرسي الرسولي المتوطدة وبفضل كافة الموارد التي أمّنها تنظيم الكنيسة الجديد . فبغية استعادة تأثير الكنيسة على سلوك النبلاء مع النساء ، استمر في الدرجة الاولى المجهود الذي بذله رجال الاكليروس منذ منتصف القرن الحادي عشر لطبع طقوس وذهنية الفرسان بالطابع المسيحي ولجعل هذه الطبقة العسكرية « جمعية » بالمفهوم الديني لهذا التعبير تكون اشبه بالاخويات ، وذلك بالصلاة على الاسلحـــة اولاً ، ثم بادخال بعض الممارسات الطقسية على الاحتفال بتسليم الفارس اسلحته ، كالاغتسال المطهر وحراسة الاسلحة ليلاً والمناولة سلفاً ، وباليمين المفروضة على المبتدئين بالسلوك بحسب بعض القواعد الاخلاقيـة . ويجب الاعتراف هنا بان المثل الاعلى الذي وضع نصب اعين الفرسان كان قيماً ، بالشكل الذي ارتداه ، في اوائل القرن الثاني عشر ، في اسطورة « غرال » ، بارضاء النزعة الصوفيـــة ، التي جعلت الفرسان اللنغدوكيين سريعي التأثر بهرطقة الاطهار .

الا ان ردّ الفعل الاول للكنيسة ضد الانحرافات في الاخلاق والفكر وممارسة التقوى كان على العموم عنيفاً وزجرياً . فهي قد أقدمت ، بغية استئصال عادات التجار المخالفة للمحبة ، على اعلان تحريم الربى . وأصدرت حكمها على أدهى الابحاث خطراً في مؤلّف « ارسطو الجديد » ؛ وفي السنة ١٢١٠ ، منعت في باريس تفسير كتابي « ما وراء الطبيعة » و « الطبيعيات » ؛ وفي السنة ١٢٢٨ دعا البابا اللاهوتيين الى الكف عن الاستعانة بمبادىء الفلسفة الوثنيـة في براهينهم لاثبات الحقيقة . وطورد الفالدين من قبل السلطة الاسقفية . وشنت في السنة ١٢٠٨ ، للمرة الاولى ، حملة صليبية على مسيحيين ثبتت هرطقتهم ، أعني بهم « اطهار » اللنغدوك ؛ نظمت في البدء كوسيلة ضغط على الامراء المحليين لحملهم على الاسهام في عمليـة القمع ، ولكنها انتهت الى عزلهم والى انتقال ممتلكاتهم الى الصليبيين الآتين من « ايل دي فرانس » . اما استقصاء وقمـــع الحرافات العقيدة ، اللذان تركا لمبادرة الاساقفة حتى ذاك التاريخ ، فقد نظما ونسّقا خصوصاً على يد بعض الامراء اولاً - وضع فردريك الثاني ، ما بين السنة ١٢٢٠ والسنة ١٢٢٨ ، اول تشريع متلاحم في هذا الحقل فرضت بموجبه عقوبة النار على الهراطقة - ثم على يد البابوات الذين تسلموا ، ابتداء من السنة ١٢٣١ ، ادارة التحقيق ، او « التفتيش » . ولكن هذه التدابير الزجرية ، التي لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها على كل حال ، تكاملت في النصف الاول من القرن الثالث عشر بما بذلته الكنيسة من جهد رائع - ويعود الفضل في ذلك الى انوشنتيوس الثالث

الذي تمثل حبريته اوج السلطة الرسولية – لمماشاة التيارات الجديدة وجني أكبر فائدة منها .

جمعيات التسول

فقد بات لزاماً على الكنيسة ان تضم اليها الحركة القوية الداعية الى الفقر والى ممارسات دينية اسهل منالاً على الوضعاء . وضع انوشنسيوس الثالث تحت حمايته جماعات العلمانيين المنقطعين للعمل المشترك والزاهدين في الثروات الذين أطلق عليهم اسم « المتواضعين » في ميلانو ، واستمال اليه بعض جماهير الفالديين الذين رجعوا الى الرأى القويم باسم « الكاثوليك الفقراء » . وشجّع البابوات بصورة خاصة تاليف وانتشار فرقتين دينيتين داخل الكنيسة ، تجيش فيهما الروح الجديدة ، أعني بهما جمعيتي التسول ، الدومينيكان والفرنسيسكان . تأسست الاولى أبان الحملة على « الاطهار » : فقد جاء اتفاقاً الى لنغدوك في السنة ١٢٠٦ كاهن اسباني قانوني يدعى دومينيك (عبد الاحد) ، واستقر في تولوز ، وحاول ، مع عدد صغير من رفاقه ، اقناع الهراطقة ، بكلامه ولا سيما بسلوكه الذي لم يكن دون سلوك « الصالحين » تقشفاً وزهداً ؛ واعتمد في رسالته الجديدة قانون القديس اوغسطينوس الرهباني ، فتخلى عن كل ثروة زمنية وصمم على العيش من التسول وكرّس نفسه بالكلية للوعظ والتبشير . اما منشأ الفرنسيسكانية فقد كان شبيهاً بمنشأ الحركة الفالدية : تأثر فرنسيس ، ابن احد التجار الاسيزيين الأثرياء ، بالارشادات الانجيلية فوزع في السنة ١٢٠٦ كافة ممتلكاته على الفقراء وسلك حياة زهد تام وفرح كامل في خدمة « السيدة الفاقة » ، وأسس في السنة ١٢٠٩ ، مع بعض الشبان المتأثرين بمثله ، أولى الأسَر الأخوية . وقدّر لنوع حياة هؤلاء العلمانيين – وهو تقشف غنائي في اتحاد صوفي مع المسيح بلغ من خلوصه انه انتهى عند فرنسيس بظهور آثار جروح المسيح في جسمه الذين درجوا ، دون ازعاج أنفسهم بالموجبات الطقسية الكثيرة ، على التنقل والتبشير بالاخلاق الانجيلية ، مستعطين خبزهم ، او طالبين عملاً لكسبه بشغلهم اليومي في المشاريع الزراعية الكبرى ، ان يعرف لدى سكان مدن ايطاليا الوسطى نجاحاً شبيهاً بذاك الذي أحرزه الفالديون .

ان هاتين الرسالتين ، المتباينتين أهدافاً وطابعاً روحانياً ، الهادفتين الى الاتصال المباشر بالاله عن طريق الفقر ، نشأتا تلقائياً على غرار العديد من الهرطقات . ولكنهما بقيتا على اتصال وثيق بروما . فقد احسن انوشنتيوس الثالث الالتفات الى دومينيك وفرنسيس . وعرف خلفاؤه كيف ينظمون هاتين الجمعيتين ويستخدمونهما : في السنة ١٢١٧ استقر دومينيك في روما نفسها ، وما لبثت جمعية الوعاظ (الدومينيكان) ان عرفت ازدهاراً مفاجئاً ؛ فان أديرتها ، التي تم تنظيمها الداخلي آنذاك ، انتشرت من ثم انتشاراً سريعاً في كافة أنحاء العالم المسيحي ؛ وتجاوز عددها الـ ٣٠٠ في السنة ١٢٣٥ . وسبق للقديس فرنسيس ان أوفد بعض رفاقه الى فرنسا واسبانيا ؛ ثم ان الكردينال هوغولين الذي فوّض اليه البابا ، في السنة ١٢١٩ ، حماية ورقابة الاخوة « الصغار » (الفرنسيسكان) ، اصبح بدوره حبراً اعظم باسم غريغوريوس التاسع في السنة ١٢٢٧ ، أي بعد مرور سنة على وفاة فرنسيس ، فباتت الجمعية من ثم تخضع خضوعاً تاماً

لادارة الكنيسة الرومانية. باستقبال هاتين العائلتين الدينيتين، المتميزتين عن الجمعيات الرهبانية، استعادت الكنيسة نشاطها ووضعت تحت تصرفها قوى ذات قيمة كبرى؛ فقد وفرت لها جمعيات التسوّل وسيلة بزت بها شيع الهراطقة، واستجابت لنزعات التدين الشعبي الجديدة التي لم تؤمن لها الكثلكة، حتى ذاك العهد، ما تصبو اليه. وقد عرف الدومينيكان و «الاخوة الرماديون»، في الواقع، نجاحاً منقطع النظير، لأنهم مثلوا، على غرار الأخويات التي ترعرعت فيما مضى، قريبة من الهرطقة، عقيدة مسيحية صوفية زاهدة بالخيرات الزمنية، ناشطة وعاملة في الخارج، متأصلة في قلب المدن بين الجماهير القلقة، مشركة العلمانيين، بواسطة العوام الخاضعين للقانون الرهباني، في اصلاح الاخلاق والتطهير الجماعي؛ وعقيدة مسيحية تبشيرية، لا طقسية فحسب، تؤمن بالوعظ الحر، الملقى بلغة عامية، معرفة الانجيل معرفة مباشرة؛ وبهذا الاتجاه الجديد ترتبط التعديلات المدخلة على المعابد المشيدة بجانب أديرة الدومينيكان والفرنسيسكان التي غدت أسواقاً فسيحة تلقى فيها المواعظ وتفتح لجماهير المدن الغفيرة. ولم يلبث «الوعاظ» و «الصغار» — ولهذا السبب أصبحت هذه الجمعية العلمانية الاخيرة، في عهد مبكر، وبدافع من البابا، أخوية كهنة — ان حلّوا محل الاكليروس العلماني العاجز عن القيام برسالته.

الجامعات

حاولت البابوية كذلك استعادة الاشراف على الحركة الفكرية في المدارس. وهم باباوات النصف الاول من القرن الثالث عشر، أي انوشنتيوس الثالث اولاً، ثم خلفاؤه، من انتصروا لأساتذة ومستمعي المدارس الجديدة على مجالس كهنة الكاتدرائيات والسلطات العلمانية وساعدوهم على تأسيس شركات مهنية متلاحمة، هي الجامعات — أي نقابات المعلمين والطلبة المحلفين — وعلى تحقيق امتيازاتهم واستقلالهم الاداري. واذا استمرت الجامعات الفقهية في ايطاليا الشمالية، أي جامعة بولونيا، التي تأسست في عهد مبكر وحظيت بحماية الأباطرة، وجامعات بادوا ومودينا وفيتشنسا، في تمردها على التأثير البابوي، فان هيئة المعلمين والطلبة الباريسيين قد سعت، ما بين السنة ١٢١٢ والسنة ١٢٤٦، وراء نصرة الكرسي الرسولي على ممثل ملك فرنسا ومستشار مجلس كهنة الكاتدرائية؛ وقد أوجدت البابوية في ايطاليا جامعات روما وسينا وبليزانس ووضعت تحت حمايتها مدارس مونبيلييه، وأسست في السنة ١٢٢٩ جامعة تولوز لنشر العقيدة القويمة في بيئة أفسدتها هرطقة الاطهار، وعطفت أخيراً على انطلاقة اوكسفورد حيث ادخل بعض المعلمين الانكليز بنجاح باهر أساليب التعليم الباريسية. بفضل هذه المساندة، وبينما كان المحسنون الجوّادون يؤسسون المدارس والنزول بغية رعاية وايواء الطلبة الذين لا مورد لهم، انتظمت هذه الجمعيات التعليمية وتفرعت الى كليات أعدّت احداها، كلية الفنون، للتربية التحضيرية ووجهت الاخرى شطر ابحاث التخصص، كاللاهوت او القانون او الطب. اما في باريس فكان طلاب الفن، أكثر الطلاب عدداً على الاطلاق لأن درس الفنون العقلية كان يستغرق بين سبع وتسع سنوات اجمالاً ويجمع قرابة مئة معلم وأكثر من ألف طالب في الارجح. وقد توزع هؤلاء بدورهم، وفاقاً للغاتهم، الى أربع «امم» يوجه كلاً

منها وكيل منتخب؛ وما لبث الرئيس الذي عينه الوكلاء رئيساً عليهم ان أصبح مع الزمن رئيس الجامعة كلها والناطق الرسمي باسمها .

ولكن السلطة الرسولية أصرت على رقابة هذه المؤسسات المتحررة، وقد استخدمت جمعيات التسوّل لبلوغ هذه الغاية دون عناء . اجل لقد تنكر القديس فرنسيس أساساً للنشر العلم بين افراد الأخوية التكفيرية التي أسسها والتي كان عليها ، في رأيه ، ان تستميل النفوس بمثلهم الصالح في ممارسة المحبة والفقر والتواضع ؛ ولكن الكهنة الذين ارتفع عددهم تدريجياً في صفوف « الصغار » ، لا سيما بعد مماته ، وجهوا الرسالة الفرنسيسية شطر الوعظ العلمي ، ناهجين من ثم نهج الدومينيكان ، وقد شجعهم الباباوات في ذلك . اما الدومينيكان المنقطعون لمناقشة الهراطقة فكانوا منذ تأسيسهم رجال فكر حريصين على تلقي دروسهم في أشهر المدارس ؛ انتشرت جمعيتهم في البداية ، انطلاقاً من باريس وبولونيا ، في المدن الجامعية الكبرى ؛ اضف الى ذلك انها تقيدت بقانون صارم بادارة رؤسائها العامين ، فقدمت بذلك خير ضمانة لمعتقدها القويم أسند الباباوات الى هؤلاء واولئك النهوض بشؤون التفتيش اولاً ثم وجهوهم شطر التعليم ، فدخل « المتسولون » من ثم الى الجامعات . وقد حدث ذلك اما عرضاً ، باهتداء بعض المعلمين العلمانيين، كالاستاذين الباريسيين الانكليزيي التابعية ، ايمون دي فافرشام والكسندر دي هيلز اللذين ارتديا ثوب القديس فرنسيس في السنة ١٢٢٤ والسنة ١٢٣١ ؛ اما مباشرة : ففي السنة ١٢٢٩ ، حين أعلنت جامعة باريس الاضراب ضد الاسقف ، أسند هذا الاخير تعليم اللاهوت الى دير الدومينيكان القائم في شارع سان - جاك . ومنذ السنة ١٢٤٠ ، تولت الجمعيات الجديدة ، العاملة باشراف الكرسي الرسولي المباشر ، ادارة الدروس اللاهوتية ، وتصدت للمسألة الكبرى الناشئة منذ سنوات عن انتشار الفكر اليوناني . فحاولت التوفيق بين فلسفة ارسطو — التي انتشرت في المدة الأخيرة بعض أبحاثها: «السياسة» ، و « البيان » ، و «الاقتصاد» — والوحي ، والاحتراز بذلك من خطر القطيعة المتزايد بين النشاط الفكري والتعليم الكنسي فنجحت بالفعل في تحقيق هذا التأليف العسير : واذا مال الفرنسيسكاني بونافنتورا، الذي لم يثق بالمنطق العقلي، الى المثالية الافلاطونية ، وهي في الواقع امتداد للاختبار الصوفي الذي قالت به مدرسة سان — فكتور ، فقد توصل استاذان من الدومينيكان في جامعة باريس ، هما البير الكولوني وتوما الاكويني ، الى التوفيق بين لباب فلسفة ارسطو والعقيدة المسيحية . وكانت ثمرة الجهود المبذولة منذ قرنين لتكييف الاداة الجدلية المؤلفين اللاهوتيين غير المنجزين اللذين وضعهما توما واللذين يؤلفان اول مذهب لاهوتي كامل قام في العالم المسيحي الغربي .

بيد ان الكنيسة، على الرغم من هذه النجاحات الثابتة وهذا التجدد الذي دانت به للروحانية الفرنسيسة والفكر الدومينيكاني، لم تتوصل الى استعادة وتوطيد مركزها الذي أحرجته التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعاطفية . ويمكن القول ان المسافة قد ازدادت اتساعاً ، في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، بين حاجات المؤمنين الروحية والنظام الكنسي السائر سيراً مطرداً نحو التصلب والقوة .

نمو الروح العلمانية

فقد برز الخلاف اولا بين العلمانيين ورجال الاكليروس . نما عند هؤلاء المسيحيين الذين ارهف حسهم والذين بحثوا آنذاك عن غذاء روحهم في قراءة العهد الجديد – وتلبية لهذه الرغبة أنجز حوالي السنة ١٢٥٠ في جامعة باريس نقل نص « الترجمة العامية » نثراً بعد اعادة النظر فيه – شعور عميـــق بالسخرية والحذر وحتى بالعداء الصريح نحو رجال الكنيسة . ولكن لا نخدعنّ بهذه الظواهر : فان هذا الانطباع ناجم جزئياً عن ان العلمانيين ، وقد استطاعوا التعبير عن مشاعرهم ، بفضل تقدّم العلم ، لم يعودوا بحاجة لقلم رجال الاكليروس لافراغها في قالب الكتابة الدينية . ومهما يكن من الأمر ، فان هذا الموقف العدائي من رجال الاكليروس ، الذي ربما زاده تصلباً وعظ الأخوة المتسولين أنفسهم ، وقد ثاروا في مواعظهم على امتيازات الكهنـــة العلمانيين ، فباتوا من أشدّ المنافسين لهم في أغلب الاحيان ، قد كان في جوهره موجهاً ضد وضع الكنسيين الزمني . أي انه استهدف هذا الوضع في المقاطعات الايطالية والفلمنكية حيث طمع رجال الاكليروس بأن يعفوا من الفرائض المالية ؛ وفي مملكة انكلترا ، اقطاعة الكرسي الرسولي ، حيث عينت الادارة الرومانية عدداً كبيراً من الاجانب في مناصب الكنيسة العليا ، فاستثمرت الادارة البابوية هذه الكنيسة أيما استثمار ؛ وفي فرنسا ايضاً حيث رأى الفرسان المفتقرون أملاكهم العائلية القديمه ، التي تبرع بها اجدادهم احساناً ، املاكاً كنسية مزدهرة جـــداً ، وحيث تحالف البارونات للدفاع عن امتيازاتهم القضائية ضد تجاوزات المحـاكم الكنسية وطالبوا القديس لويس ، في السنة ١٢٤٥ ، بأن « يعاد رجال الاكليروس ، الذين اثروا بافقارهم ، الى وضع الكنيسة الاولى ، ويعيشوا حياة تأملية ... ويحيوا المعجزات التي حرم منها العالم منذ زمن بعيد » ، وحيث ثار « روتبوف » بشدة ، يؤيده الجميع ، على اثراء الفرنسيسكان ، الذين تخلوا آنذاك ، في أديرتهم المعدة للدوس ، عن زهدهم الأول ، وكشف الستار عن نزعتهم الخفية الخطرة الى المذهب الصوفي القائل بمحبـــة الله وجمود النفس .

الا ان الانتقادات ، التي حركتها حملة فردريك الثاني العنيفة ضد روما ، قد تخطت هـــذه التفاصيل وتصدت بالقدح لكيان الكنيسة نفسها ، ولا سيما للملكية البابوية التي تميزت في أواخر القرن الثالث عشر بايطاليتها وتعاطيها السياسة واندفاعها وراء المادة . وقد وجدت هـــذه الانتقادات لها ، في بعض أفراد الجمعية الفرنسيسية ، مناصرين نشيطين جداً ، بعد وفاة بونافنتورا (١٢٧٤) الذي كان قد أفلح في الحفاظ على وحدة الأخوية التي أصبح هو رئيسها العام . فقد اعتبر بعض « الاخوة الصغار » تلطيف مبدأ الفقر ، أي حق امتلاك العقارات وقبول الاوقاف وتمهد الخدام ، الذي شجعه البابوات لتقوية عمل الجمعية والسماح لها بالقيام بوظيفتها الدراسية والدعائية قياماً افضل ، بمثابة خيانة كبرى لروح القديس فرنسيس . وهكذا فان أقليـــة « الروحيين » الضئيلة ، التي حركها في ايطاليا خصوم السياسة البابوية وأفسدتها من جهة ثانية نزعات صوفية تتنافى كلياً والعقيدة القويمة ، ولا سيما النظرية اليواكيمية القائلة بارتقاب مجيء المسيح ثانيـة ،

قـــد وقفت بعنف في وجه « الديريين » المثقفين الساعين وراء سعة العيش ، وقاومت السلطة الرومانية . وفي مستهل القرن الرابع عشر زلت بها القدم خارج الكنيسة فالتحقت بالفالديين ، ورثة هرطقة « الاطهار » في رينانيا والاخويات التقوية العلمانية العديدة وراحت تضخّم التيار الصوفي ، الهرطقي او القريب من الهرطقة ، الذي لم ينضب معينه في يوم من الايام .

في الوقت نفسه أقامت ادعاءات بونيفاسيوس الثامن الثيوقراطية في وجه الكرسي الرسولي كافة المدافعين عن الملكيات العلمانية ولا سيما القانونيين العاملين في خدمة « فيليب له بيل » : فكان للشتائم التي أطلقها جاكوبوني دي تودي باسم «الروحيين» الفرنسيسيين صداها في هجمات « غليوم دي نوغاريه » العنيفة . فجاء الحكم الصادر باشارة من ملك فرنسا على جمعية الهيكليين ـ التي استفادت من توزع فروعها في كافة أنحاء العالم المسيحي وتعودت جمع الاحسانات للحملات الصليبية ، فلعبت ، قبل الشركات الايطالية ، دور مصرف الايداع والتحويل ، والتي أدى بها فقدان المؤسسات اللاتينية في الارض المقدسة الى هذا الدور المالي ـ انتصاراً للسلطة العلمانية ، وزاد من النقمة على رجال الاكليروس بتشديده على اندفاع الكنيسة وراء الزمنيات . وحين أقامت الادارة البابوية ، بعد السنة ١٣٠٥ ، في جنوبي فرنسا ، قبل ان تستقر في افينيون ، هرباً من جوّ روما الفاسد وسجسها ، على مقربة من المملكة الكابيتية او تحت كنفها تقريباً ، كانت قـــد فقدت الكثير من قوتها الروحية . فتسرب الى العالم المسيحي قلق واضطراب لم يكونا عميقين حقاً ـ ويجدر بنا ، الى جانب مظاهر العداء للاكليروس هـذه التي اتسم معظمها بطابع المرح ، ان نشير هنا الى قوة وبساطة ايمان أكثرية المسيحيين الساحقة ـ الا ان خطرهما كان في تفاقم مستمر .

العلم والعقيدة

ان الجهود التأليفية التي بذلها القديس توما الاكويني لم تسفر آنذاك عن اية نتيجة ، فحصلت القطيعة بين العلم والبحث العقلي ودراسة العالم والانسان من جهة ، وبين حقيقة الايمان التي تخضع لرقابة الكنيسة من جهة اخرى . فالجامعات لم تنقد انقياداً سلساً للنظام الفكري الذي رغبت روما في فرضه عليها . وقد حدثت في باريس ، مـا بين السنة ١٢٣٣ والسنة ١٢٥٧ ، ازمة عنيفة اقامت في وجه السلطة البابوية الاساتذه العلمانيين الراغبين في تخفيض عدد منابر التعليم المسندة الى الدومينيكان والفرنسيسكان لانهم شكّوا في تضامنهم معهم واخذوا عليهم خضوعهم الاعمى لسلطة غريبة عن سلطة النقابة . وكان مقدراً لهذا الصراع ان يتجدد جيلاً بعد جيل ويعم مدارس انكلترا نفسها . وقد تعرضوا كذلك ، في الجامعة ، لنواح فكرية انطوى التعرض لهـــا على المزيد من المغامرة ، ضاربين بانذارات الكرسي الرسولي والاساقفة عرض الحائط . وقد رافق انتشار مؤلف « ارسطو الجديـــد » انتشار فلسفة ابن رشد بواسطة اطباء مدرسة سالرن بصورة خاصـــة ، فتغلغلت في المدارس الباريسية ؛ اجل انها كانت مستوحاة من ارسطو ، ولكنها اقل منه استساغة مسيحية الى حد بعيد . ان هذه التعاليم الخطرة التي ابرزت استقلال البحث العقلي حيال العقيـدة ، عرضت للخطر ،

منذ السنة ١٢٧٠ ، محاولات القديس توما للتوفيق بين العقل والايمان ، فصرفت ابعد المفكرين المسيحيين بصيرة، ولا سيما الاساتذة الفرنسيين، عن الابحاث الفلسفية ووجهتهم نحو الافلاطونية الصوفية ؛ واعدت الطريق للتأليف الجديد الذي اقترحه « جون دونز » السكوتلندي ، في مستهل القرن الرابع عشر، ليحله محل تأليف القديس توما، المستخف به آنذاك ؛ فهو قد تخلى ، بتأثير من تشربه تعاليم القديس اوغسطينوس ، عن التوفيق بين الفلسفة واللاهوت وبين العقل والايمان ، وفتح امام هذه الابحاث طرقاً متباعدة: « ان الله لم يوح للانسان الحقائق التي يستطيع العقل بلوغها ؛ كما ان العقل لا يبلغ الحقائق الموحاة من الله » ، ويستنتج من ذلك ان كل ما ليس منزلا يمكن مناقشته بحرية . اما الاساتذة الباريسيون المشهورون بجرأتهم، وعلى رأسهم « سيجر دي برابان » ، فقد استمروا في تفسير ارسطو وابن رشد على الرغم من الاحكام التي استهدفتهم في السنة ١٢٧٠ والسنة ١٢٧٧ ؛ فميزوا هم ايضاً بين امور الايمان – التي يُسلم بها بدون مناقشة – وامور العلم التي يمكن ان يتناولها العقل بكل حرية .

فتحت هذه الآراء امام البحث ، باستخفافها بالمراجع وبمناداتها باولوية الاختبار ، الذي اعتبر بمثابة مصدر لكل معرفة ، حقلاً متحرراً من كل وصاية كنسية . وبينما اخذت اسفار المبشرين والتجار تعطي صورة اكمل ، ان لم تكن اصح ، عن مساحة العالم وتنوع الطبيعة ، وبينما اخذ ينتشر استخدام اللغات الاجنبية ، اليونانية والعربية والعبرية ، التي فكر الراهب الكاتالوني « رامون لول » بتلقينها المبشرين في فترة اعدادهم لرسالتهم ، بات ممكناً ، منذ ذاك التاريخ، اخضاع اخلاق الكنيسة وسياستها وحتى كيانها للبرهان العقلي، خارج نطاق الايمان فتبدل المناخ الفكري تبدلا اساسياً حتى بالنسبة لاولئك الذين لم يتأثروا مباشرة بفلسفة ابن رشد . ففي جامعة اكسفورد ، انقطع الكاهن العلماني « روبير غروستات » ثم « الاخوان الصغيران » « جون بيتشام » و« روجيه بيكون » رهم اقل اهتماماً بالمنطق منهم بالعلوم الطبيعية والرياضيات ، لملاحظة الاشياء ، اي للطريقة التي كان بيكون اول من وصفها بالاختبارية . واذا لم تقترن هذه الابحاث آنذاك بنتائج حاسمة ، فقد تأيدت مع ذلك ، في اوائل القرن الرابع عشر ، بحصر نطاق الوحي حصراً دقيقاً ، حرية البحث الشخصي وعلمنة العلم التي تقدمت علمنة المجتمع في الارجح .

٤ ــ اشعاع الحضارة الفرنسية

تقدم التدريس

كان لتطورات العقلية في طبقات المجتمع العليا، خلال هذه الحقبة التي تداعت فيها انظمة الاقتصاد الريفي والعالم الاقطاعي والعالم المسيحي ، انعكاسها الطبيعي في تطور التعبير الادبي . فنحن نلاحظ فيه توسعاً مماثلاً ، اذ منذ منتصف القرن الثاني عشر تجملت المواضيع الغربية بتأثير سير القديسين والطقس البيزنطي وادب القصة العربي

والعادات المحلية الكلتية ، كما اننا نرى ميلاً متزايداً الى الجدل الحر وملاحظة الانسان والطبيعة ملاحظة مباشرة ، وتحرراً متماثلا ، اخيراً ، حيال الانظمة الكنسية .

ان الحدث الرئيسي في هذه الحقبة هو انتشار الثقافة الادبية التي تمت بصلة الى تحسن ظروف الحياة المادية. لقد تطلب توسع الاعمال من البورجوازيين دراسة مهنية منسقة؛ وبات لزاماً عليهم ان يعرفوا القراءة والكتابة والحساب وفهم اللغة الفرنسية التي كانت آنذاك لغة التجارة الكبرى . فتأسست لاجلهم ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في المدن الايطالية والفلمنكية مدارس عامة لا تخضع لسيطرة الاكليروس وتلقى الدروس فيها باللغة العامية ، وقد ساعد ذلك على رسوخ هذه اللغة . وانتشر التعليم كذلك في طبقة الفرسان من قبيل اللياقة العالمية اولا، خلال القرن الثالث عشر ، فتباهى فرسان كافة البلاطات الاوروبية وسيداتها ، على غرار نبلاء الأكيتين ، بانهم يعرفون القراءة ؛ ومن قبيل الحاجة التقنية ايضاً ، لأن استخدام الكتابة في المعاملات القانونية ، وكان محدوداً جداً في السنة ١١٠٠ بسبب ارتكاز العقود والحقوق المتبادلة الى الحركة الطقسية او الذاكرة او الشهادة الشفهية، قد تقدم تقدماً سريعاً منذ منتصف القرن الثاني عشر : فقد حررت الوثائق ونظمت السجلات وجمعت العادات المحلية في كتب. توجب من ثم على الفرسان أن يعرفوا القراءة لتصريف شؤونهم الخاصة، ولا سيما اذا اسندت اليهم وظيفة ادارية في خدمة الامير . وادى تنظيم الدول وتوسع اجهزتها السياسية ، في القرن الثالث عشر ، الى تكوين فئة متزايدة العدد من الكتبة ومسجلي العقود ومقيدي الدعاوى وماسكي الدفاتر الذين حصّلوا من العلم مبادئه على الاقل . وبات الكتاب اقل ندرة اخيراً . فمنذ القرن الثاني عشر اخذ بعض الخطاطين المحترفين، في الاوساط الجامعية الكبرى، يستنسخون المؤلفات استنساخاً سريعاً ويعرضونها للبيع ، تلبية للطلبات المتعددة .

الادب

افضى انتشار الثقافة الادبية في الاوساط العلمانية الى تقلص الادب اللاتيني . اجل لقد وضعت باللغة اللاتينية ، حتى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، مؤلفات هامة كيوميات الحبر الالماني « اوتون دي فريسنغ » ، و « الانتيكلوديانوس » ، وهو بحث فلسفي رمزي كبير للاستاذ الباريسي « ألان دي ليل » ، والاناشيد الكنسية الرائعة التي ألفها « آدم دي سان ـ فكتور » ؛ ولكن اللغة اللاتينية ليست بعد السنة ١٢٣٠ ـ اقله في فرنسا ـ سوى لغة التعليم العالي واللغة الطقسية فحسب ، مما ادّى الى فصل النشاط العلمي عن المشاغل الجمالية بعد ان كانت هذه المشاغل وهذا النشاط وثيقة الارتباط في الحضارة الغربية منذ النهضة الكارولنجية . فارتفعت بالنسبة نفسها منزلة اللغات الشعبية التي انبثقت منها لغتان ادبيتان جديدان اضيفتا الى اللهجات المحلية ، لغة الاوك من جهة ، التي استخدمها الشعراء الغنائيون في كافة المناطق الجنوبية من العالم المسيحي اللاتيني، ولهجة ايل ـ دي ـ فرانس ، من جهة ثانية، التي تبسطت في اوساط شمبانيا وبيكارديا الادبية والتي كان انتشارها شاملا. ومرد ذلك ـ اذ ان الصفة الاخيرة هي ما يميز هذا العهد ـ الى ان فرنسا احرزت في حقل الادب اولوية مطلقة يفسرها عظم المملكة بالذات ، وهي المتقدمة على كل مملكة غيرها في اوروبا من

حيث عدد السكان ، وازدهارها ، والدور الذي لعبته في الاقتصاد الغربي الاسواق الدورية الشمبانية ، وتوسعها العسكري في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الذي احل نخبة فرنسية اللغة في انكلترا والارض المقدسة وقبرص وموريا ، وبث الفرسان الفرنسيين في اسبانيا المسيحية وايطاليا الجنوبية ، وقيام اهم مركز فكري في باريس اخيراً . ومهما يكن من الامر فان الادب الفرنسي هو ما يجب ان نتتبع فيه التيارات المختلفة التي استجابت على التوالي لاذواق الجمهور .

حوالي السنة ١١٥٠ ، اخذت العادات الجنوبية تنتشر في فرنسا الشمالية ؛ ويغلب ان نقل بلاط بواتيه الى « ايل دي فرانس » ، في اعقاب زواج لويس السابع من « اليانور داكيتين » في السنة ١١٣٧ ، واقامة بنات اليانور ، أليس في « بلوا » ، وماري في شمبانيا ، قد ساعدا مساعدة كبرى على هذا الانتشار. وفي المناطق المحيطة بالأملاك الكابيتية ، درج أسياد الامارات الاقطاعية الآخذة في التثبت والتوطد ، وكونتية فلاندر وشمبانيا ، والبلانتاجنيه ، على ان يضموا حولهم ، في الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، جمعيات زاهية زاهرة، ويرعوا الأدباء في منازلهم. ثم خفت نصرة الأمراء هذه للأدباء قبيل القرن الثالث عشر حين آلت نجاحات السلطة الملكية الحاسمة الى اكفهرار سنى الدول الدائرية . الا ان تذوق الشؤون الفكرية كان ، في ذاك الحين، قد شمل أوساطاً اعمق رسوخاً في المجتمع، فبلغ أهل القصور انفسهم : ففي السنة ١٢٠٠، أخذ الكونت « دي غين » نفسه ، الذي كان محاطاً بالمشعوذين ، يتعود نظم الشعر . وأفضى انتشار هذا الادب البلاطي ، الجنوبي المنشأ ، في البداية ، الى تغيير الشكل الخارجي للمؤلفات الشعرية التي لم تعد معدّة للانشاد، على غرار الملاحم العسكرية الاولى ، بل للقراءة بصوت عالٍ، ولذلك بات الشعر مقفّى . وحدث في الوقت نفسه ، تحت تأثير لغة « الاوك » ، ان انتشرت وتبسطت عواطف العشاق المتدللين وعاداتهم. لذلك فقدت الاغاني الايمائية ، بعد السنة ١١٥٠ ، مميزاتها الاولى وتشربت روحاً أعظم رقة، ارستوقراطية الطابع، واهتمت بالتحليل السيكولوجي وتناولت المواضيع الغرامية في جو لا يخلو من كل مدهش وعجيب . الا ان لوناً أدبياً اكثر انسجاماً مع المشاغل الجديدة ، هو القصة المتدللة ، قد ازدهر آنذاك مديناً بشهرته لـ « ماري دي فرانس » و « غوتيه داراس » وخصوصاً لِـ « كريتيان دي طروا » الذي أعطى هذا اللون رائعته بكتاب « ايفين » (حوالي ١١٧٢ — ١١٧٥) . وقد تحولت فيه الملحمة الحربية ، تحت تأثير « اوفيد » وبعض الملاحم القديمة ، وربما القصص البيزنطية ، وخصوصاً تحت تأثير التقاليد الاسطورية الكلتية التي وفرت حوالي السنة ١١٧٠ ثلاثة مواضيع روائية كبرى هي مواضيع « تريستان » و « دي غرال » و « ارثور » ، الى سلسة من المغامرات المدهشة و « التسولات » التي تتخللها دسائس عاطفية تناولها وصف دقيق . فجاءت القصة من ثم منسجمة مع تهذب الاخلاق وتسرب عادات التدلل الى طبقة الاشراف التي أشاد هذا اللون بقيمها الرئيسية : « الفروسية » ، أي الشجاعة والاناقة ؛ و « العلم » ، أي الثقافة والعدالة .

في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر، طرأ تطور محسوس على هذه النزعة الارستوقراطية التي يختلط فيها الواقع بالخيال . فقد تقلص الشعر امام النثر اولاً بفعل تقدم المطالعة الفردية . ثم جعل ازدهار الطبقة البورجوازية من المدن مراكز رئيسية للحياة الأدبية ، كان أشهرها ، بالاضافة الى باريس ، آراس ، مدينة صناعة الاجواخ والاعمال المصرفية الكبرى ، ومقر مجمع اشبه بمجمع ادبي عرف باسم (*le Puy*) أسسته جمعية مهنية ودينية من المشعوذين ؛ ونحن نعرف أكثر من ١٨٠ كاتباً عملوا فيه خلال القرن الثالث عشر. ثم اصيب ادب التدلل بالنهكة، ولم يعد ليلبي رغبات المجتمع العالمي فأبدى مزيداً من الاهتمام للواقع المحسوس وتأثر كذلك بالمفهوم المسيحي للفروسية وأساليب الفلسفة الكلامية وتطور الفكر الشامل نحو الرقة والسرية ، فانتهى مع مؤلفات لانسلو (١٢٢٠ – ١٢٣٥) و « قصة الوردة » « لغليوم دي لوريس » (حوالي ١٢٣٦) الى رمزية غالباً ما تتكلف تهذيب الاخلاق . وانتشر بالمقابلة ادب المناسبات المعاصرة، بشكل روايات عن الحملات الصليبية – فقد ألف « روبير دي كلاري » و « فيلوهردوين » ، بمناسبة حملة القسطنطينية ، التاريخين الاولين اللذين وضعا نثراً باللغة الفرنسية – وبرزت الرغبة في وصف التفاصيل الواقعية والمزاح البذيء التي لبتها الحكايات القصيرة وطابقتها كذلك الاوصاف الدقيقة التي طلع بها جان رينار في القصة الغزلية ؛ كما برزت اخيراً السخرية الرشيقة المرحة التي استهدفت النساء والاكليروس وتعرضت للتدلل والاخلاق الارستوقراطية ، كما يتضح ذلك في قصة « اوكاسين ونيكوليت » .

ان هذه النزعة الى الواقعية والهجاء ، التي أظهرت تفوق العقل على العاطفة ، وهو موقف جديد ينم عن بصيرة وذكاء ، قد توطدت نهائياً بعد السنة ١٢٤٠ بينما اهتمت الجماهير اهتماماً متزايداً المؤلفات الهادفة الى جعل العلوم في متناول الجميع . كما ان المكتبات الخاصة ، التي اخذت تتكون في منتصف القرن الثالث عشر ، قد عبرت عن الاتجاه المزدوج ، المتزايد تباعداً، نحو الورع الشخصي والصوفي من جهة ، ونحو معرفة الانسان والعالم معرفة عقلية طليقة من جهة ثانية ، واشتملت بصورة خاصة على الكتب التالية : المؤلفات التعليمية ، كدوائر المعارف، « الكنوز » ، و « صور العالم » ، المستوحاة من مؤلفات « فنسان دي بوفيه » (حوالي ١٢٥٤)، ومؤلفات تقوية كتراجم القديسين ونصوص الكتاب المقدس او « مدائح العذراء » . لذلك فان الميزة التي تتسم بها المؤلفات الادبية الكبرى حوالي السنة ١٢٧٥، أي في الوقت نفسه الذي اخفق فيه مشروع توما الاكويني ، هي عودة ، لا تخلو من الجفاء ، الى الحقيقة والبساطة والملاحظة المتحررة من كل اقتسار صريح او معنوي . وفي ندوة آراس بشّرت ألعاب آدم دي لاهال الموسيقية (١٢٦٢ – ١٢٨٠ تقريباً) بمسرح متحرر من اصوله الطقسية منقطع لتصوير المجتمع ؛ وازدهر ، بفضل الباريسي روتبوف ، شعر بسيط صادق يعكس مشاعر عامة البورجوازيين ويشدّد بالمقابلة على انحطاط فضائل الفرسان . اضف الى ذلك ان جان دي مونغ وهو خير ممثل للروح الجديدة ، قد هاجم بفجاجة ، في « قصة الوردة » التي وضعها حوالي السنة ١٢٧٥ في باريس،

كافة الآراء الاجتماعية المسلّم بها وكافة العواطف المصطنعة والمعقدة؛ فهدم اسس الاخلاق التدللية وسخر من عبادة المرأة وانكر تفوق شرف النسب ؛ وان في المركز الاولي الذي يحـــلّ فيه الطبيعة والعقل لاجلاءً مباشراً لمفاهيم فلسفة ابن رشد . فانتهى بهذا العمل الهدام عهد عظيم من عهود الادب الفرنسي .

الا ان هذا الادب قد استمر ، حتى وفاة القديس لويس ، ادباً دولياً تتذوقه النخبة في كل مكان ، فأوحى من ثم ، في مظاهره المتعاقبة، كافة الانتاجات الموضوعة باللغة العامية في اوروبا الغربية . ففي كاتالونيا ، ولا سيما في البرتغال ، سار الشعراء منذ اواخر القرن الثاني عشر عـلى خطى شعراء جنوبي فرنسا المتجولين، وكان للأغاني الايمائية في فرنسا الشمالية تأثيرها على ملحمة « السيد » القشتالية في الارجح . وفي أثناء الرحلة التي قام بها فردريك بربروس الى آرل كي يتوّج فيها ملكاً على بروفنسا، تعرف المشعوذون الالمان الى الشعر الغنائي الجنوبي واقتبسوا عنه مقومات ادب التدلل. فنقلوها الى المنطقة الرينانية حيث اعطت النور للأغاني الايمائية الالمانية؛ وبعـــد السنة ١١٧٠ ترجم « وولفرام فون اشنباخ » ومنافسوه القصص الفرنسية الجديدة . وغزا الشعر البروفنسي المدن الايطالية ، ولا سيما جنوى ، وحتى البندقية ، فأكبّ عليه بلاط فردريك الثاني في صقليا اكباباً مثابراً . وآثر الفلورنسي « برونتّو لاتيني » ، حتى ما بـــين السنة ١٢٦٢ و ١٢٦٨ ، ان يضع بالفرنسية كتابه «الكنز» الذي كان قد ألّفه لتعليم حكام المدن الايطالية ، لأنه اعتبرها « اعذب اللغات وأعظمها شمولاً » .

الفن القوطي

لعلّ اشعاع فرنسا هذا يبرز بمزيد من القوة ايضاً في المظاهر الفنية لحضارة القرن الثالث عشر. في الموسيقى اولاً: فمنذ حوالي السنة ١٢٠٠ حتى منتصف ولاية القديس لويس، توسع الفنانان الباريسيان ليونين وبيروتين في أبحاثهما حول الموسيقى المتعددة الاصوات ووضعا الاسس النهائية لبعض الالوان الجديدة التي ازدهرت من بعدهما . وفي الفنون التصويرية خصوصاً : ففي فرنسا الشمالية تكون اعظم فنون القرون الوسطى أي الفن القوطي ، قبل ان ينتشر في كافة انحاء اوروبا باسم «الفن الفرنسي». وهو فن مقدس شأن الفن «الروماني»، ولكنه اعظم منه انسانية وواقعية ، فاستجاب من ثم للتطور الفكري العام ؛ وهو فن المدن ايضاً يعبر عن ارتقاء البورجوازيات واشعاع كنائس المدن واحتجاب الأديرة الريفية بفعل تأثرها بصعوبات الاقتصاد في السيادة .

تحرر النمط القوطي من الاشكال « الرومانية » في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ولكن هذا التحرر كان بطيئاً . فقد ادخل الفنانون السيسترسيون ، منذ السنة ١١٤٨ في ستيو، ومنذ السنة ١١٥٠ في بونتينيي، الأقواس المتقاطعة الجارية بين الزوايا المتقابلة في سقوف كنائسهم النسقية العارية ؛ وقد استعملت أساليب التسقيف الجديدة كذلك في انجو وبواتو ، ولكن دون ان يفضي هـــذا الاستعمال الى تعديلات هامة في هندسة الأبنية التي ما زالت ربعة متراصة .

وتحققت النجاحات الحاسمة في الاراضي الملكية بتأثير من الهندسة البنائية في « سان ـ دني » . وحاول مهندسو العمارة ، في كاتدرائيات نوتردام وسنليس ولان وباريس وسواسون التي شرع بتشييدها ما بين السنة ١١٤٥ والسنة ١١٨٠ ، مختلفة كل الاختلاف عن بعضها شأن الكنائس « الرومانية » ، وقريبة كلها ، في تصميمها العام ، من الفن « الروماني » في نورمنديا ، استثمار كافة الامكانات التي يوفرها تقاطع الاقواس والتسنيد بالزوافر ، فتوفقوا في « لان » الى جبهة تتألف من ثلاثة مداخل عميقة مسقوفة يعلوها موضوع هندسي تجميلي وردي الشكل ، بين برجين ، وتوصلوا في باريس الى رفع القباب الى أكثر من ٣٠ متراً . اما الرسامون والنقاشون المكلّفون تزيين الاغلاق ، فقد حوّلوا النقاشة « الرومانية » شيئاً فشيئاً باضفاء مزيد من الاناقة والعذوبة على التماثيل – الاعمدة والاشكال ، وخصوصاً بطرق مواضيع حياة العذراء في سنليس اولاً ، ثم في لان ، واخيراً في باريس حوالي السنة ١٢٢٠ .

ادت هذه المحاولات ، بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٢٥٠ في فرنسا الكاتدرائية هذه بالذات ، الى خلق علم الجمال القوطي الذي نجد أمثلته النموذجية في شارتر ، وقد شيدت بين السنة ١١٩٤ والسنة ١٢٢٠ ، وفي « رمس » التي بوشر بتشييدها في السنة ١٢١٢ ، وفي اميان التي ابتدأ العمل فيها حوالي السنة ١٢٢٠ . فجاء هذا العلم نمطاً استبدادياً سيطر على الابنية كلها فحدّ من تنوعها ، وتميز هندسياً بتشامخ تدريجي نحو العلاء. في هذه الكنائس التي احتل فيها الخورس مكاناً متزايد الاتساع ، والتي قامت بجذاء صحنيها المنخفضين كنائس جانبية – هي اوقاف عائلية خاصة تنم عن ثروة بعض الفئات الاجتماعية وبروز بعض المظاهر التقوية المتميزة – تحققت الوثبة العمودية بارتفاع القباب ، وتحول القسم العلوي من ابراج الاجراس ، والانسجام بين الزوافر الخفيفة وبين دعائمها ، وايقاف الركائز الكثيرة المتحررة من التيجان حتى لا يعيق صعودها عائق . وقد بلغ هذا الشموخ حدّه في أبنية « بوفيه » القصيمة التي ارتفع خورسها ، قبل انهيارها ، الى قرابة ٥٠ متراً وابراجها الى أكثر من ١٥٠ متراً . وفي الوقت نفسه تجوفت الجدران وكادت الأبنية تصبح مجرّد هيكل يقوم على الركائز والاقواس ؛ فاتسعت الأبواب واستطالت النوافذ العلوية باتجاه أقسامها السفلى بحيث زالت تدريجياً المسافة الوسيطة الفاصلة بينها وبين اقواس صحن الكنيسة ؛ وباتت من الاتساع بحيث توجب تقويتها ببعض عناصر التقوية الداخلية . وتمثل كنيسة « سانت شابيل » الشاهقة في باريس ، التي ليست سوى هيكل زجاجي ، اكتمال هذه التهوية التدريجية .

تتميز الطريقة القوطية اساساً ، في النقاشة ، باستعداد روحي آخر حيال مواضيع الصور المقدسة . اجل لم تزل هذه المواضيع مقدسة ، ولكن الفنانين لم يحاولوا اذ ذاك ، تحت تأثير التبدلات التي طرأت على الشعور الديني ، تمثيل قوة الاشخاص الفائقي الطبيعة ، بل ما يمكن ان يجعلهم اعظم عاطفة اخوية نحو الانسان . ولا يعبر هذا الفن عن عظمة الاله بقدر تعبيره عن محبته . لذلك فاننا نشاهد في الحركات والوجوه حنواً ورقة ، وفي الابتسامة تصنعاً ، وفي العيون تغضناً وفي الجفن تثاقلاً يطبعان النظر بلطف بشري يناقضه التحديق الساهي في الوجوه

« الرومانية » . وكانت المخلوقات ، في الوقت نفسه ، موضوع اهتمام خاص . فبات للكائنات ، من نبات وحيوان، ولأعمال الانسان، مكانها في النقاشة التزيينية التي رتبت ووجهت بكل اتقان. وقد أفضى هذا الترتيب الجديد ، الذي لا تزال تنعكس فيه نزعتا النفس الرئيسيتان في القرن الثالث عشر ـ البحث الآني عن العطف الالهي وملاحظة الأشياء بتبصر ـ في الحقل التصويري ، الى اهمال المواضيع الخيالية (اذ ان المزينين لم يستوحوا الرؤى الجليانية آنذاك ، بل المواضيع الواقعية وسير المسيح والعذراء والقديسين) ، واتقان تقليد النماذج النباتية التي عم استخدامها في التزيين وانتشرت في كل مـــكان ، ومراعاة القياسات والتناسق في الشكل البشري . فبرزت النقاشة شيئاً فشيئاً في الجدار وغدت تمثالاً (فالصحناء ، بعد تاج العمود ، سائرة نحو الزوال)، وانتهت ، بفعل قبلتها الانسانية ، الى الاقتراب اقتراباً غريباً من فن صناعة التماثيل القديمة : فان اشخاص مشهد الزيارة في رمس لا تختلف بوجوهها وملابسها عن التماثيل اليونانية .

وأدى تجوّف الجدران اخيراً ، بحؤوله دون النقوش والرسوم التزيينية ، الى ازدهار تقنيـة الزجاج التي اعتمدت في الغرب منذ القرن العاشر على الاقل يحـــدّ منها ، حتى ذاك التاريخ ، ضيق النوافذ «الرومانية» . فانتشر استعمال ذاك الزجاج المقطع بواسطة مصانع الزجاج الكبرى التي قامت على التوالي في سان ـ دني في منتصف القرن الثاني عشر ، ثم في شارتر ، وأخيراً في سانت ـ شابيل، وسيطر على كافة الطرائق التصويرية الاخرى، وفرض على تزاويق المخطوطات نفسها ، التي أنتج أجملها في المصانع الباريسية ، اسلوبه الخاص : الاصباغ المتماثلة التي تفصل بينها دوائر سوداء تقوم مقام الفواصل الرصاصية بين القطع الزجاجيـــة ، والخطوط المنكسرة ، والتبسيط الكلي .

تكوّن هذا النمط في الحوض الباريسي ثم انتشر في كافة أنحاء اوروبا . ويرد هـذا الانتشار الى الاسباب التالية : تعاظم الدولة الكابيتية ونفوذ القديس لويس في العـــالم المسيحي ، والمنشأ الفرنسي لبعض التيارات الدينية ولا سيما للجمعية السيسترسية التي انتشرت ادبرتها في كل مكان ، وشهرة المراكز الفكرية في « ايل دي فرانس » ـ فقليلون جداً هم ذوو المقامات الكنسية الذين لم يترددوا على جامعة باريس في القرن الثالث عشر والذين لم يستطيعوا من ثم نقـــل قبس من الطرائق الفنية الفرنسية الى الكنائس التي اسندت اليهم ادارتها في عهد لاحق ـ، وتأثير المصنوعات الصغيرة ، كالتماثيل العاجية الباريسية او المذاخر الليموسينية النحاسية المزدانة بالمينا ، الـــتي قلّدت اشكال الفنون الكبرى خير تقليد وصدرت الى كل مكان .

تميز هذا الانتشار بعمقه وشموله في الارض المقدسة بصورة خاصة ، وفي البلدان الجرمانيـــة بعد السنة ١٢٠٠ على الرغم من أمانتها الطويلة للتقاليد الكارولنجية . ادخل السيسترسيون اولاً استعمال الاقواس المتقاطعة في مناطق المانيا المختلفة وحتى في اسوج؛ ثم استوحى بناؤو كاتدرائيات بمبرغ ومغدبورغ ولمبورغ منجزات لان وسواسون ، كما استوحى بناؤو ستراسبورغ وكولونيا الكاتدرائيات الفرنسية الكبرى التي يعود تاريخها الى اوائل القرن الثالث عشر ؛ وعلى شواطىء

البلطيك سقفت الكنائس الكبرى المبنية بالقرميد ، في كل مدينة من مدن الشراكة الهانسية ، وفاقاً للطرائق القوطية . وتم التقليد نفسه في النقاشة حيث انتشر النمط الجديد ، في الغالب ، كما في ستراسبورغ مثلاً ، بفضل الفنانين الآتين من فرنسا ؛ ولكنه تقليد مكثار : اذ ان تماثيل نومبورغ وبمبرغ الجميلة هي ، خارج فرنسا ، التماثيل القوطية الوحيدة التي يمكن مقارنتها بتماثيل شارتر او رمس .

اما في البلدان الجنوبية ، وهي مهد النمط « الروماني » وأرضه المختارة ، فلم يكن لفن « ايل دي فرانس » هذا الأثر الكبير . فحتى أواخر القرن الثاني عشر بقيت غاليا الجنوبية أمينة كل الامانة للطرائق التقليدية : والى هذا التاريخ يعود ازدهار النقاشة الرومانية في بروفنسا وتحقيق النقوش في فيك وفي كاتدرائية « بوي » . ولم يدخل الفن الشمالي الا بدخول الجمعية السيسترسية وبسط السيطرة الكابيتية ، أي بعد حروب الالبيين في لنغدوك ، ومع سلالة انجو في بروفنسا ـ وبصورة سطحية جداً ـ أي بعد السنة ١٢٥٠ . ثم انتقلت تقنية الاقواس المتقاطعة عبر طرق الحج ، فظهرت في السنة ١١٦٨ في سان ـ جاك دي كومبوستيل ، ولكن كاتدرائيات لوغو وسينوفيا ، العائدة الى اواخر القرن الثاني عشر ، ما زالت آنذاك رومانية ، على غرار النقاشة الكبرى في كتالونيا وروسيون التي تمادى عهدها زمناً طويلاً بعد ذلك العهد ؛ ولم يشع علم الجمال الفرنسي حقاً ، بعد ان نشره السيسترسيون في بوبليه ايضاً ، الا في اوائل القرن الثاني عشر ، اذ فرض نفسه ، في طليطلة وبورغوس وليون ، على مهندسي الكنائس الجديدة . وهنالك اخيراً بلدان ، هما ايطاليا وانكلترا ، لم يتأثرا بالنمط الجديد الا تأثراً جزئياً .

ففي انكلترا ، التي بلغ من تشربها الثقافة الفرنسية وانقيادها ، في حقل التصوير ، للتقنيات الفرنسية المصدر ، اننا لا نستطيع التمييز ، في القرن الثالث عشر ، بين النقوش الباريسية ونقوش ونشستر المزوقة ، واصلت الطرائق القوطية ، التي اختبرت فيها قبل سواها ، تطوراً مستقلاً منذ عشية الفتح الكابيتي لنورمنديا ، واستغرق تحررها من طرائق النمط « الروماني » النورمندي مزيداً من الوقت . فحتى حوالي السنة ١٢٥٠ ، نرى ان كنائس « الفن الانكليزي البكور » ، وأشهرها كنيسة سالسبوري ، تتألف من اجزاء متجمعة متلاحمة وتنمّ عن ايثار فنانيها ـ الذي سنشاهده في العهود اللاحقة ـ لانبساط الاجزاء القائمة وراء المذبح ، ولا تزال محتفظة بأبواب وضيعة . اما النمط « المزخرف » الذي عقبه ، وهو يتميز ببروز خطوط طفيلية ، فقد تحرر تدريجياً من التأثير الفرنسي . وسواء غطت النقاشة الجبهة كلها بالتماثيل ، كما في كاتدرائية «ولز» ، او اعتمدت في الابنية المدفنية لتمثيل الموتى تحيط بهم مواكب النواحين مذرفي الدموع ، فانها على مزيد من التميز والتفرد ايضاً . اما في ايطاليا ، حيث لم يرسخ النمط « الروماني » نفسه في يوم من الايام ، فان المستوردات السيسترسية الى فوسانوفا وسان غالغانو ، ثم استخدام الاقواس المتقاطعة في الكنائس الدومينيكية والفرنسيسية الكبرى ، الذى انحصر هنا في السقف ولم يفض الى العمودية ولا الى تجوّف الجدران ، لم تتوصل الى تغيير اتجاهاتها الفنية الاصلية الخاضعة اما

التأثير البيزنطي واما التقاليد القديمة .

ضعف التأثير الفرنسي

اضف الى ذلك ان الفن الفرنسي قد اصيب حوالي السنة ١٢٧٥ بنهكة شبيهة بتلك التي اصيب بها الانتاج الادبي . فقد نضبت القريحة الخلاقة ؛ حلّت المسائل التقنية كلها ، ولم تتجدد المفاهيم قط ، وافرط الفنانون في التدقيق والرقة، دون ان يتجرأوا بعد ، كما في انكلترا، على نهج تزيين مستهجن . ساروا في النقاشة شطر التصنع والتفه . وليس هذا سوى مظهر من مظاهر الانحطاط التدريجي في الحضارة الفرنسية : فالمملكة الكابيتية قد فقدت آنذاك المركز الرئيسي الذي احتلته في تطور الثقافة الغربية . ويردّ هذا التواري الى اسباب عديدة نذكر منها في الدرجة الاولى التغييرات التي طرأت في اواخر القرن الثالث عشر على الاقتصاد الاوروبي . استفادت فرنسا في ما سبق ، أكثر من أية دولة اخرى ، من التوسع الزراعي ؛ ولكن هذا التوسع قد توقف خلال القرن الثالث عشر ، فأدى توقفه، بفعل فقدان التوازن بين السكان المتزايدين عدداً والانتاج الذي انتهى الى الاستقرار، الى أزمة كانت مجاعة السنة ١٣١٦ ـ ١٣١٧ الخطيرة اوضح دليل على واقعها . واتضحت في الفترة نفسها مظاهر انحطاط الاسواق الدورية في شمبانيا ؛ وغدا الاقتصاد الفرنسي المزدهر ، بعد نمو التجارة الكبرى المطرد ، وتوسع الأعمال المصرفية ، وانتشار النقود الذهبية ، خاضعاً لسيطرة رجال الاعمال الايطاليين ، كما يبدو ذلك بوضوح في باريس نفسها .

الى هذا العامل الاول من عوامل التراجع انضم تقهقر السيطرة الفرنجية في الشرق الادنى : ففي السنة ١٢٦١ استعاد اليونانيون القسطنطينية وحصروا اللاتين في بعض السيادات في شبه جزيرة موريا حيث لم يلبثوا ان تطلينوا ، وفي السنة ١٢٩١ سقطت عكا آخر معقل مسيحي في سوريا : واذا لم يؤثر هذا التقهقر بشيء على التجارة الايطالية ، فانه قد حدّ من نفوذ الثقافة الفرنسية . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار كذلك توسع الدول الدائرية : المانيا التي امتدت نحو الشرق وقامت فيها المدن الكثيرة وازدهرت اقتصادياً بفضل الطرقات التجارية الجديدة المنحدرة اليها من جبال الالب، وانكلترا التي احيت بعض تقاليدها المحلية بعد ان فقد الملك والارستوقراطية ممتلكاتها في الباسة الاوروبية ، وقشتالة التي توصلت الى حصر العرب المغاربة حول غرناطة ، واراغون التي نمت تجارتها في المتوسط والتي انتزعت ، منذ السنة ١٢٨٢ ، صقليا من أيدي امراء انجو الذين انحصروا في ما خضع من شبه الجزيرة الايطالية لمملكة نابولي . ففرنسا ليست وحدها بعد اليوم ، وبمكننا تكوين صورة عن هذا التنافس في تاريخ جامعة باريس الداخلي : لا تزال المدارس الباريسية، في منتصف القرن الثالث عشر ، تحتل مركزاً اولياً معترفاً به ، ولكن المفكرين العاملين فيها والاساتذة الذين يوزعون التعليم على طلابها ينتسبون بأعداد كبيرة لبلدان أجنبية، كـ « البير الكولوني » و « توما الاكويني » والقديس « بونافنتورا » . واحتلت مدرسة اوكسفورد ، التي ما زالت تتقدم باستمرار ، مركز الصدارة في بعض حقول البحث . وأفضت

النزاعات التي قامت في مستهل القرن الرابع عشر بين البابا وملك فرنسا الى هجرة بعض الاساتذة والطلاب ـ وهي هجرة اولى . اضف الى ذلك ان تجزئة العالم المسيحي الى دول مستقلة متميزة قد حدّت من مكانة المراكز الفكرية الكبرى ، كجامعة باريس مثلاً : وهذا ما حدث في السنة ١٣٠٢ حين نفى فيليب له بيل جون دونس، المعروف بدونس سكوت، بسبب مناصرته لروما.

لهذه الاسباب جميعها ، تدنى شأن النفوذ الفرنسي . فبينما لم يبق من أثر لانتشار اللغة الكابيتية الواسع في الشرق الا في قبرص وموريا ، ازدهر في البورتغال واسبانيا شعر غنائي بلغة الشعب . اجل لا يزال افراد الطبقة العليا في انكلترا يتكلمون اللغة الفرنسية ، ولكنها لغة فرنسية مشوهة باطراد ، وبقوا امناء لقصص الفروسية التي تؤلف بهذه اللغة ، ولكن اللغة الانكليزية ، وهي لغة الارياف ، اخذت تنتشر في المدن وتستعمل في الكتابة مرة اخرى . وتخلى الشعر كذلك عن اللغة الفرنسية في ايطاليا الشمالية ثم في ايطاليا الجنوبية بعد تقهقر « شارل دانجو ». وفي الواقع انتقلت ادارة الثقافة من فرنسا الى ايطاليا في هذه الحقبة الممتدة من السنة ١٢٧٠ الى السنة ١٣٢٠ التي هي بمثابة مرحلة نضج نهائي بالنسبة للملكيات الغربية اشتدت فيها الانتقادات الموجهة الى البابوية ، وقد افضى الحكم فيها على ارسطو الى الحكم على فلسفة توما الاكويني ، ومرحلة توسع التجارة الكبرى توسعاً عظيماً ، ونهضة البندقية وجنوى البحرية والعمليات المصرفية الفلورنسية الكبرى .

تباشير النهضة الايطالية

ان ايطاليا هذه ، التي خيّم عليها الانحطاط حتى ذاك العهد وخضعت خضوعاً متمادياً للغزوات والحمايات الاجنبية ، والتي تأثرت أكثر من أية دولة اخرى ، منذ القديس فرنسيس الاسيزي ، بالرسالة الوحيدة القادرة على تجديد مسيحية القرون الوسطى ، قد استعادت بفضل التجارة التي أحياها البحر ، استقلالها الروحي وقوتها الخلاقة . فقامت في مدنها ، حيث تكدست اعظم الثروات المنقولة في الغرب ، ثقافة خاصة متميزة أغنتها العلائق بالشرق ورواسب الثقافة الرومانية التي اخذت تستعيد نشاطها . فهي ايطاليا اذن التي تسلمت إرث فرنسا الادبي ونفخت حياة جديدة في الألوان التي وهنت فيها بعد ان ازدهرت في ما وراء الجبال : ان تقليد قصص الفروسية الذي تلاشى ، داخل المملكة الكابيتية ، في اكثار معقد لا رونق له ، قد وجد له موطناً ، في اوائل القرن الرابع عشر ، في بلاطات حكام لومبارديا المستبدين ؛ كما ان الشعر الصقلي اولاً ، والشعر التوسكاني والبولوني ثانياً ، قد اقتبسا وجدّدا شعر الشعراء المتجولين في فرنسا في « النمط العذب الجديد » . اضف الى ذلك أخيراً ان ثقافة القرون الوسطى الكلاسيكية ، المدرسية والصوفية على السواء ، قد حققت آنذاك ، في « المهزلة الالهية » ، التي تجمع بين الايمان العميق وانتقاد الملكية البابوية بمرارة والاعجاب بفرجيل وارسطو ومعرفة ابن رشد وتمجيد محبة التدلل، منتهى كمالها وأعظم منتجاتها.

وأدت ايطاليا للفنون قسطاً اعظم تميزاً ايضاً . وهذا القسط هو بعث تدريجي للأشكال

القديمة نهضت به ايطاليا الوسطى بصورة خاصة ، في تلك المقاطعات ، الملاجىء ، التي لم تتأثر شأن غيرها بسيطرة المفاهيم الجمالية الاجنبية . فلم ينقطع السكان قط في هذه المناطق عن تشييد الكنائس ذات الاعمدة الداخلية والجدران العارية المغطاة بالاخشاب وفاقاً لنمط الكنائس الملكية الصافي: فان كاتدرائية اورفياتو التي بوشر بتشييدها في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر، أشبه بكنيسة ملكية قسطنطينية ، على غرار كنيسة «سانت ماري دي ترانستفير» التي شيدت قبل ذلك التاريخ بقرن ونصف ؛ وبرزت مثل هذه الامانة للطرائق القديمة في التزيين ايضاً سواء في الجبهات حيث تتعاقب القطع الرخامية بأشكال هندسية، كجبهة «سان مينياتو» في فلورنسا، ام في اشكال التبليط بالفسيفساء التي رسمها آل «كوزماتي» اليونانيو المنشأ للكنائس الرومانية. اما النقاشة التي تأثرت تأثراً اطول عهداً بالطرائق المستوردة من الخارج ، فقد رجعت بدورها الى الماضي الروماني ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في «بارم» حيث تتميز الاشكال الرومانية التي حققها « بندتو انتلامي » بتوازن وجلال رشيق لا يتميزان عنهما في النقوش الناتئة . وفي الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، غدت صقليا ، التي أعدّها فردريك الثاني ، في تفكيره ، لأن تصبح مركز الامبراطورية بعد تجديدها، مركزاً لنهضة صناعة التماثيل القديمة التي أنتجت، في الفترة نفسها التي أنتج فيها « الاله الجميل » في اميان، التماثيل النصفية العظيمة المتسمة بطابع روماني عميق التي حققهـــا ازميل « نيكولو دي فوجيا » . واقتبس جمهور من فناني توسكانا اخيراً ، ابتداء من نقولا البيزي وانتهاء بـ « تينو كاينو » مواضيع النقوش المقدسة المستوردة من فرنسا مستوحين في عملهم نقوش النواويس استيحاءً مباشراً. وفي اواخر القرن الثالث عشر شملت هذه الحركة التصوير ايضاً . ولما كان هذا الاخير مستقلا عن فن التزيين الزجاجي الذي لم يجد له مكاناً في كنائس ايطاليا المعتمة ، فقد تأثر تأثراً عميقاً بالفن البيزنطي الذي كان مزدهراً جداً في اواخر عهد النهضة المقدونية ، فجاء التزيين الفسيفسائي الذي انجز في بيت العماد في فلورنسا ، بين السنة ١٢٢٥ والسنة ١٢٨٠ ، تقليداً خالصاً للنماذج الشرقية . ولم يهتم « شيمابوى » (١٢٤٠ – ١٣٠٢) الا لاضفاء الحنان الفرنسيسي على الصور البيزنطية ، وقد واصل محاولاته ، في سينّا ، دوشيو و « سيمون دي مرتيني » . اما في روما فقد انصرف الفسيفسائي توريتي في كنيسة « سانت ماري » الكبرى (١٢٩٦) ، والمصور الجداري كافاليني في كنيسة « سانت ـ سيسيل » ، عن تقليد صور الشرق اليوناني الجامدة المستوية واهتدوا الى حياة الصور القديمة ودقة قياساتها . فكانا كمن مهّد الطريق لـ « جيوتو » الذي ادخل العاطفة القوطية على الاشكال « الرومانية » فأحياها في صور جدران كنيسة « اسيز » العليا (١٢٩٦ – ١٣٠٤) وفي ارينا دي بادوا .

ولكن الفترة (١٣١٧ – ١٣١٨) التي صور فيها جيوتو، تلبية لطلب آل « باردي » ، وهم من كبار صيارفة فلورنسا، مشاهد حياة القديس فرنسيس على جدران كنيستهم الخاصة المعروفة باسم كنيسة « الصليب المقدس » ، تصادف في الغرب فترة عقبت مجاعة كبرى انهارت فيهـــا الاسعار الزراعية وأفضى القلق الاقتصادي وتوسع السلطة الملكية في فرنسا الى قيام التكتلات

الاقطاعية ، بينما بدأت اعمال حربية شبه مستمرة مع انكلترا عند حدود غويان ؛ وتصادف ، كذلك الفترة التي اختارها البابا يوحنا الثاني والعشرون لتوسيع القصر الاسقفي في افينيون وللدخول في نزاع معلن ضد « الروحيين » ؛ كما تصادف اخيراً الفترة التي وضع فيها دانتي ، في كتابه « الملكية » ، نظرية امبراطورية لم يعد لها من وجود ، ومجّد ، في كتابيه « المطهر » و « الفردوس » ، العظمة الايطاليـــة . فقضي آنذاك نهائياً على التوازن بين العناصر السياسية والاقتصادية والدينية والفكرية لحضارة القرون الوسطى الذي قدّر له ، قبل خمسين سنة ، في عهد القديس لويس ، ان يتحقق بصورة عابرة في « ايل دي فرانس » . فاعترض العالم الغربي ، الذي ما زالت قوته الخلاقة شبه سليمة ، قلق فكري وصعوبات مادية ما كان ليرتقب مدى ديمومتها .

obeikandl.com